نحو آفاق أوسع - ١

المراحل التطورية للإنسان

الدين في مصر والعصور القديمة وعند العبريين

أبكار السقاف



أبكار السقاف

نحو آفاق أوسع ـ ١

المراحل التطورية للإنسان

الدين في مصر
والعصور القديمة وعند العبريين



نحو آفاق أوسع ـ ١
المراحل التطورية للإنسان

الدين في مصر
والعصور القديمة وعند العبريين

أبكار السقاف



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت – لبنان

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

المحتويات

الفصل الثاني
الدين عند الكلدان والسومريين والبابليين

الفصل الثالث
الدين عند العبريين

المقدمة

تحتاج الثقافة العربية في بداية ألفية جديدة إلى كلِ حرف أبدعه المثقفون العرب، فلا يجوز أن يكون هناك فكر محجوب، أياً كانت رؤيته، وسواء اختلفنا حول ذلك الفكر أم لا، فالإبداع الإنساني ـ وإن شطح ـ لا يخيف إلا أولئك المزعزعين مما يعتقدون أو يؤمنون به.

من ثمّ يجيء نشر كتابات أبكار السقاف (١٩١٣ ـ ١٩٨٩) جزءاً من هذه الرؤية، التي ترى أن الحوار الخلاّق ـ بين الأفكار ـ هو الذي يضخ دماءً جديدة في شرايين الثقافة العربية.

ـ ١ ـ

فقد ازدهرت في أوائل القرن العشرين الماضي حركات سياسية وثقافية متعددة لإعادة قراءة التراث لتكوين وجهة نظر مختلفة عن السائدة فيه، خاصة بعد فك رموز الحضارات القديمة ومعرفة لغاتها وأصولها وتاريخها.

وكان لثقافة الغزو والاحتكاك العنيف بالقوى المهيمنة على البلاد العربية أن تحركت ذاكرة النخبة الثقافية والسياسية معاً في البحث عن ماهية الماضي لمقاومة هذا الغزو، فتهجّنت الثقافة بعقل جديد ومتحرر جعل البحث في العقائد والأفكار القديمة الراسخة جزءاً أصيلاً من حركة التنوير والتقدم.

وبسبب حداثة تلك الأفكار وقعت النخبة تحت سيطرة مفاهيم الآخر، خاصة بعد ذيوع وانتشار مدارس التنوير الأوروبية، فما كان من تلك النخبة ـ في البداية ـ إلا أن قلّدت المناهج الأوروبية وأخذت عنها، فجاءت بعض أفكارها مشوشة وتابعة، إلا القليل النادر منها الذي نجا من تلك المحرقة وظل «مسكوتاً عنه» ولم ينتشر ولم يدخل في النسخ العام.

وبين مدرسة الاحتكاك بالآخر والصدام معه تولّدت مدرسة فكرية مختلفة عنهم راهنت على الغائب بين السطور وحاولت قراءته قراءة حرّة وتوافرت لها الأدوات الروحية والإرادة الثقافية بعيداً عن الوقوع في فخاخ الطرفين، مع الإفادة منهما إفادة عظيمة، فقد كانت هناك كتابات عبّدت الطريق أمام تلك المدرسة، الغائبة «في الشعر الجاهلي» لطه حسين، و«الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرزاق و«المرأة

الجديدة» لقاسم أمين، ومحاورات محمد عبده وريئان وغيرها، وقد تصاعدت حركات التحرر الوطني بكل أشكالها وتجلى ذلك في ثورة ١٩١٩، التي قُمعتْ فيما بعد كما قُمعتْ تلك الأفكار التي رافقتها من النخب المُختلفة معها من الفريق الصدامي، الذي يرى الماضي ثابتاً ومستمراً ولا يعتريه التغيير، فكان الصراع بينهما محتدماً بين التكفير والتكفير المضاد.

وفي خضم هذا الصراع غابت مدرسة بالكامل لأنها لم تشتبك مع الواقع السياسي السائد آنذاك كما فعلت المدرستان الأخريان اللتان انتشرتا وظلتا إلى الآن هما المحركتان للواقع الثقافي والسياسي، وهي ثنائية عجيبة نراها في المعارك السياسية والثقافية الدائرة إلى الآن بين الفريقين نفسيهما.

أما الفريق الآخر فقد ظلّ بعيداً عن مستهلكي الثقافة والسياسة بطريقة غامضة لأن فريق التنوير الأقرب إلى أوروبا، طه حسين، وقاسم أمين، وسلامة موسى، ولطفي السيد وغيرهم، وجد من يدافع عنه وينشر أفكاره ويستخدمه سياسياً أحياناً، وكذلك الفريق الآخر، فريق المضي الثابت المستمر، وجد من يدافع عنه هو أيضاً من العامة والخاصة، وظلّ الخلاف وبقي خلافاً سياسياً محضاً مما عجّل بذيوع أفكار الفريقين معاً، وبينهما ضاعت ثورة عقلية كاملة.

وهو المعنى العميق الذي وضعت أبكار السقاف يدها عليه وهي تنشىء كتابها العمدة «نحو آفاق أوسع ـ العقل الإنساني في مراحله التطورية» بقولها: «إلى الشمس، ودينياً، تحوّل الوادي فتحوّل سياسياً إلى عين شمس»، فالمعارك السياسية العامة والتبعية الذهنية غيبتا أفكار أصحاب هذا الفريق الذي تنتمي إليه أبكار السقاف، وإسماعيل مظهر وغيرهما.

وظهور كتابات أبكار السقاف الآن يعني أننا نحاول استعادة هذه المدرسة الغائبة، فلم تشأ الألفية الثانية أن تنتهي دون صعود نجم أبكار السقاف، ووضعها في مكانها اللائق، الذي تستحق، فلم يسمع عنها القارىء العام أو الخاص كما يعرف ويقرأ عن سيزا نبراوي، مي زيادة، صفية زغلول، باحثة البادية، عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء»، أو حتى نازك الملائكة ولطيفة الزيات، ونوال السعداوي وغيرهنّ مع أنها هي الوحيدة التي تستحق أن تكون قائدة لهؤلاء جميعاً، بل إنها تتقدم بخطوات كبيرة وواسعة عن أفكار المثقفين من الرجال، بمن فيهم طه حسين وقاسم أمين ومحمد عبده.

وهو ما يوضح مدى أثر الفكر السياسي دون الفكر الثقافي، صاحب التغيير الحقيقي في التاريخ البشري. والعامة والخاصة لا يزالان يعرفان هؤلاء المثقفين لاستخدامهم السياسة إلى أبعد مدى عبر الأحزاب والنخب والجمعيات، فغابت أمثال أبكار السقاف.

ونحن إذ نقدم كتابها «نحو آفاق أوسع ـ العقل الإنساني في مراحله التطورية»، إنما نقدم فكراً ظلّ غائباً عن المثقف العام والخاص معاً، وإن كان قد أثّر تأثيراً عميقاً في مثقفين حازوا جائزة نوبل، كما حاز آخرون على صك التنوير دون أن يهمسوا حتى لأنفسهم عن أبكار السقاف.

والعجيب أن أبكار السقاف ـ التي نضجت تماماً في أربعينيات القرن الماضي مع نضج العقل المصري والعربي ـ غابت بالرغم من حفظ التاريخ لكل الحركات السرّية والثقافية وغير الثقافية، حتى الهامشي منها مثل جماعتي «الخبز والحرية»، و«الفن والحرية» والجماعات الأخرى الأقل شأناً، وهو موقف لا يزال

غامضاً تجاه مفكرة في حجم أبكار، وإن كان عدم مشاركتها في أي من التيارات السياسية قد يكون السبب الرئيسي لهذا الغياب برغم احتكاكها بالمثقفين الأعلام بدءاً من العقاد حتى صلاح عبد الصبور مروراً بمحمد الصاوي محمد ونجيب محفوظ وغيرهم. وقد يكون السبب الآخر هو ما حدث في الخمسينيات وما بعدها مما أكّد غياب هذا النوع من التفكير واندماج الفريقين الآخرين ضمن السلطة الجديدة ـ سلطة يوليو.

على أية حال ها هي أبكار السقاف تُقدّم للقارىء العربي، لعل عودة أفكارها إلى الضوء تستطيع أن تسدّ فواصل التاريخ العربي والثقافي منه، تحديداً «المسكوت عنه» ونقول معها:

«هذا هو الغد قد أتى».

ـ ٢ ـ

إذن انتهى القرن العشرون واستقبلنا قرناً جديداً، محفوفاً بثورة أخرى، لا تشابه الثورات السابقة، هي ثورة الاتصالات التي جعلت الكوكب الأرضي قرية صغيرة، أو بقعة ضوء صغيرة داخل إطار من الهيولى، ومن هنا سنكتشف عوالم أخرى ـ تتقارب أو تتناصّ مع الأرض، وطوال عمر البشرية والاكتشافات لا تنتهي ـ خارج الإنسان ـ وقد ظلّ عالم الداخل محاطاً بالإبهام والغموض، وعلى جسد الزمن، تفجّرت دماء لتروي الأرض لتصبح ـ فيما بعد ـ نقطة ضوء تتراكم عبر الزمان والمكان ـ لتشكل بقعة أكبر. وهكذا يعود الزمن الغابر قادماً من المستقبل أو العكس ـ والمكان البائد يتحوّل إلى مكان المستقبل، فليس هناك مكان ثابت أو زمان ثابت ـ لكنّ هناك اختلاطاً بين الزمان والمكان بين الأجساد والأرواح بين العقل والرؤيا.

وإذا ما نظرنا ـ بعمق ـ حولنا لوجدنا غليان الكوكب الأرضي بثورات ونزاعات محورها الجغرافيا، والعقائد المخزنة تحت الجلد، أو بالأحرى السابحة في الدماء ـ والتي لم يروضها العقل بعد ـ ذلك العقل الذي ما إن يحاول أن يفكر حتى يتهم بالمروق والتمرد والإلحاد، ومن ثم الاستشهاد، في حروب عبثيّة من هذا النوع، وما الحروب الدينية، التي دارت رحاها نهاية القرن العشرين الآفل في أماكن عديدة من العالم، إلا نقصاً في التفكير وعجزاً عن الإدراك، بوحدة الوجود والعنصر.

وبرغم الثورات العلمية المتعددة والإنجازات المكتشفة، إلا أننا أمام ظواهر محيرة ألا وهي ظواهر الخرافة، التي تكاد تكون شبيهة بالعقائد، التي سرعان ما تتحول إلى عنصرية مكانية أو عنصرية دينية، وبالتالي تصبح بديلاً عن التقدم العقلي والروحي وتتمحور عناصر الموت والتدمير والخراب ضد بقعة الضوء التي هي الإنسان: الضوء الإلهي.

من هنا تأتي كتابات أبكار السقاف مجترحة طريقاً ضُلّ طويلاً، طريقاً ما يكاد يبدأ حتى يضيع، ألا وهو طريق العقل الواحد والمتعدد في آن، طريق الحرية الإنسانية والعدالة الاجتماعية التي ـ من خلالها ـ يتفجّر العقل بمعنى حرية الفكر والإنسان.

ومنذ الثورات العلمية، واكتشاف أن الكون صيغة رياضية هندسية، أو أن الكون هيكل رياضي البناء، والعقل الإنساني لا يتوقف عن البحث عن «نبع الوجود» في صيغ متعددة، صيغ قد تتخذ شكل

المعتقدات أو الأديان الروحية أو العلم الحديث، كل هذه الصيغ تصب في مجرى البحث عن معنى الوجود، وإن تخفّى البحث في بعض الأحيان تحت شعارات زائفة أو شعارات تكفيرية أو عنصرية، إلا أنه سرعان ما يقوم مرة أخرى ويتفجّر، بحثاً عن كينونة أو ألوهة الإنسان ـ الإنسان الكامل كما وصفه أو أراده «الجيلي» أو كما فجّره صاحبنا «الحلاّج» في النفس البشرية أو بالأحرى كما اكتشفها.

والسؤال الآن هو كيف غابت أبكار السقاف عن تأسيس العقل العربي والإنساني كل هذه الأعوام؟ فقد كانت هي الأجدر بأن تكون إحدى الأوتاد القوية في العقل العربي، لأنها مفكرة من طراز فريد، وهذا الكتاب ـ الذي بين أيدينا الآن ـ يكشف الالتماعات الروحية والعقلية لهذه المفكرة الكبيرة التي تنتمي كتاباتها إلى سلالة ابن عربي، وابن رشد، والفارابي، وسليم حسن، ومحرم كمال، والحلاّج، والجيلي، والمعرّي، والخيّام، وجواد عليّ، وأدونيس، فهؤلاء ظلّوا المصابيح المضيئة، في ظلام التاريخ العربي القاسي.

لكن كيف غابت أبكار؟!

فهي أولاً أبدعت وسط ظهرانينا كتاباتها التقدمية والحداثية في الآن نفسه، ولم يتنبّه لها أحد ـ كما ينبغي ـ وهي أولى الخطوات في البحث عن الإنسان ـ عبر العقائد والأساطير والأديان والعلم الحديث ـ وتكاد تكون «أبكار» «المثقف الوحيد» الذي يربط بين الروح الدينية والعلم في أواسط القرن العشرين الماضي، وعبر كتاباتها الغزيرة التي انتشرت «من قِبل آخرين فيما بعد»، لكن دون تعمّق ـ أدركت أن الدائرة ـ أكمل الأشكال الهندسية ـ هي محور الإنسان ـ المغترب عن ضوئه والمقترب من اغترابه والذي يحاول أن يعود إلى «نبع الوجود» فهناك تعطّش لهذا النبع، وبين الابتعاد والاقتراب كانت تبذل دماء، وتقوم حروب وتهدم أماكن وتضيع أزمنة، إلا أنها تدور الدائرة نفسها.

ومن هنا جاءت أبكار السقاف عبر رؤية ورؤيا لتجترح ذاكرة المستقبل، وبين الماضي والمستقبل تخص الحاضر بأبدع التوصيفات الإنسانية، برغم أنها متعددة التفكير والتناول: إلا أنها لا تحيد عن فكرتها الأساسية، وهي البحث عن الإنسان أو البحث عن اللّه في الإنسان.

ـ ٣ ـ

نادراً ما يربط مفكّر ما العلم الحديث بكل تقنياته بالفكر الروحي أو الاعتقادي، مثلما فعلت أبكار السقاف ـ التي ما إن يطلع القراء على كتاباتها حتى يقفوا مشدوهين من تجاهل وغياب هذه العقلية عن وجداننا الجمعي، إلا أن القرن الحادي والعشرين أبى أن يأتي دون أن تقوم مرة أخرى من بين الأموات ـ إنها لن تموت أبداً.

و«أبكار السقاف» لها كتاب «نحو آفاق أوسع» في أجزائه الثلاثة، والذي صودر عام ١٩٦٢ لجرأته العقلية والعلمية، وكتاب «إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة» الذي طبع عامي ١٩٦٥، ١٩٩٧ وغيرهما ظلت كتاباتها مطمورة كالكنوز تحت ركام النسيان والتجاهل، إلا أن شقيقتها الفنانة «ضياء السقاف» ظلّت حارسة لهذا الكنز محافظة عليه، حتى يخرج إلى النور، كما أرادت له صاحبته، وكما تمنّت أن يكون بستاناً عظيماً يقطف منه العقل الإنساني. وسيذهل العقل العربي عندما يطلع على كتابات هذه

السيدة «المنسية» وسيشعر بتأنيب الضمير لأنه أغفل أو تغافل عن مثقف عضوي حقيقي استطاع عبر آلاف الصفحات أن يسطر أروع ما خلفته الروح الإنسانية مستخلصاً الطريق إلى «معنى الوجود» دون الوقوع في مصائد الجغرافية أو الزمنية، عبر مسيرة الإنسان ككل، وإن اتخذت جغرافية أفكارها هذه البقعة من الأرض المشحونة بالعقائد والأفكار والأديان لتربط الإنسان بنفسه أو الله بذاته.

وأخيراً إننا بنشرنا كتابات أبكار السقاف نحاول أن نطرح أفكارها كما هي، حيث حرية الإنسان والبحث عن العقل في عالم متماوج ومتغير، في عالم تحدّه أمراض التكفير والقتل المجاني والموت العبثي، وإننا سنوالي نشر أعمال «أبكار السقاف» حتى تكون للقرن الحادي والعشرين بداية مشرقة، وحتى تكون الأرض محروثة وممهّدة أمام القادمين، ولنجزّىء الآتين على استخدام حقوقهم في الحرية الإنسانية، ونرفض ما يغلهم ويقيّدهم أياً كان.

القاهرة في ٢٦/١/٢٠٠٠

قارئي

إن هذا الكتاب مجهود فرد، ومجهود الفرد أبداً إلى الكمال في حاجة ما بلغ الكمال في الكون شيء فكل شيء نحو الكمال يهدف، في كون نفسه، نحو الكمال هادف.

مثلنا في الحياة كمثل سائر نحو أُفق، يظنه النهاية وقط لن ينتهي إلى النهاية، فليست هناك نهاية تُبْلَغْ فإن هو إلا أفق يَنْحسر عن أفق، وإن هي إلا آفاق تطوى فتنتشر بطيها آفاق، وأبداً منها في اتساع تتسع الآفاق.

من صور الكمال «المعرفة» صورة نحوها هادفاً اتجه الإنسان مذ أشرق على صفحة الوجود له وجود حفر اتجاهه نحوها، على رمال الزمن، خطى امتدت إلى خطوات وخطوات... إلى ما قد ظنه الهدف سار فأدرك، ولكن ليدْرِك أنه لم يُدْرِك ما قد ابتغى له إدراكاً، فما أشرف على أفق إلا واستشرف آفاقاً أبداً في اتساع تتسع منها الأرجاء...

لهذه الخطى مُتعقباً، اتبع الفكر محاولاً تقصّي ما قد تركه العقل الإنساني بها، على بيداء الوجود من أثر هدفه فيها كان، مذ أشرقت به الحياة وانبثق فيه العقل، المعرفة.

والعقل؟ سفرٌ العقل؟

سِفرٌ، سجّل للإنسانية تاريخاً تاريخه قِصَّة التطور، فتاريخه التاريخ مذ صعدت به حلقات التطور من الحيوان إنساناً وبه هبطت من سلاسل الجبال إلى الأودية الكبرى، ومن الهمجية إلى المدينة تمر بها عبر عصور التحضُّر فيسجِّل خطاه نحو الطبيعة وما بعد الطبيعة والدين...

فما الوجود؟..

وما الألوهية؟..

بل ما الصرح الذي قام على الوجود والألوهية... ما الدين؟ كلا!..

بل ما تاريخ الإنسان، ونفس الإنسان، وعقل الإنسان.

أبكار السقاف

الفصل الأول

الدين في مصر القديمة

الدين عقيدة صاحبت عقيدة الألوهية. ولو سألنا كيف نشأ الدين؟ فالجواب: «نشأة فكرة الألوهية» فإنما حول الصلة بين المُؤَلَّه، والمؤلِّه، والمعبود والعابد يقوم الدين.

على أسس التفكير الإلهي أو بالأحرى التفكير فيما بعد الطبيعة القائم بدوره على أسس التفكير في الطبيعة أو الوجود، قام الدين.. وتطوُّر الفكرة والعقيدة فيما بعد الطبيعة، تبعاً لذلك، وارتقى في النفس البشرية.. الدين!!

ومن ثمّ فلدراستنا الدين يتحتم أن ندرس على أسس سليمة من قواعد العلم؛ علم الحياة وعلم الأجناس وعمل النفس، وتاريخ النفس البشرية في تاريخ العقل البشري. فتحت أضواء هذه العلوم يتجلّى العقل الإنساني في البشرية كالعقل من الإنسان به ترتحل مراحل العمر التطوريّ مراحلها الطبيعية الارتقائية. بل ماثل العقلُ البشري العقل من البشر. فبخطواته سار العقل البشري بالأمم كما يسير بخطواته في الأفراد، وتتحكم في تفكيره لهذه المراحل أطوار.

وليداً: بمرحلة الطفولة مرَّ، فطبعته هذه المرحلة بطابعها، والسذاجة لهذه المرحلة طبيعة وطابع! طبعته السذاجة بطابعها، فطبعته طبيعة سرعة التصديق واعتناق الأوهام عقائد والتشبث بها، والإيقان بأنها من الحق الحق ـ هذا هو الطور الذي يستجيب لعصور الهمجية والوحدات القبليّة وانتشار البِدَائي من الأديان..

ويافعاً: بمرحلة الصّبا مَرَّ، فمرَّ بطور فارقته فيه سجية سرعة التصديق... فتمرَّد، وفيما قد صدّق وليداً أحدقت منه الشكوك! هذا هو الطور الذي يستجيب لعصور الحضارة وسيادة الأقاليم وانتشار الشَّك والتحرّي ونسخ قديم بجديد، جديده القديم في صورة التجديد فمن نفس مادة الأساس قام جديد أديان...

ومتفتحاً: بمرحلة الشباب مرَّ، فأحاط بالحواس وبالعاطفة منه لهيبُ هذه المرحلة من العمر! ومن ثمّ ازداد إيمانه بأنه كان على حق فيما قد شك.. فاحتفظ من القديم بما رآه نافعاً.. وأتى بجديد من قديم بصحته آمن كل الإيمان.. وضنيناً بما جاء، جاء يُسيِّج عقائده بالقدسية، ويَحُفُّ ما قد سطّر من نصوص بحفيف الوحي المنزّل، ويفرض أوامره فرائض ـ هذا هو الطور الذي يستجيب لعصور الوحدات السياسية وقيام رسميِّ الأديان.

وناضجاً: بمرحلة التجربة مَرَّ، فأضفت عليه هذه المرحلة من العمر مهابة وهيبة.. ومن ثم فالمرحلة مرحلة الرزانة والتؤدَة والتعقّل، والعصر عصر العقل والحكمة، والفترة فترة هدأةٍ استغرقها استعراض الماضي واستشفاف المستقبل.. استعراض كبوات الطفولة، وعثرات الصبا وحميّة وتمرُّد وجموح الشباب ـ هذا هو الطور الذي يستجيب لقيام المدنيات وإشراق الفلسفات.

وواهناً: بمرحلة الإخلاد إلى السكينة مرَّ... فاكتنفته شيات هذه المرحلة من العمر ومن ثم قَصرت مطالبه على التماس الراحة ـ هذا هو الطور الذي يستجيب لعصور شاهدت نهاية عهود سياسية، وبدء عهود سياسية أخرى، ومغيب الفلسفات.. في ضوء غارب الفلسفات واهناً اختار العقل ما قد أتى به من فكر فلسفات وعقائد أديان.. ومن ثم فالطور طور مزْج الأديان بالعقليات ومحاولة التوفيق بين القديم من الأديان والحديث من الفكر بالتطبيق والشرح والتعليق وتحميل قديم النصوص بجديد معان، وابتداع بدعة التأويل وسيادة الدين الرسمي!

كل هذه المراحل التطورية الطبيعية تحكّمت في تفكير العقل الإنساني وحتّمت نظرياته في الطبيعة وما بعد الطبيعة التي يقوم عليها الدين..

ولما كان موضوعنا الدين فإننا لا نستطيع إلا أن نمر مروراً سريعاً على أهمّ الفروع التي تحدَّر عبرها، من هذين المصدرين، الدين، وأولهما: الطبيعة.

الطبيعة أو الوجود، مشكلة لحلها وجد العقل الإنساني نفسه متجهاً عَبْرَ مراحل حياته التطورية. فأتى بعد حلول أوجدت بدورها، في دائرة الطبيعة، مشاكل، فقد تدفقت هذه الحلول عبر الينابيع الثلاثة المنبجسة في تربة النفس البشرية:

الينبوع العاطفي

الينبوع العقلي

الينبوع النفسي

عَبْرَ هذه الينابيع المختلفة والمتباينة الألوان تغيّرت وما زالت تتغير النظرة إلى الطبيعة أو

الوجود. فعبر هذه الينابيع تتحدّر عن الطبيعة عقائد متباينة مختلفة، فإن:

عبر الينبوع العاطفي، تتحدَّر: عقيدة الخلق.

وعبر الينبوع العقلي: تتحدَّر: عقيدة الأزلية.

وعبر الينبوع النفسي: والعقل في تمام نضوجه يصغي إلى صوت النفس ويرجع أصداء هذا الصوت الآتي إليه صافياً مدوياً بالحب. حب يشمل الوجود بموجوداته ويجترف السكون بكائناته ومكوناته... حب، في غمرته يتبدّى الوجود فيضاً من الحب ـ الحب الخليّ من غاية ـ الحب الخليّ إلا من الحب!..

عبر هذا الينبوع يتجلّى الوجود غيره في الينبوع العاطفي فليست هناك وراءه غاية قد أوجدته، وليس هناك عدم منه قد خلق. فخلقاً لم يخلق وإنما هو من الحب قد صدر وفيض هو من فيض الحب ـ هذا هو الينبوع الذي تتحدّر عبره العقيدة الصوفية: «عقيدة الصدور أو الفيض».

على هذه الأسس في التفكير في الطبيعة واختلاف الفكرة عنها والعقيدة، يقوم التفكير الإلهي، وبالتالي العقيدة في ألوهية، ويتّخذ عبر هذه الينابيع الثلاثة مظاهر ثلاثة:

عبر الينبوع العاطفي: يتجلّى المظهر الاجتماعي أو التأليه البدائي.

عبر الينبوع العقلي: يتجلى المظهر الفلسفي أو التأليه العقلي.

عبر الينبوع النفسي: يتجلى المظهر الروحي أو التأليه الصوفي.

من الينبوع العاطفي نقترب فيطالعنا:

التفكير الإلهي تحت المظهر الاجتماعي

التفكير الإلهي، تحت هذا المظهر، يصطبغ بصبغة التأليه البدائي.. في هذا الدور الذي بدأت تتجمّع فيه الأقاليم تحت سيادة إقليم واحد يربط بينها بوحدة سياسية، وُحِّدَت الآحاد في واحد بإفناء أرباب الأقاليم المسودة في رب الإقليم السائد عن طريق إدماج في الصفات... ومن ثم جرت العقيدة الإلهية التي تدفقت من الينبوع العاطفي إلى مصب خالص الوحدانية، ولكنها وحدانية مادية خشنة وجافة كل الجفاف، فإنه تحت هذا المظهر تتجلّى فكرة الألوهية؛ فكرة اجتماعية... تتغير بتغير المجتمع وتتشكّل بتشكّل البيئة والعصر.

تحت هذا المظهر، وفي هذا الدور من التطور العقلي والعقل الإنساني يجتاز أطوار الحداثة والزمن به ينسلخ من دور الهمجية إلى دور التحضر والحضارة، صُورت الألوهية بصورة مادية فطرية بدائية!

تحت هذا المظهر صُبغت الألوهية بالعنصرية، وحصرتها «المكانية» في سماء، وقيّدتها «الجسمانية» في جسم.

تحت هذا المظهر ادُّعي للإله على الجبال تجلٍ، ورؤية وكلام!

تحت هذا المظهر، والعروش الأرضية على الأرض تقام، أقيم للإله عرش في السماء!

وبينما الزمن بالفكر الإنساني ينسلخ من دور التحضّر إلى دور المدنية، ويدفعه إلى طور التجربة، فيتنبّه إلى المادية التي كان فيها يتمرّغ يهبّ تأثراً على ما قد صورته من المخيلة في حداثته من صور وما قد حفّ بهذه الصورة من عقائد.. فينطلق مفكراً يفكر.. ونزاعاً إلى المجرّدات ينزع عن الألوهية الصبغة التي صبغها بها في حداثته، والتي اعتنقها ـ ديناً ـ العقل الجماعي ويأتي بتفكير جديد يرميه العقل الجماعي بالباطل، ويتهمه الدين الرسمي، المُجمعة عليه الجماعات، بالحيدة والزيغ والمروق عن موروث دين الآباء، فلقد سجّل العقل الإنساني ناضجاً.

التفكير الإلهي تحت المظهر الفلسفي

التفكير الإلهي تحت هذا المظهر يصطبغ بصبغة التجريد، وفي هذا الطور من التطور الارتقائي، لا يعتمد إلا على نفسه!.. لا يعتمد على نصّ ولا على نقل.. حسبه تفكيره لذاته، وتعقله بذاته لذاته.. حسبه أن يفكر لنفسه.. فإن التطور الطبيعي لسنة النشوء والارتقاء قد طفر به فكراً يستنتج ويدلل ويعلل ويبرهن ويدفعه متسائلاً فمنتزعاً البراهين على وجود إله... وبعد انتزاع البراهين يجادل «الصفات» ويناقش «الصلة» ويأتي بحلول للمشاكل الرئيسية الثلاث التي يشتمل عليها التفكير الإلهي تحت هذا المظهر.

الإثبات: إثبات وجود إله.

الصفات: الصفات التي تتفق والألوهية.

الصلة: الصلة بين الإله والوجود.

لقد انتهى العقل بالبرهان على «وجود موجود مطلق» ـ مبدأ أول هو العلّة لكل ما هو موجود، ثابت، ومستغن.. وقام العقل يُقدم تلك البراهين التي تنقسم إلى ما اعتمد فيه على العقل اعتماداً مطلقاً، وما اعتمد فيه على التجربة الحسية واعتمد فيه على العالم الخارجي، وما استنبطه من العالم الأخلاقي، فكوّنت البراهين:

براهين ما بعد الطبيعة

البراهين الطبيعية

البراهين الأخلاقية

وبهذه البراهين برهن العقل الإنساني على تجرد الألوهية إلا من اللامجردات، فنفيت عن الإله نفياً ثابتاً العنصرية والمكانية والجسمانية. نفياً نفى التجلي والرؤية والمكالمة، فانتفت تبعاً لذلك النبوة والرسالة وبعث رسل وتنزيل نصوص!

أجل... إن التطور الارتقائي قد خلص بالعقل في بحوثه النظرية إلى الألوهية العقلية، ومن ثم فاصطباغ التفكير الإلهي، تحت هذا المظهر، بصبغة التأليه العقلي.

إن التأليه العقلي عن علائق الحياة يتجرّد، وبقدر تجرّده عنها بقدر اتجاهه نحو «الموضوعية» و«العمومية» وبقدر ما يعتلي بالنفس يغدو «مبدأ تأمل» ومن ثم فاتجاه العقل الإنساني إلى دراسة الموجود، من حيث هو، على صورتيه:

الموجود الحسي أو «العالم الخارجي».

الموجود المعنوي أو «العالم الداخلي».

درس فوجد أن «الموجود المطلق» علّة وجود العالمين!

بلغ العقل الدرجة القصوى من النموّ النفساني التي تسجّل له وقوفه في قمم التفكير الإلهي تحت هذا المظهر. فقد برهن على وجود «الموجود المطلق» كعلّة لوجود العالمين الحسيّ والمعنوي أو العالم الخارجي والعالم الداخلي أو الطبيعة والعقل؛ ثم طفق يُلقي على براهينه أضواء المنطق متسائلاً عن الصلة: أمستغنٍ «الموجود المطلق» عن كلا العالمين أم أنه فيها مؤثر ولهما مبدأ وحدة؟

ولإدراك «الموجود المطلق» طوى الفكر الإنساني العالم الخارجي عنه باحثاً، وامتد إلى العالم الداخلي يلج لجّة النفس متقصياً، وبهذا بلغ الدرجة من النمو النفساني التي بها يطالعنا:

التفكير الإلهي تحت المظهر النفسي

العقل الإنساني في هذا الدور قد بلغت به أطوار التجربة أتمها، فهو، وقد بلغ القمة، يشرف على آثار خطواته في محاولة بلوغ هذا المشرف، بينما ينحسر أمامه أفق قد اتسع اتساعاً لم يتسعه أفق من قبل!... أفق، فيه يتلفت فيجد في كل متجه امتداداً، فالأفق الجديد أفقه آفاق ونهايته اللاانتهاء!..

ولكن!.. أمام العقل قد انبثق في هذا الأفق، كنتيجة حتمية لهذا التقصّي، تياران متعارضان ينعطف الواحد إلى ناحية في منتهاها يتجلّى الإله: علّة الوجود ومنشؤه المفارق

والمختلف عنه اختلافاً جوهرياً وغير الخاضع للواقعية التي تسوده؛ بينما ينعطف الآخر إلى ناحية في منتهاها يتجلّى الإله غير مفارق للطبيعة أو الوجود...

وأمام هذين التيارين وقف العقل يتساءل:

أمتعدد الوجود؛ أم تشمل تعدده وحدة.

سؤال، بعث بمبدأين مختلفين:

«التعدُّد» أو تعدد الوجود.

«الوحدة» أو وحدة الوجود.

أجل. لقد لجّ الفكر الإنساني في أغوار النفس.. فتبدّى أمامه معنيان متباينان: في أحدهما يتراءى الوجود هو وحده الحق والإله مجموعة أجزائه، فسجّل: «وحدة الوجود الطبيعية».

وفي الآخر يتراءى الإله هو وحده الحق، وبموجوداته الوجود شيء فيه ومنه... ولكن هذا المبدأ الآخر، قد تفرّع إلى فرعين متباينين، فقد تبدّى الوجود في أحدهما مجموعة لانبثاقات فاضت عن الإله، فسجّل:

«وحدة الوجود النفسية، أو المذهب الوحدي وفي الفرع الآخر تبدّى الوجود مجموعة مظاهر يبدو فيها الإله بصورة حلولية فسجّل:

«وحدة الوجود الحلولية» أو المذهب الحلولي. وبالمذهبين الوحدي والحلولي، وفي كلا الفرعين ليس الوجود، سواء أكان انبثاقات أم مظاهر، سوى ظلال.. ظلال الحقيقة وليس نفسه قط بحقيقة، اتجه العقل الإنساني عن الفلسفة العقلية إلى شفافية روحية، فالعقل، تحت هذا المظهر من التفكير الإلهي، وفي هذا الطور من النمو الارتقائي، قد لجّ في الأُفق الذي تلاشت فيه الفواصل بين المادة والروح تلاشياً شعت به الروح واطمأنت النفس إلى وجود النفس!...

أجل!... شعّت الروح في هذا الطور واطمأنت النفس إلى وجود النفس، فالعقل في هذا الطور من النمو النفساني قد انطلق فكراً للوجود بتأمل، ومتأملاً، عاد يعلن:

إن الوجود بيداء!..

بيداء، وعليها الحياة تمر مرّ الظلال!

ظواهر تتعاقب ـ صور تصور وتُمحى ـ مظاهر تظهر لتختفي، ولا شيء إلاّ إلى اللاشيئية يصير ـ لا شيء إلاّ وفي تلاش يتلاشى ـ لا شيء يُلمس إلاّ ويُتَلَمَّسْ!... لا لشيء حقيقة

وجود في هذه البيداء التي يحدها ماض ومستقبل وكل سارب كالسراب... والسراب؟ وهم!...

ومن ثم فالوجود وجود تصوُّري، والكون كون وهمي سرابيّ..

أي شيء من ثم، في الوجود التصوري والكون الوهمي السرابيّ.. الحقيقة؟

الجواب: إن الشيء الحقيقي الوحيد في هذا الكون هو... النفس.. النفس التي أدركت أن الوجود تصوّري، والكون وهميّ!... إن المدرك للوهم قط ليس بوهم!!!

إن النفس، قبس من «نفس»!... قبس من نفس كبرى هي ما عنه يبحث العقل، ويسميها الإله.

الإله نفس، والنفس منه قبس... ومن ثم فمعرفته، معرفة الإله، في النفس كامنة... ومن هنا كان استغناء العقل عن مناقشة الإثبات والصفات والصلة، فالعقل يدرك أن الألوهية شيء متفجر من نفس الينبوع النفسي... فإن الإله لا يرتكز في إثبات وجوده أو ذاته إلى الفكر، فالإله مثبت وجوده عن طريق الإشراق.

الإله مشرق على النفس لا يحجبه عنها إلا ما يعلق بها من كثافة الماديات وإلا ما يبعدها عنه من موج السراب.. على النفس الدافعة عنها موج السراب والصادفة عن مباذل الدنيويات يتجلّى الإله تجليات فردية خاصة بنورانية تشع داخل النفس، فتغمرها حالة لا تتماشى ومعروف أساليب العقل.. حالة هي شعور لا يقبل شكاً في أن الإله قد تجلّى!

إن الإله لا يتجلى على الجبال ولا يخاطب بكلام، فهو نفس، وهو، والنفس شيء مجرّد، المجرّد، وإنما إلى الإله قد ارتفعت النفس بنفسها وإليه صعدت، فتجلّى!

في هذا الدور من النمو النفساني للعقل الإنساني، ينتفي انتفاءً قاطعاً الوحي الهابط ويُؤكّد الوحي الصاعد وبالتالي يحلّ محل الدين المنزّل: الدين الفطري.

تحت هذه المظاهر الثلاثة: الاجتماعي والفلسفي والنفسي، يتجلّى التفكير الإلهي تجليّاً مختلفاً في كل مظهر عن الآخر اختلافاً جوهرياً في الماهية وفي الصفات، ولا يتّحد إلاّ في الاسم ذلك أن الإله يتجلّى في ضوء المظهر الاجتماعي، **الخالق**... الخالق الذي أراد أن يكوّن كوناً من عدم... فقال للشيء كُن.. فكان!...

وفي ضوء المظهر العقلي؛ المنظّم.. المنظم لوجود سرمديّ استمد هذه السرمدية من نفس سرمديته، فهو الطلّة السرمدية لهذا الوجود الموجود بوجوده والحيّ بحياته!

وفي ضوء المظهر النفسي: الفيّاض... الفياض الذي فاض عنه الوجود عن طريق:

«الحب»!

وباختلاف التفكير الإنساني في ضوء هذه المظاهر الثلاثة اختلف أيضاً.. الدين!..

فالدين تحت المظهر الاجتماعي دين مادي، عبادته: **«الطقوس»**.

والدين تحت المظهر العقلي: دين عقلي عبادته: **«المعرفة»**.

والدين تحت المظهر النفسي: دين روحي عبادته: **«التأمل»**.

للفكر الإنساني يسجل الفكر تاريخاً.. تاريخاً يسجّل لهذه الفكرة التي بنى عليها الدين تطوراً ارتقائياً، فبارتقاء العقل ارتقت النظرة إلى الألوهية، وبشفافية النفس ازدادت شفافية... فمن فكرة بدأت بدائية، وظلّت تتطور تبعاً لتطوره إلى عقلية بحتة فإلى شفافية قصوى نراها لم تنته بانتهاء التفكير البدائي بل إنها على النقيض استقرت في الطوية البشرية كعقيدة تعقّدت بتعقّد الحياة الفكرية فإن بازدياد الفكر تفكيراً أو بالأصح بازدياد الفكر تطوّراً وارتقاءً كانت «الفكرة» من مشاكله الرئيسية، فهو إليها أبداً متجه ونحوها أبداً منجذب، وأبداً يحاول انتزاع البراهين على وجودها كحقيقة سرمدية.

ومن ثم فاستناداً إلى هذه الحقيقة التي تطالعنا بها مساند التاريخ العقلي، فإن «الفكرة»، فكرة الألوهية، إنما تتجلى فكرة فطرية في النفس وهدفاً، نحوه وجد العقل الإنساني نفسه منجذباً.

ونحو هذا الهدف وجد العقل الإنساني نفسه منجذباً يسعى ويد الزمن تدفعه من الكهف إلى أودية الأنهر الكبرى لتحفر خطاه حضارة بعد حضارة، ومدنية بعد مدنية محورها هذه الفكرة التي بسببها، كصلة بين المؤلَّه والمؤلِّه أو المعبود والعابد، قام: الدين!

الدين في مصر القديمة

الدين، في هذا الوادي الذي كوّنته يد الزمن حين ألقت من الصلصال الطمي الذي انداح جنوباً وشمالاً فانتشر عليها، امتزج الواردون من الصحراء الغربية بالمرتحلين من القبائل الرحّل من الصحراء الشرقية بالنازحين من فيافي الجنوب بالقاطنين الوادي منذ كان تاريخه سحراً وبهذا المزج طلعت على ضفتيه أمة بها أشرقت في مغرب العصر الحجري الحديث حضارة ضمّت إلى الشمال الجنوب فسجلت وحدة سياسية ظلّت طابع الوادي منذ مشرق تاريخه السياسي حتى الغروب رواية!

رواية، منها الفصول مسطّرة على الأطلال ـ على أوراق البرديّ ـ على المداون المنقوشة ـ على المعابد الإلهية والجنائزية ـ على صفحات القبور وصفائح الجدران الأربعة من معبد

أوناس وهرم سقارة من الغرفة المغطاة بنقوش زرقاء، أقدم النصوص الدينية في مصر التي تعرف بنصوص أو «متون الأهرام» ـ من النصوص المقدّسة والقصص الدينية ـ ومن آيات «كتاب الموتى» المكتوبة على الأكفان.

من هذه الأسناد التاريخية، أقوى الأسناد وأصدقها، يستقي القلم وعليها يستند، وموادها ومدادها له مدد ومداد.

بنشأة الألوهية نشأ الدين، ونشأتها متفرقة نشأ متفرقاً ـ نشأ بنشأة الشخص شخصياً وبنمو العقل والنفس نما عقيدة عقلية ومذهباً نفسياً ـ فجأً، بنشأة الألوهية فجّة نشأ عن ألوان فجّة من العبادات تؤدي وفقاً لما يخاله المؤَلَّه تقتضيه رغائب من إله، قبل أن يتطور إلى ورع شخصي وتقى نفسانيّ، وقبل أن يصبح رسمياً ترتحل به المراحل السياسية مراحل وأطواراً.

أجل، بتفرّق الألوهية في سحر التاريخ نشأ متفرّقاً الدين غير موحد... وغير موحد ظلّ حتى المغيب ـ قصر كهنوته، باختلاف فروعه وانتظام مذاهبه، عن أن يكون لاهوتاً معيناً مقرّراً، فقصرت وحدته الرسمية عن أن تكون إلا صورية!

الدين، كوحدة، هدف قطّ لم يُبلغ خلال العهود التاريخية للوادي قاطبة فليس في كل ما حفظه لنا التاريخ ثمة سجل واحد يسجل وحدة دينية ومنهجاً دينياً مرسوماً وإنما مزيجاً متضارباً من عقائد ينتظمها اللانظام لدين ترتكز وحدته الصورية على وحدة شخصية ترتكز بدورها على خليفة الإله في الأرض، ارتكاز الحكومة عليه. ففي هذه الشخصية جمعت المذاهب المختلفة، ومنها كانت تقوم ديانة رسمية للوادي تستمد من اسم الإله القائم لها قائمة.

أجل، من هوّة الكثرة إلى قمة الوحدانية دفعت العقل الإنساني متدافع السياسات... ظاهرة في آفاق الوادي بدت منذ بدأت في أنحائه ألوان الاتحاد الإقليمي تشيع وعلى صفحته تنتشر الأقاليم المتفرّقة إلى: جنوب عمّرته الصومال ومن إفريقيا أجناس، وشمال عمّرته من ليبيا وآسيا ألوان... وإلى «ست» معقود حكم الجنوب في حاضرة حاضرتها «نقادة» وإلى «أوزير» معقود أمر الشمال في حاضرة حاضرتها «بوصير» فكلاهما سبط لحاكم من حكام ما قبل التاريخ، على جدران معبد أدفو ما زال اسمه مدوياً «رع»!

يهب الماضي من ثنايا القصص الدينية مسجلاً أن: ألوان الاتحاد الإقليمي بدأت في فجر التاريخ تخضّب الوادي كما بدأ التشريع وبدأت بالتشريع الأحكام والقوانين، وأن حكم الشمال، والشمال أرقى من الجنوب حضارة وأوسع سياسة قد امتد فأظل حكم الجنوب ومن «ست» انتزع «أوزير» التاج الأبيض وأضافه إلى التاج الأحمر الذي كان به يحكم أقاليم

شرق الدلتا ـ وأن الأمر استفزّ «ست» فقتل أخاه وأقام نفسه مكانه على شطري الوادي حاكماً ـ وهنا... هنا تجري القصة بقصة الطوية البشرية وتنشرها طوية مطوية على حب الثأر لنقول: إن للأيام دورة وإنها قد دارت فأكبرت «حور» بن «أوزير» الذي قام منتقماً لأبيه فقتل «ست» وأقام وحدة حكومية، تحت لوائها انضوى أمراء من غرب الدلتا توغلوا في أقاليم الوادي حتى دانت لهم أعنّة القبائل جميعاً، فقامت بهم حكومة «حور» باسم «أوزير» تحكم بشطريه الوادي من إقليم اختارته لوقوعه في نهاية طرق القوافل التجارية الآتية من فلسطين والشام، والآتية أيضاً من أقاصي الجنوب، فمنه تتمكن من السيطرة على شطري الوادي تمكنها من ربط صلتها بالخارج، فبزغت على الوادي لأول مرة عاصمة سياسية وعلى الدنيا أشرقت «أنُّ» أو عين شمس.

والآن.. وقد انتظمت الأجيال قرون أحاطت بحور وبأوزير وبست، وكلاً كحاكم من حكام ما قبل التاريخ حجبت وكلاً بسياج القدسية سيجت... الآن وقد انتظمت الأجيال قرون منذ صاحبت نشأة الأقاليم نشأة أرباب متفرّقة اختلفت باختلاف تأثر الأقاليم بهذه الظواهر والمظاهر المرئية، وصاحب إدماج إقليم في إقليم إدماج رب الإقليم السائد إدماجاً فُنيت للرب المسود في نهايته ربوبية استحالت إلى صفة في الرب السائد ـ هذا الإفناء في صورة الإدماج قد دفع العقل الإنساني إلى وحدانية أشرقت بشروق عين شمس عاصمة للوادي وإقليماً سيداً فساد ربها المحلي أرباب الأقاليم التي بدأت تندمج فيه وتتلاشى وتنتشر فيه مظاهر وظواهر ويطلع رب عين شمس إلهاً أعلى هو المُوجد للوجود، المُوجد هذه الأرباب التي بها قواه تتراءى على شكل مظاهر وظواهر وأمّا هو، هو نفسه فواحد أحد لا يُرى!..

أجل... ألوان من الألوهة وعن الألوهة طافت بمخيلة العقل الإنساني وليداً وطفلاً قبل أن يغدو يافعاً فينسبها إلى قوة خفية متمثلة في الطبيعة، ورموزاً لهذه القوة الخفية يُصوّرها، فمذ بزغت عين شمس وبدأ العقل الإنساني من أعلى أبراجها يستشرف الوجود تغيرت إلى الألوهية منه النظرة فقرون من الزمن الآن قد هوت منذ خامر مشاعره شعور غريب اختلج بين ضلوعه نبرات هاتفة:

إن للوجود مُوجِداً واحداً!

مُوجِدٌ واحد ينبغي أن يكون الموجود اللامحتاج إلى موجد ـ الموجد نفسه بنفسه ـ ينبغي أن يكون الأتم التام... فكّر العقل فناداه منه اللسان «آتوم»!

إن المعنى من اسم «آتوم» إنما يعني «كل شيء» بل إن الاسم ليعني بوضوح «الشيء التام»، فآتوم أو أتمّ هو الأتمّ لفظاً ومعنى، وأمّا أين هو؟ فسؤال تساءله العقل الإنساني وهو

في آفاق عين شمس حائر يتلفّت يبحث عن الموجد مَنْ مِنْ قواه هذه الظواهر والمظاهر ولكن... منذ ترك المغارة والكهف وعلى شكل خلايا النحل يشيّد لنفسه بيوتاً، يجد نفسه إلى الشمس متجهاً حيثما كان هو من الأرض، وحيثما كانت هي من الفضاء، ودون أن يدري لِمَ إليها يتّجه يبتهج لها مشرقة، ويحزن لها غاربة..

إلى هذا الأتون المضيء الآفاق نوراً يجد نفسه ملتفتاً وإليها.. إليها لا كما في سائر الأقاليم يتّجه وإنما، مؤلهاً لها يتجه في هذا الإقليم الذي قد وجد نفسه فيه لها عابداً ذليل التاريخ يناجيها ساعة التمام: **أتوم!**

وأتوم؟ اسم، كعبادته، على الوادي دخيل ـ دخل أنُّ في سحر التاريخ بمن دخله في هذا الغسق البعيد من أطراف سوريا وفلسطين حيث هناك في شمال الشام تعبد الشمس تحت اسم عدن أو آدون!

أجل.. مفكراً، أطرق العقل الإنساني وعليه من لاهوت عين شمس رداء، وفي مخيلته تُطوِّف من أحلام السياسة أحلام.. هذه الفرصة قد دانت ليدين له الوادي، وليمتد له على أطراف سوريا سلطان قد واتت الفرصة وسنحت السانحة... أن «آتوم» سيوطّد هذا السلطان إذا وُحِّد به رع، فحكومة حور حكومة «أوزير» من سبط رع.

ومن ثم ففي دنيا تلك الدنيا سيمتد هذا السلطان غداة يتم هذا التنظيم وتشير يده القوية إلى «آتن» أو الشمس على أنها الإله، وترجِّع آفاق دنياه صوته مدوّياً أن الإله الشمس إنما إله أنّ: آتوم ـ رع!

ونظَّم لاهوت «أُنّ» الإلهيات فأدمج «رع» في «آتوم» ـ رفع إلى السماء «رع» وبآتوم وحده وجعله «آتن» أو الشمس!...

عن العقل الجماعي غاب «رع» كحاكم من حكام ما قبل التاريخ إنساناً مؤلهاً وفي سماء مصر الصافية سطع إله نوره للكل غامر، وأشعته على الوادي وإلى خارجه تمتد...

وأمام هذه الأشعة الممتدة الغامرة الكل لإله يتلألأ في السماء نوراً وتنحدر أشعته سيولاً تضاءلت مكانة كل رب محلي!

أجل... نظم لاهوت «أُنّ» هذا التنظيم، وعلى الوادي طلع والوجه المصري إلى الشمس خاشعاً متجهاً، يشير إليها؛

إنما آتن، إنما الشمس هي: «آتوم رع» رب أُنّ!

بآتوم أدْمج رع في توحيد وإلى وحدة حوّل ثنائيتهما لاهوت قال إنه عن هذه الوحدة،

عن منشئه ونشأته، «آتوم رع» نفسه القائل:

«إني أنا آتوم حين كنت في نون وإني أنا رع حين بدأت أحكم مَنْ قد خلقت».

«كتاب الموتى»

لاهوت، قَوَّل الإله القول وراح نفسه عنه يقول:

إن من تون، من ذلك الماء الأزلي الذي انبثق منه الوجود ووُجدت الحياة، ومن زهرة لوتس عليه طافية انبثق «آتوم ـ رع»، متمركزاً في الشمس وطلع على وجود، خلا، إلا من أنفاس ألوهيته!

أفرغ اللاهوت الشمسي في يدي «رع» الخلق فتحوّل «رع» إلى خالق وللخالق سيطرة تمتد على من خلق.. ثم جرت يده تحيك قدسيّ نصوص أقامها على أسس كهانة انتظمت نفسها إلى درجات أعلاها شأناً درجة النبوّة والاستعداد لتلقّي هابط الوحي... وبهذه الصفة خوّل لنفسه وقد غدا «نبي رع» أن يقوّل الإله إنه: لم يوجده أحد وليس له كفواً أحد ـ كل ما قد كان قبله موجوداً من أرباب لا يستطيع أن يقف منه موقفاً نداً أو مماثلاً أو مشابهاً فإنما هو خالق نفسه والمنظم وكل واحد منهم إنما يمثل الخواء اللامنظم!

الوجود نفسه كان الخواء والظلمة واللانظام ـ كان «كوك» يرفّ على «نون» ـ كانت الظلمة ترف على الغَمْر حتى انبثق الرب الإله فبدأ النور وأصبح هناك فاصل بين الليل والنهار وبدأ عمل الرب الإله القائل عن نفسه:

«إني أنا الذي خلقت السماء والأرض وأرسيت الجبال.

أنا الذي خلقت الساعات ومن ثم جاءت الأيام إلى الوجود.

أنا الذي خلقت نار الحياة.

أنا الإله «خبرع» صبحاً «ورع» ظهراً «وآتوم» في المساء!

قوّل «نبي رع» الإله والقول وسطرته منه اليد نصوصاً غلفها بالقدسية، وعلى العقل الجماعي انعطف شاهراً سبابته إليه في الفضاء:

إن الإله النور ليس كغيره من الأرباب فتلك قد أُوّجدت وأما هو فإنه:

«الإله المقدس الذي جاء إلى الوجود بنفسه... الإله الأزلي الذي وجد في البدء والذي رفع السماء وسوّى الأرض»[1] وإله، ألوهته الألوهة، لا جدال في أنه الإله الحق وأنه دون سواه:

---

(١) **الأدب المصري القديم**، سليم حسن.

«الإله الذي لا ينازع سلطانه منازع ذو القول الفصل»[١]...

بالألوهية الطبيعية جاءت «أنّ» ولتكفل لنفسها سيادة سودّت ربها على أرباب الوادي بأن أدمجته في الشمس وجعلته إله الشمس ثم عليه أضفت صفة الخَلق لتمتدّ سيادته على من خَلَق وهذه صفة بها يُطوى أمام سلطان «أن» المنتشر سلطان الأقاليم... فَلْيَمُرْ الوادي بالأرباب موراً ! ليعج بالأرباب عجاً ولئن كانت هناك روابط نسبٍ تربط الأرباب بالأرباب فإن رب عين شمس ليس كواحد منها فإنه: إله الكون منذ الأزل، الباطن والظاهر، وأساس كل شيء فإن «آتوم رع» إله: «أحد صمد، لا والد له ولا ولد»[٢].

كلا ولا شريك له في إيجاد الوجود وليس له كفواً أحد!

إلى الشمس، دينياً، تحول الوادي فتحول سياسياً إلى عين شمس..

أجل... بهذا اللون من التفكير الإلهيّ بدأ الفكر الإنساني في سمت الدولة القديمة، فمذ بدأت مصر تهدأ وتستقر في الداخل وتمتد أنظارها إلى الخارج على أسس وحدتها السياسية امتدت يد الزمن تسجل للوادي ديناً رسمياً بدأ مظهره يسود الوادي ـ بدأ بهذه الوحدة السياسية يخرج عن أن يكون عقيدة شخصية ومذهباً نفسياً إلى دين رسمي تفرضه الدولة على الناس فرضاً!

أجل... عن العقل الإنساني قد خلعت الآن يد الزمن رداء «السحرة» وعليه خلعت رداء «الكهانة» ـ طوت يد الزمن ساحر القبيلة وبمغيب القبيلة غيبته، وطلعت به بطلوع الدولة وإشراق الحضارة المشرقة كاهناً، بيد أن ظلت سجيته القديمة ساحراً سجيته الجديدة كاهناً، فلقد تطورت القبيلة إلى دولة، وتطور هو من ساحر إلى كاهن ولكن قبضته على شؤون القبيلة قبضته على أمور الدولة ومن ثم فبانتظام الدولة إلى مراتب ودرجات، انتظم الكهنوت إلى نظام، درجاته ومراتبه فروع تقبض على مختلف الشؤون الدنيوية باسم الدين ومن ثم بدأت الآراء الكهنوتية تبرز كعقائد دينية.

كل ما يراه الكهنوت صالحاً لحكمه يصوغه عقائد رسمية فتصم بسمة الإيمان من بها آمن، وأما من أبى لها تصديقاً فتصمه بوصمة الكفر بالدين الحق، فالدين الرسمي أبداً الحق!

أجل... الدين الرسمي ظاهرة بدأت تسود العقلية البشرية كأثر من آثار الوحدة السياسية فكأثر من آثار انتظام الكهانة إلى نظام، بدأ يسود العقل الجماعي دين، عليهم يُفرض بعقائده

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) The Religion of Egypt, By Sayce.

فرضاً، على الجميع يحتم نفس العقيدة وعلى الجميع يحتم تفكير فرد أو أفراد...

ظاهرة بدت في آفاق الوادي والفجر متفجّر، وعنه بمغيب المغيب لم تغب وكانت لتفكيره الإلهي صدى فعليه طافت ألوان من الديانات الرسمية صاحبت ألوهة «آتوم رع» و«فتاح» و«آمن» و«آتن» ف «آمن رع».

ولكن... كل هذه الديانات الرسمية بمشكلاتها ومشاكلها.. بما تتضمنّه من مشكلة النفس وخلودها والقانون الأخلاقي والقيم الأخلاقية ومشكلة الجزاء والعقاب ونظرية الخير والشرّ، قَفَت بعضها بعضاً على صفحة الذهن البشريّ وقفت من القلب مكان الشغاف، فوراء الشغاف شيء آخر شُغف به القلب وعليه في حنان انحنت الضلوع ـ هناك ـ عَبْر هذه الأديان الرسمية اللامنتظمة لوحدة دينية كان تيار جار منتظم وحدة عقيدية صاحبت كل هذه الأديان وظلّت جارية عبر تاريخ الوادي قاطبة بل عن الدنيا لم تغرب بغروب شمس مجده السياسي ـ كنيله المجترف العوارض والمعترضات، مُجْترفة ظلّت، فأظلّت الديانات قاطبة وقامت مذهباً خالداً فالصرح منه إنما وطّد له في القلب البشري قوائم تقوم على أساس فكرة أو بالأحرى:

عقيدة الخلود

الخلود، فكرة مطوية في طيّات العصور الحجرية كعقيدة صاحبت العقل، والعقل بالقرب من نهاية العصر الحجري الحديث وليد ـ فعلى هيئة الوليد دفن في «نقّادة»، شمال «طيبة»، موتاه علامة على ولادته في عالم جديد من جديد.

من هذه النقطة التي تدور عليها الأحاسيس الوجدانية في هذا الوادي، تحسست يد كهنوت «عين شمس» ما وراء الشغاف إلى السويداء من القلب المصري المولع بالخلود.

أجل. إن حب الخلود طبيعة الطبيعة البشرية. ولكن ما من قلب لهذا الحُبِّ خَفَقَ خَفْقَ هذا القلب الذي إليه امتدت يد كهنوت «عين شمس» فعقّد فيه هذا الحب إلى عقيدة لم تك للسياسة إلا وسيلة ولم تك لأغراضها إلا أداة، فالدين وبالأحرى عقائده، فما الدين إلا عقائد، لم يك، كما يُسفر عنه تاريخ الوادي، إلا وسيلة للاستغلال السياسي وأداة لإدارة دفة السياسات، وتوجيه الجماعة المُعبّر عنها «بقطعان الماشية» الوجْهة المتفقة ومصلحة السياسة الخاضعة بدورها للتطوّر العقليّ ـ وهذه الوحدة العقيدية التي عاصرت الأديان الرسمية كلها، مذ مشرق المجد السياسي للوادي حتى مغربه، تبرز صورة من صور النموّ العقليّ والسياسيّ معاً ـ فغداة نما العقل الإنساني وتفتّح واعياً فوجد عهده عهداً إقطاعياً ينتظمه النظام السياسيّ العائليّ والاستقلال الإقليميّ، هدف إلى إقامة نظام تنتظمه وحدة سياسية تضمّ

اتحاداً، الجنوب والشمال، بها تزول هذه النظم الفوضوية... أطرق مُفكّراً، فلم يجد أمامه للهدف السياسي وسيلة إلا الدين.. فكان الوسيلة للهدف المرسوم: «أُوزير»

سبب، به يُطالعنا:

المذهب الأوزيري عبر الأجيال التاريخية للوادي

إلى «عذرا» أو «عاذر» أو «عذير» أو كما تنطقه لغة الغرب «أُوزير»، أو كما لفظته الإغريق «أوزيريس»... الإنسان الذي عاش حقيقة على الأرض كحاكم من حُكّام ما قبل التاريخ وقُتل ودفن في «أبيدوس» ثم ثَأَر له ابنه «حور» ووحّد الجنوب والشمال في وحدة طبّقها «مينا» رسمياً وسجلها على التاريخ، طاح الخيال اللاهوتي في الألف الرابع ق.م، يتّخذ منه مادة لقصة اعتبرها الأمس دينية مقدّسة ويعتبرها الحاضر خرافة ومحض أسطورة خيالية لخيال جامح جَمَح فحاكها، تظهر أول صورة منها في «متون الأهرام» تحدث:

إن «ست» تآمر على أخيه «أوزير» فقتله وألقى بجثته في الماء حيث تحلّلت... وناحت زوجته «إيزي» حزناً فحزنت لحزنها الأرباب.. وانحنت السماء فردّت رميم العظام... وواصلت «إيزي» البحث عن الجثة فوجدتها وأخرجتها من الماء.. وحنا الإله على «أوزير» فسند رأسه بيده فبُعث حياً... وألقت «إيزي» بنفسها على جثمانه فحملت وجاء «حور» إلى الدنيا... وربت «إيزي» ابنها فلما كبر حارب «ست» ثأراً لأبيه، واجتمعت الأرباب في عين شمس لفصل هذا النزاع وصدر الحكم بأن يلي «حور» عرش أبيه. وهكذا استقرّت في نصابها «معات» أو العدالة وفي نصابه استقر الحقّ!

وأما «أُوزير» فقد ارتفع جسداً إلى السماء حيث فُتحت له أبوابها وحيث فيها تلقّاه الإله، وعن مُلْك فان في دنيا فانية عوّضه بملك باقٍ في آخرة باقية وأعطاه عرشاً يُنفِّذ من فوقه قضاءه الإلهي في الوافدين على الآخرة من الدنيا... فلئن عن هنا غاب كملك فليس إلا لأنه قد أضحى هناك ملكاً ليحكم الوافدين إلى عالم الخلود!

مَنْ مِنْ أهل الدنيا لن «يموت»؟

مَلَكَ «مَلِك الموت» الانتباه وصرفه عن التنبّه إلا إليه!

أُسطورة باسم «أوزير»، لمحض غرض سياسي، حاكها الكهنوت وطلع بها قصة دينية بها انتشر لعين شمس على الوادي سلطان ضمّ في وحدة الاتحادين...

ليُطْوى عهد إقطاعيّ ويُنْشَر عهد يضمُّ «الاتحادين» حيكت الأُسطورة واتُّخذ اسم «أُوزير» مادة لإدارة دفة السياسة وتوجيه الجماعة الوجهة التي تقتضيها المصلحة السياسية فجاءت

فِكَر العقل الإنسانيّ عهد ذاك فجّة وفطريته فطرية.. ولكن، من ثنايا هذه المادة القاتمة الألوان تتجلّى شفافة تلك البذور الملقاة في تربة النفس الإنسانية، تلك التي كوَّنت الورع الشخصيّ والتقى النفسانيّ، فشفّافاً من ثنايا هذه الأسطورة يطالعنا الضمير الإنساني في بدء تنبّهه والتماع القِيَمْ الأخلاقية في بدء انفضاض غيوم الغرائز عنها... تطالعنا الفطرة الإنسانية المفطورة على العناصر المكوّنة لهذه الأسطورة:

محاولة تغلّب الخير على الشرّ.

القصاص

الغضب الإلهي للظلم والحب الإلهي للعدل.

انتصار الخير ومحْق الشرّ.

بهذه الأسطورة أصاب اللاهوت الشمسيّ السويداء من القلب! من فسحة الدلتا إلى مضيق الوادي أرسلها على شفاه المبشّرين من فتاته تُدوّي بنغم إلى القلب الإنساني حبيب، فهي قصة منتزعة من صميم الحياة الفطرية وقانونها ـ لا غرو إذن أن يجيء التبشير بأثره ويتنبّه الوادي إلى المقتول ظلماً «السيد الشهيد»!

ولا غرو إذن أن تُعْقَد في النفس قدسيّة «للشهيد» الذي قام من بين الموتى حياً وأن يُصَدّق العقل الجَماعي، في عهد كان يعتقد بالدواب المجنّحة، إن «السيد الشهيد» قد ارتفع جسداً إلى السماء!..

إن هذه الأسطورة التي جعلت من «أوزير» ملكاً للموتى قد ضلّلت العقلية البشرية عهوداً بـ «أوزير» قد شغفها حباً التصوير الماديّ لهذه العقيدة. التصوير الذي به تطالعنا:

الصورة الأوزيرية لعقيدة الخلود

لقد صوّر المذهب الأوزيريّ الإنسان روحاً فقال «بالمبدأ الحيّ» واعتقد بكينونة مستقلة للإنسان، عرّفها أنها كالإنسان فهي «كا» وأمّا النفس منه فهي «با».

وامتدت يده تصور الروح على مقابر «أبيدوس» على شكل طائر...

وقال إن للإنسان ذاتاً وقال إن الكينونة أو الذات «خو» و«الخو» فكرة يعرّفها: «الجوهر المضيءُ في الإنسان» وأنه الجزء القدسيّ الرابط بينه والألوهة برباط متجانس ـ ولكن إذ نرى على مقابر «أبيدوس» هذه الصورة ونرى الطائر يحتضن «الكا» ندرك التعبير المُعبِّر أن «الخو» من «الكا» مكان «الكا» من الإنسان وأنها روح الكا أو النفس، ولندرك أيضاً أن في طيات هذا التعبير الروحيّ تعبيراً مادياً. فلقد صوّر المذهب الأوزيريُّ الإنسان روحاً

تنطلق بالموت على شكل طائر، قد يكون أخضر اللون، إلى حيث يتفيأ «شجرة الحياة» حتى: «يوم البعث»!

وإن في «يوم البعث»، كما بُعث أوزير بجسده الأرضيّ جسداً، سيُبعث الثاوي في أحضان الأرض وستعود الروح لتنال جزاء ما قدّمت يداها... سَيُبْعَث الإنسان وإلى «أوزير» يومئذٍ المساق في قاعة: «الحساب»

إن هذا «اليوم» الذي سيحيا فيه الموتى، بالصيغة التي تذكرها الآية الخامسة بعد المائة من «كتاب الموتى» سيتهلّل فيه الميت ويفرح لعودته حياً قوياً معافى فاليوم «يوم معات» يوم يُنْصب ميزان العدالة ويُوْضَع في نصابه الحق!

إلى «يوم الحساب» سيدلف الإنسان لا مَحالة، ومن يوم الحساب ليس له مفرٌ وإلى «محكمة أوزير» سيُساق حيث ينتظره عسير الحساب، فيوم الحساب يوم عسير، يوم تنطق ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون... لن يستطيع امرؤ يومذاك فراراً ولا كذباً، فلسانه ويده وقلبه كل سينطق وعليه سيشهد بما فعل، ويومذاك، بعد أن يؤدي صيغة «الاعتراف السلبي» ستكون أعماله حاضرة، سيئها وحسنها حاضر، يضعها «تحوت» أمام «أوزير» في كفّتي الميزان، فإذا أرجحت الحسنات السيئات فجزاء من أحسن واتقى: «جنان عالو»

مفتّحة له منها الأبواب وفيها له جزاء كل ما تشتهيه الغرائز والعاطفة من دنياه، وما تشتهيه منه الغرائز والعاطفة من دنياه لم يك إلا ما جاء من نصوص تنصُّ أن له جزاء هناك: «الخمر واللبن واللباس»!

أيّ الأمكنة مكان الجنة العالية أو «جنان عالو»؟

لقد تغير مكان الجنة بتغيّر الزمن ومن مكان إلى مكان في غير تحوّل عن العقيدة تحوّلت.. بدأت ناحية من الأرض ثم امتدت إلى ناحية أخرى من الوجود غير الأرض ـ بدأت بأن كانت في نهاية «سِكْحتْ أرو» في مكان ما بعد مستنقعات الدلتا... لم يك للعقل علم إلا بهذه الناحية من الأرض فلم يعلم أنه حين يزداد بالجغرافية علماً ستزداد آفاقه اتساعاً وسيحدّد مكان الجنة بين الرافدين حيث هناك: «جنات عدن»

ولم يك يعلم أنه بعد ذلك ستزداد الآفاق أمامه اتساعاً فتمتد نظرته إلى الفضاء فيتوهّم أن الفضاء سماء صلبة وأن الأرض مسطحة، وإلى المجرة أو بعبارة أصح إلى البقاع السود من المجرّة أو «الغاز الأسود».. واهماً «الغاز الأسود» جزراً، والمجرّة نيلاً يقول: إنها الجنة!

ها هي ذي جزر «أوزير» يحيط بها النيل السماوِيُّ.. فيها غرز الإله «جنان عالو». جنان

مكانها سماء تحيط بها الأنهار... وإليها، تنص «متون الأهرام»، يُحمل المؤمنون! إلى جنة شأنها الشأن سيرتفع من في «الميزان» رجحت حسناتُه سيئاته.. مَن **أعطي كتابه بيمينه** وكان، على حدّ تعبير المذهب الأوزيري، من «أصحاب اليمين» وأصحاب اليمين هم الأبرار ممن رضي عنهم الإله. فلهم جزاء هذا الرضا عيشة راضية في جنة عالية، لهم فيها ما يشتهون من ملبس ومأكل وشراب بل كل حاسة جسدية ستنال ما تريده دون أدنى كلال!

ولكن... إذا رجحت السيئات الحسنات فسيُعطى **كتابه بشماله** ويكون، أيضاً على حدّ تعبير المذهب الأوزيريّ، من «أصحاب الشمال»، ومن كان من أصحاب الشمال:

فالنار! نار موقدة أبوابها سبع! لكل باب من أبواب الجحيم جزء مقسوم عليه زبانية غلاظ يفعلون ما يؤمرون فيصبون على الكافرين والمنافقين والضالين ألواناً من العذاب درجاته للنار درجات وطبقاته للسعير طبقات حتى الدرك الأسفل حتى الدمار والفناء!

بهذه الصورة تطالعنا العقيدة الأوزيرية فتطالعنا ألوان من المادية الصارخة! كلا بل قطعة اقتطعت من المادية البحتة!

صورة فجة جافة، فطرية، صوّرها العقل حدثاً وإليها هَوى الهوى الجماعي فقد روت منه حمى الغرائز! النعيم تصوّره غريزياً بحتاً!..اللذة السادرة والنزوة الهوْجاء والشهوة العابرة، الخمر واللبن واللباس للمتقين.. جزاء !؟

نعم... لا مكان للنعيم الفكري ولا للذة الوجدانية، ولا للنشوة الروحية!

نعم... لا حساب إلا للنعيم المادي في هذه العقيدة... تعثّر العقل الإنساني في هذه المرحلة من تاريخه إذ تصوّر بعثاً جسدياً... وكبا إذ تصوّر الجنان مرتعاً للغرائز.. وضلّ إذ اعتقد أن جزاء كبح الشهوات في الدنيا هو إطلاق العنان لها في الآخرة..!

تلك هي فكرة الخلود كعقيدة أتمتها الأسطورة الأوزيرية بعد أن عمّ مذهب «أوزير» الوادي واصطبغت بها صيغ الدين الرسمي فأضحت العقائد عقائد أساسية تقول بقيامة وبحساب وميزان وجنة ونار في يوم سيُبْعث فيه وَيَحْيا الجسد!

ولكن! العقل البشري حين سطّر هذه الأسطورة إنما سطّرها فتياً تتنازعه نوازع الفطرة ومنازع الروح ومن ثم فإذا نظرنا إلى الأسطورة تحت هذه الأضواء أو بالأحرى في ضوء هذه الحقيقة لوجدنا أنها على الرغم من خشونتها وجفافها وفطريتها تُعْتَبر خطوة من الخطى الأولى خطاها العقل البشريُّ حين بدأ في التفكير ودليلاً على تفتح الورع الروحي والتقى النفساني وتيقظ الوعي لصوت الضمير ففيها يطالعنا:

القانون الأخلاقي والمبدأ العقلي في المذهب الأوزيريّ

في طوايا هذه الصورة ينطوي معنى وتكمن معانٍ فوراء الصورة البحت الفطرية تطالعنا فطرة النفس المفطورة على ترجيح كفة الخير على الشر وانتصار الخير في النهاية على الشر... فبالصورة الخيرية صوّرت العقيدة الأوزرية «أوزير» فجعلته للخير رمزاً ثم جعلت الخير له رمزاً فجعلته «ونفر» أو الخيِّر الذي تمتد، من هناك إلى هنا، رحمته وتشمل طيبته الأحياء والأموات، دائم الاستعداد لمعالجة الإنسان وخلاصه من العذاب في سكرة الموت ـ ومن ثم فالعقيدة وإن جعلت «أوزير» ملكاً للموتى وحكمتْه في المصير فإنها بإقامته حَكماً يُنفِّذ القضاء الإلهي في أهل الأرض قد أقامته حكماً محكوماً نفسه بقانون قدسي يحكم العالم وله يخضع الكلُّ حتى الأرباب، مبدؤه إحقاق الحق، وروحه الخير. روح هذا القانون القدسي إنما «معات» و«معات» الحق والعدالة المنتظمة هذا النظام ومن ثم فنعتها «ابنة الإله»!

إن «معات» هي الصفة التي يجب أن يتصف بها الحاكم والملك وكل ذي سلطة إدارية ومن ثم فطريق التقرّب إلى الإله الذي في السماء هو إرضاء الرب الذي ارتفع إلى السماء.. وهذا الإرضاء يتلخّص في إقامة العدالة ونشرها على الأرض، وتعهّد وتوخي الحق في الحياة الدنيوية فإن «معات» تُصَاحِب الإنسان في ترحاله ميتاً.. إن الإنسان حين يرتحل إلى الشاطىء الآخر من الحياة تاركاً وراءه كل شيء، سيترك ذكره على الأرض إذا كان من أتباع «معات».. لن يغرب أبداً عن الأرض قد اتّبع «معات»... بالأعمال الصالحات سيعيش الإنسان.. فاتّباع «معات» لرضاء «أوزير» جلاب!

لكي يكون الإنسان «أوزيرياً» بدأ يحاول أن يحيا حياة تَسْتَجْلِب رضاء «الخيّر» فحولته المحاولة من الطبع إلى التطبّع، فلا بدّ من التشبه «بأوزير» حتى إذا لم يك الطبع بالطبع الأوزيريّ شبيهاً.

هذا التحوّل طبع العقلية الإنسانية في صُوَرِها عَبْر التيار الزمني بطابع جديد نفث في ماديتها روحاً به بدأت تتحرّر من غضاضة المادية إذ اتّخذ تعبيرها في التشبّه صيغة أخرى أرقّ معنى وأبهم تحديداً هي: الحياة في أوزير وبأوزير.

لا يكفي أن يكون المرء أوزيرياً في سلوكه وحياته، وإنما لا بدّ أن يعيش في «أوزير» وبأوزير فيكون لا أوزيرياً فحسب وإنما «أوزير» نفسه على الأرض!

بهذا المعنى تطالعنا الصورة مُكْتَملة في تطوّرها عبر الأجيال التاريخية للوادي شريعة شريعتها الخير!

واستجلاباً لرضاء «أُوزير»، «ملك الموتى» الذي إليه تنبّه الانتباه عن غيره من العقائد والمذاهب انقلب قلب الوادي فقام العقل الإنساني يشق بين الأديان المحلية والعقائد المتباينة وعبرها، وحدة عقيدية ومذهباً سيداً «للسيد الشهيد» جرى في غير اعتراض في معترض كل دين، فمن ثنايا الزمن نرى أثر هذه العقيدة التي طلع بها العقل الإنساني كاهناً وأرسلها من معقله تياراً يجترف إليه الوادي بكليته، كعقيدة رسخت بين الجوانب تزيدها الأيام رسوخاً على رسوخ حتى بدأ بها يرف على الوادي لون حيٌّ من ألوان الوحدة المذهبية.. بدأ منذ بدأت الدولة القديمة وبدأ للوادي بتاريخ الوحدة السياسية دين رسمي، قبْلتُه ومركز عبادته للشمس، به يطالعنا:

المذهب الأوزيري في الدولة القديمة:

باسم «السيد الشهيد» الثاوي في «أبيدوس» تستهل العصور التاريخية في سجل الأيام تسجيل سجلاتها، فمنذ مطلع التاريخ طلعت «أبيدوس» على التاريخ عاصمة للدين ففيها الضريح المبارك الضّام رفات «الشهيد» ـ فيها مقام الإنسان المُؤَلّه «أوزير» أو بالأحْرى «بيته»، هذا على حد التعبير المصري القديم، وعلى حدّ هذا التعبير نفسه عُرف البيت باسم: بيت الإله

وبهذه المكانة أضحى «البيت» **بيتاً مقدّساً**... ومقدّساً أضفى قدسيته على ما يحيط به فمنذ مطلع التاريخ و«أبيدوس»، مقرٌ: «البيت الحرام»، والتاريخ المصري القديم يسمي أبيدوس: الأرض المقدسة

مذ تفجّر الفَجْر في التاريخ السياسي للوادي حتى غروب مجده السياسي ومقام «أُوزير» «بيتاً حراماً» عرفه الوادي للإله بيتاً إليه من أقاصي البلاد تعتلج الجوانح ويعصف بين الضلوع عاصف الشوق وتجيش النفوس ويهز أرجاءها دويّ الحنين فيدفعها إلى زيارة القبر الحبيب.. لقد أضحى «القبر الشريف» مزاراً ومصلّى ففيه، في أيام معلومات من كل عام، يُقيمُ الكهنوت مسرحية تمثّل قصة قيام «الشهيد» من بين الموتى.. وبهذه التمثيلية السنوية التي فيها يمثل «عيد القيامة» أضحى المقام: كعبة..

كعبة، إليها من كل عام يحج الحجيج يؤدون من شعائر النسك شعائر تبدأ بالطواف حول «البيت الحرام» سبعاً.. وتنتهي بعيدٍ فيه تذبح الضحايا وتُقدّم القرابين من اللحم!

فَرَضَ المصريّ على نفسه «فريضة الحج» إلى «بيت الإله»...

فريضة ينبغي تأديتها ولو مرة واحدة في العمر حتى يخلص المرء من ذنوبه!...

أجل... لقد عرف العقل الإنساني أول ما عرف من أراضٍ مقدّسة، «أبيدوس» ـ

وعرف فيها، بمقام «أوزير»، كعبة إليها يتلهّف منه القلب وتجنّ منه جنون العواطف شوقاً إلى رؤية «السيد الشهيد»... ميتاً يقوم من بين الموتى حياً... وجسداً حياً يصعد إلى السماء!

في الوعي الإنساني حفرت العقيدة الأوزيرية المعتقدات وبها وجد الكائن الإنساني نفسه خلفاً عن سلف أسير هذه الاعتقادات ففي طوايا نفسه قد عُقّدت هذه العقائد التي بدأت تتجمع وتُكوّن أساساً لوحدة عقيدية بها تكون الشريعة مذهباً يقوم على أركان قوائمها:

الاعتقاد بوحدانية الإله، الإيمان بالبعث... الحساب... الجنّة والنار.

الحجّ السنويّ إلى بيت الإله.

ولكن.. حول هذا المذهب تدور اللوالب الفكرية متسائلة، أيُّ شيء هذا الذي اجترف العقلية البشرية اجترافاً؟

على أجنحة المنطق يأتي الجواب: أن لا شيء إلا ابتغاء الجنة ومخافة النار! منطقيّ من ثم أن: هذا القانون الأخلاقي القائم عليه هذا المذهب إنما يقوم على التخويف والإرهاب، والتخويف والإرهاب وسيلتان يتخذهما العقل الفطري للردع، وهذا اللون من الردع فطريّ فج وغير قويم ومن ثم فما نما العقل الإنساني إلا وعنه تحول بينما تشبّث به العقل الجماعي ودان به عقيدة أو مذهباً.. من ثم فنرى بدء رسوخ المذهب الأوزيريّ واتخاذ مكانته بين أديان الشمس وفي معترضها بظهور اسم «أوزير» في الأوراد والصلوات الدينية في عهد الأسرة الخامسة، العهد الذي قام فيه «رع» إلهاً رسمياً للوادي لعبادته قام دين غدا للوادي الدين الرسمي وبه يطالعنا:

المذهب الأوزيري في معترض دين الشمس

الدين الرسمي في هذه الفترة في الدولة القديمة «أتوم رع» لعبادة «رع» تقام المعابد، معابد خلت هياكلها من الصور والتماثيل والأصنام، كلا لا صورة ولا تمثال، وخال هيكله من الأصنام فالتماثيل حرام والأصنام إثم وما يجوز للإله أن يُجسّد في صنم أو يُمثّل في تمثال، فإن الخالق، ليس كمثله شيء ولا شبيه له فهو: النور

حسب نوره أن يمسّ هذه المسلات القائمة مآذن تؤذن بقيام دينه فتعكس قممها الموشاة بمزيج الفضة والذهب ضوءه أضواء، في آفاق الوادي تذكرة للمؤمنين بأن الدين، دين عين شمس، الدين الرسمي.. الدين الحق!

فليسجد المؤمنون عابدين الإله الأحد وليأتمر المؤمنون بأمر أولي الأمر فلا يطلب هذا

الدين منهم، كما يقول أولو الأمر، إلا الائتمار بأمرهم وإلا الاعتقاد الراسخ بما يفرضه عليهم هذا الدين القائم من عقائد؛ ليست إلا عقائد المذهب الأوزيريّ.

أجل... لقد حتمت السياسات أن يكون هذا الدين.. فكان، ولكن على أخطر الأُسس إذ عقد في طوايا النفس الإنسانية:

عقيدة التجسد الإلهي

لكي يكون العرش وراثياً لا انتخابياً، أودع في العقلية الجماعية أن الجالس على العرش للإله ظلّ ولأوزير ممثل.. فليمثل الملك الإله كانت الوسيلة: **«تاسوع أُنّ»**

على أسس عقيدته في الطبيعة أو الوجود، القائلة بأن المنشأ إنما «الماء» استمدّ المنطق اللاهوتي تعقّله فقال: أجل...

كان هناك وجود قبل أن يكون «آتوم» فهناك كان «نون» الماء الأزلي، وهناك كانت امرأته «نونة».. وهناك كان «هوه»، الامتداد اللامحدود، الشكل الأوليّ، وهناك كانت امرأته «هوهة» وهناك كان «كوك»، الظلمة، وهناك كانت امرأته «كوكت»... وهناك كان «آمون»، الشيء الذي يمثّل الخواء، اللامدرك واللامحسوس، الخفيّ! وهناك كانت امرأته «آمونة».

أجل... كل أولئك كانوا قبل أن يكون «آتوم» ولكن! كان الوجود اللانظام والخواء وكانت الظلمة على وجه «المياه» ترفّ قبل أن ينبثق «الرب الإله» من «نون»، وبمولد «آتوم» يبدأ النور!

عناصر تسعة، من الخمسة الأول وُجد وجود أوجده رب «أن» فرب «أُنّ» وإن كان نفسه إلهاً طبيعياً، فإنما هو الموجِد الوجود، فإنما هو «الخالق».

آتوم هو الخالق وخالق كل شيء دون الاحتياج إلى آلهة شريكة له في إيجاد الوجود فهو الفرد الصمد الذي أوجد الوجود هكذا:

عطس فكان الهواء، وتنفّس فكان الندى.. كان «شو» وكانت «تفنوت»... عنصرين ذكراً وأنثى منهما ولد «جب» و«نوت».. الأرض والسماء.. ومن السماء أباً والأرض أماً ولد «ست» و«نفتيس» و«إيزي» و«أوزير».

وعلى أسس «التتسيع» استرسل في التصوير وفي مخيّلته هدف ينحصر في إعلاء شأن الشمال على شأن الجنوب وإلى ذلك كانت الوسيلة إعلاء شأن أُوزير بقدر ما يهوي بـ «ست» إلى الحضيض فصوّر «أوزير» خيراً محضاً، وصوّر ست شراً صرفاً فأتى بصورة من

ألوانها تنبعث روح الأساطير تحدّث أنهما: أخوان تجسّم في الواحد الخير وفي الآخر الشر... فأما «أوزير» فكان ملكاً عادلاً على الشمال، تزوج «إيزي» وقاد إلى الخير الشمال ـ أنشأ القرى وشرّع القوانين وأستنّ الأيام وطاف في أقاليم الوادي بالخير بشيراً فأحبته الناس وامتدّ له بهذا الحب على ملك الجنوب سلطان بسببه كاد له «ست».. وحسداً قتله فتاللّه إنه لشهيد!

شهيد سلبه الشرّ على الأرض الحياة التي ردّه إليها بكاء «إيزي» فقام من بين الموتى حياً.. ولكن... ليرتفع إلى السماء...!

بتسجيل هذه القصة لاهوتاً وتسطيرها نصوصاً تغلغل كهنوت «أُنُّ» إلى طوايا النفس البشرية وقبض عليها من موطن الحساسة فيها وأمدّ لأوزير سلطاناً على الدنيا من جديد.

أجل... تسللت قبضته إلى النفس البشرية في هذا الوادي بهذه القصة، فأولاً تصويره «أوزير» شهيداً خيّراً قتله الشر، قد حفر في النفس حبّه والانعطاف إليه بالعطف عليه ـ ثم ابتداعه عيداً يمثّل فيه من كل عام بدعة ذلك القيام من بين الموتى حياً، فيعيد من جديد الذكرى، قد شغف القلب حباً تغلغل بمرور الأيام حتى ساد السويداء وحتى غدا مذهباً دينياً جرى عبر العهود التاريخية للوادي وحتى أكّد القصة بقصة أخرى هيأت الذهن لقبول:

بدعة الإنسان الإلهي وحلول اللاهوت في الناسوت

حينما قُتل «أوزير» لم تك إيزي قد حملت بعد بـ «حور» وإنما بعد أن انتصر «ست» شاءت المشيئة الإلهية تخليص العالم من الشر... فنفخ الإله من روحه في إيزي فحملت بـ «حور»... من روح اللّه!

هكذا... هكذا جاء ليخلص العالم من براثن الشر، «حور».. **المخلّص** روح اللّه! وأطلّت في آفاق الوادي إيزي تحمل الطفل الإلهي حور روح الإله... وروح الإله، ابن الإله...

أطلّت من آفاق العلياء في آفاق الطهر واقفة على هلال...

صورة.. صوّرها العقل الإنساني وعلق بها خاشعاً يجتذبه إليها ما فيها من طهر الألوان. ففيها «إيزي» يُظِلّ ظلها إلهات الوادي ومنهن «نيث» الإلهة العذراء... وفيها «حور» الطفل الذي ولد بين أعشاب الدلتا وأرضعته واحدة من البقر لبنها وبذلك حق لهذه البقرة التقديس لمنحها «حور» الحياة... ابن الإله من يروح صوت الوادي في أرجاء واديه بلقب له جديد فلا يعرفه نسبة إلى أبيه وإنما نسبة إلى أمه ويناديه: حور ابن إيزي وروح الإله؟

روح الإله ليست، والأرواح في ذلك العهد كانت تمثّل بشكل طائر، كروح من الأرواح فروح اللّه إنما روح قدس... وانتشرت على الوادي جناحاً «روح اللّه» تظلله

وترعاه. وما زالت حتى الآن بباهت الألوان من ثنايا الأطلال تطلّ على شكل طائر: «الروح القدس»!

أجل... صورة على صفحة الوعي الإنساني صُوّرت فسيجتها من القدسية بإطار!

هذه الصورة التي جاء بها التفكير الإلهي لهذا العهد ألقت في الوعي الإنساني بفكرتي: الإله المجسّد في الطفل. والإنسان المُؤلَّه.

فكرتان كان لهما ما بعدهما فمنذ النصف الأخير من عهود الدولة القديمة حتى العصر الهيلليني الروماني وانتشار المسيحية ودنيا تلك الدنيا لا تعرف إلاّ القصة حقيقة دينية... أسطورة غاب عن عهدها لها مغزى.. أسطورة حيكت للاستغلال السياسي فحيك بها بعد «التتسيع»: «ثالوث عين شمس».

ثالوث تؤلفه: العائلة المقدسة: الأب والأم والابن الروح القدس. ثالوث قدسي في ظلّ الإله الأعلى يقف لا يخدش وحدانية الإله المتجلّي في الآفاق نوراً في «آتن»، أو الشمس!..

أجل.. كان «تاسوع أُنّ» الوسيلة ليمثّل الملك الإله، وبه اعتبر الملك ابناً للإله فأصبح العرش وراثياً وأصبح النظام الملكيّ، بقيامه على الحق الإلهي المستمدّ من «أوزير»، أمراً جمع بين السلطتين المدنية والدينية... ودعمت هذه الوسيلة ببدعة أخرى جاءت تؤيدها هي اصطفاء «رَددتْ» وتجسد الإله لها بشراً سوياً...

يحتفظ لنا الزمن بالوثائق الدينية الجارية فقرأتها في ثقة تحدث أن: ردّدت زوجة «أوسي ـ رع» الكاهن الأكبر لـ «رع» ورأس كهنوت عين شمس، قد اصطفاها الإله من بين نساء العالمين فتمثّل لها بشراً سوياً.. وكان أمراً مقضياً.. ثمرته كان أن جاء إلى الوجود: «أوسر ـ كاف»!

على العقلية الجماعية لم يك صعباً قبول هذه الفكرة، فكرة الإنسال الإلهي.. فالتفكير الديني لدى العقل الجماعي لم يك من العبادات البدائية نقياً... وبهذه البدعة من أن الجالس على العرش قد تمثّل فيه الإله. قبضت عين شمس على أمر الدين والدنيا معاً...

أفسحت البدعة الدينية «لأوسي ـ رع» إلى العرش طريقاً فاعتلى «ابن الإله» العرش بثياب الكهنوت وبلقب الكاهن الأكبر لـ «رع»، مؤسساً الأسرة الخامسة ومن ثمّ كان كل ملوك هذه الأسرة التي جاءت بعقيدة التجسّد الإلهي أبناء الإله!

اعتلى «ابن الإله» العرش وعن هذا الطريق، الطريق غير المباشر، بُلغ الطريق المباشر.. ثبّت دين الشمس بأن جعل القابض على قبضة الحكم ابن الإله!

بدعة مبتدعة ولكن بها ولع العقل الجماعي المولع بالتقديس فقد طابت منه النفس أن يرى نفسه مظللاً بظلّ الإله..

بهذه الخدعة برزت عين شمس من جديد مركزاً دينياً وعاصمة سياسية وبها برز الكهنوت الشمسي على صفحة الوادي من جديد سيّداً، يتلفت متأملاً في هذا العقل الجماعي، يراه كقطيع القطعان، دفعته الدوافع السياسية باسم الدين الوجهة التي شاءتها سياسته، حوله يلتف ولأمره يُصغي فأمره قد أضحى أمر الإله فهو غدا نبياً.. صمته للوحي استماع، وكلامه للكلم الإلهي ترديد ـ مدّثراً بالقدسية غدا فغدا له الحق في أن يقول: تكلّم وقال الإله!

بهذه الوسيلة، ووسيلة نظرية الحق الإلهي المطلق للملك، ثبّت الدين الشمسي بإعلان الملك نفسه ممثلاً لـ «رع» على الأرض بيد أن هذه السلطة المستمدة من الإله لم تقف عند هذا الحد وإنما أصبحت إلهية محضة والسلطة الإلهية المحضة لا تحدها حدود ومن ثم حملت هذه الأسرة علائم الانهيار السياسيّ وهي في أوج مجدها.

ولكن في معترض هذا الدين بمعتقداته وعقائده، كان المذهب الأوزيري تياراً جارياً يسير مجترفاً معه هذه العقائد ـ دفاقاً يجري بقوة كانت نتيجتها أن: أُدخل «أوزير» في الدين الشمسي، وُحّد بـ «رع» توحيداً به أضحى يُعتبر «روح رع»..

أجل... في معترض هذا الدين بمعتقداته وعقائده كان المذهب الأوزيري تياراً جارياً، ترك أثره على صفحات المقابر وفي «متون الأهرام» ـ فنحن نرى في «النقوش الزرقاء» لوناً فاقعاً لمذهب «أوزير» ـ نرى بين آثار الأسرة الخامسة أثره ونرى هذا الأثر يزداد على الأيام ظهوراً والأيام تسير برواية الدولة القديمة إلى النهاية إذ نرى من رسوم القبور في أيام الأسرة السادسة نصوصاً أطول مما كانت عليه في الأسرة السابقة، فأدعية الموتى في هذا العهد طويلة مملّة فيها التعديد الطويل لما قدّم الثاوي في حياته من خير.. وصور مجيئه «يوم الحساب» ليُجازى بما قد وُعدا!.. لقد توخّى في حياته استجلاب مرضاة «أوزير» فمن حقّه أن يأتي «يوم الحشر» وكتابه بيمينه فلقد...

أكرم أمّه وأباه، لم يزن، لم يقتل، لم يسرق وفّى الكيل والميزان، أطعم الجائع، كسا العاري، لم ينهر السائل والمحروم، لم يقهر اليتيم ولا أذل الأرمل ووقّر الكبير!

لقد عمل بهذه الوصايا وطبّق «شريعة أُوزير» وتوخّى أن يسير وفقاً لمقتضيات هذا المذهب الذي قد غُرس في طواياه غرساً لا يستطيع شيء أن يحوله عنه لمكانته في القلب الجماعي مكينة يزيدها تمكناً صوت للفكر الإنساني يأتي إليه صافياً لحكيم الأسرة الخامسة:

«أقم العدل وعامل الجميع بالعدالة إن الرذيلة تمحق الفضيلة» «إن العقل يشكّل صاحبه.. وعقل الإنسان حياته وصحته وسعادته».

«فتاح ـ حتب»

إلى هذا الحكيم أصغى العقل وله في كتابه «الأمثال» يقرأ متأملاً آفاق الزمن وتصاريف أمر خفيّ في حاضر لا يدري من مستقبله شيئاً، ويعجب له ناثراً في تربة النفس بذور الجبرية: «تأمل! إن المستقبل بيد اللّه!»

ما من شيء، هيأه المرء لنفسه قد وقع، وإنما يقع ما به قد أمر خالق السموات والأرض.. استمع، إن المستمع يحبه اللّه»

«فتاح ـ حتب»

استمع العقل الجماعي إلى الفكر الإنساني. استمع إلى هذا النوع من الأدب التأملي وحفظه وأعاد نسخ كتابه «الحِكَم والأمثال» والقلب منه منصرف إلى «أوزير» انصرافاً كلياً لم يحوّله عنه الدين الذي قام بقيام «منف» وطلوها عاصمة للوادي، يطالعنا:

المذهب الأوزيري في معترض الدين المنفي

برزت «منف» عاصمة للوادي تحكم شطريه بسلسلة حلقاتها حكام كل منهم «لحور الإلهي»، على الأرض ظلّ. ففي كل منهم روح «حور الإلهي» تحلّ ليصل حكم الأرض بحكم السماء... وببروز «منف» برز لـ «منف» رب تعرف من أوصافه وصفاته الجمال، وتعرف من اسمه معنى الفتح ـ تنعته «الجميل»، وتناديه تضرّعاً «فتاح»!

بتاريخ الوحدة الحكومية قرنت «منف» اسم «فتاح» ولقّبته «ملك الأرضين» ليمتد به على الشمال والجنوب لها سلطان، ولكن... عرفت «منف» أنه لن يوطّد لمنف على الوادي سلطان حتى يكون «فتاح»، كما كان «آتوم ـ رع»، للأرباب إلهاً ـ وليجري التفكير اللاهوتي المنفي عبر تيار فكري مغاير كل المغايرة لما جرت عليه اللوالب الفكرية في «أنّ»، فمطرقاً في ردائه الكهنوتي ومن ألقابه «المعلم الأكبر» جرت لوالبه الفكرية تفكّر بتلك البدعة التي جاءت بها عين شمس من قبل، غداة أودعت في وعي الوادي أن رب عين شمس هو «الخالق»...

أجل... يجب إعلاء «فتاح» إلى هذه المكانة بأية وسيلة! أمر عرفه التفكير اللاهوت المنفي فأدرك أن لن يبلغ «فتاح» هذه المكانة، إلا إذا تلاشى «آتوم» في «فتاح» ـ يجب إفناء «آتوم رع» وإحلال «فتاح» هذه المكانة، فما ساد «آتوم» الوادي آمادا إلا بهذه المكانة وعن طريق

هذا الطريق.. إلى هذا الإفناء طريق طريقته: **الإدماج**.

إن من قبل قد جرت بالتعديل العادة برفع رب المقاطعة السائدة إلى مقام الرب الأعلى أو الإله ووسيلة ذلك إفراغ أمر الوجود في يديه... ولكن على «منف» الأمر جدّ عسير ففي يد «آتوم» قد أفرغ لاهوت «أنّ» أمر الإيجاد كما إلى مقام السيادة قد رفع «أوزير» وكما جعل «حور» من الإله الروح القدس!

وأطرق «المعلم الأكبر» متنبهاً إلى أن العقيدة السائدة وهي أن «آتوم» هذا الذي منه قد انبثق «التاسوع»، نفسه قد انبثق من «نون»، فألوهته ألوهة تقف على أساس لا تقوضه إلا عقيدة تسود فيها أسبقية «فتاح» على «آتوم»!

إذن فطريقة بدعة جديدة.. بدعة، بها طلعت على تاريخ التفكير الديني..

«عقيدة الكلمة، والخلق الفكري»

طرق العقل هذه الطريقة التي ظاهرها الإدماج وباطنها الإفناء، وابتداع لوناً من ألوان الألوهة جديداً، وحيه فيها كان بيئته الاجتماعية وحالته السياسية، فلقد: نظّم الحكومة ونسّق الجماعة فرأى أن النظام لا ينتظمه إلا عقل! وأنه لا يأتي بالأعمال إلا... فكراً.

يفكر العقل، فينطلق بما فكّر العقل اللسان وتُلْفَظ: الكلمة! ومن ثم فاللسان يجعل أفكار العقل ظاهرة، ويخرجها إلى حيز الوجود حقيقة محسوسة عن طريق «الكلمة».

.. إلى الكلمة التي تعلن الفِكَر الجائلة بعقل الإله وتخرجها إلى عالم الكون المحس فتصير شيئاً، مرَد كل شيء.

فمن ثم فمرد كل شيء ومنشؤه إلى ما أراده عقل وصوره فكر ونطق به لسان.. وأما الأداة التي يصبح العقل بها قوة منشئه، فهي: الكلمة!

مفكراً أطرق، ومستقيماً طلع «المعلم الأكبر» معلماً أن:

من «نون» انبثق على زهرة لوتس «آتوم» ولكن «فتاح» لنون سبّاق ومن كان على نون سباقاً فقطعاً هو سباق على «آتوم»!

سبّاق «فتاح» على «آتوم» لأن فكرة إيجاد الكون والأرباب جالت في فكر عالم قدسيّ، قلبه ولسانه كان فتاح فإن فتاح هو قلب ولسان التاسوع الإلهي.. فإن:

مِنْ «فتاح» يمثّل «آتوم»: الفكرة

ومن «فتاح» يمثّل «حور»: العقل

ومن «فتاح» يمثّل «أوزير»: الكَلِمَة..!

وهكذا تجري النصوص تبرز لا أسبقية «فتاح» على «آتوم» فحسب وإنما تفني «آتوم» فيه وتجعله منه عنصراً فتسطر أن: «فتاح»! **الواحد** الأعظم هو قلب التاسوع الإلهي ولسانه، وهو، «فتاح»، الذي جاء بالأرباب... منه جاءت الفكرة ليكون الكون فكان آتون هذه الفكرة! وهكذا فإن القوة الخالقة لـ «فتاح» هي التي جاءت بالرب الإله «آتوم»!

بهذه المعاني والمجرّدات أتى العقل الإنساني في «مَنْف».

أدمج العقل وابتدع بدعة الإدماج ولكن.. أحسّت حواسه بالمعاني والمجرّدات لجعله الأرباب عناصر مجرّدة في تكوين «فتاح»... بالطبيعة عاد إلى مُوجد لها لم يجعله كما جعلته «أُن» منها مخلوقاً ـ ثم وعلى ما انتهج من إدماج سار فحوّل أرباب الطبيعة إلى مجرّد صور ومظاهر لفتاح رب «منف» الذي فكّر بعقله ولما هو جائل بفكره تكلم بلسانه وقال: كن! فكان...

وهكذا... وهكذا فهم الفهم الإنساني عهد ذاك أن «فتاح» هو الأعظم وهو المُوْجِد وهو الأقوى وهو الإله دون كل رب، وأنه:

«الإله الذي صنع كل شيء وبعد أن نظّم كل شيء ارتاح».

أجل... بهذا اللون من التفكير الإلهي وبعقيدة «كن فكان» جاء العقل الإنساني في هذا العهد... فهذا اللون من التفكير الإلهي نتجية حتمية لهذا العهد السياسي المنظم الذي استمد من انتظامه نظام الكون فجعله من صنع **عقل الإله**... جاء إلى حيز الوجود المحس **بكلمته** التي قالت للشيء كن فكان..!

واتّبع الوادي الدين المنفي...

ولكن... في غير انصراف عن «شريعة أُوزير» بل زاده بها تمسُّكاً إعصار الدنيويات وأعاصير السياسات وهبوب سموم هبّ نذيراً بنهاية الدولة القديمة، كان من الطبيعي أن يعصف في عهد الأسرة السادسة غداة بدأ يتكوّن منذ اللحظة التي ثبت فيها دين «رع» بإعلان الملك نفسه لرع على الأرض ابناً فقد طبّق مبدأ الحكم الإلهي المطلق، وبها أصبحت صبغة الملك دينية بحتة وفقدت صبغتها الزمنية وأضحت سلطته الإلهية سلطة مطلقة وهذه السلطة المطلقة قد حوّلت الملكية إلى حكومة أثرة قدّمت فيها المصلحة الخاصة على الصالح العام. ومن ثم حمل نظام الأسرة الخامسة، أزهى عصور الدولة القديمة، أسباب انحلال هذه الدولة الذي طلعت طوالعه في عهد الأسرة السادسة بظهور حكام الأقاليم وبدء عهد إقطاعي جديد حزّبت فيه الأحزاب وتعدّدت الشيع فغزا الآسيويون البلاد.

وبين حروب أهلية داخلية وغزوات خارجية يجد القلب نفسه مدفوعاً أكثر عن ذي قبل

إلى «مَلِكَ الخلود»، وإليه يخلد والآفاق تتلبّد مؤذنة بمغيب الدولة القديمة، يزيده بالعقيدة الأوزيرية تشبّثاً قرون تنسلخ عن فوضى لا يجد الإنسان فيها عزاء إلا في عالم آخر سمته السعادة والخلود، بل وظلّ بها متشبثاً بقيام الدولة الوسطى وظهور دين رسمي جديد للوادي قِبْلته أيضاً الشمس وأساس عبادته الإله الخالق الطالع باسم «آمن» ليطالعنا به:

المذهب الأوزيري في معترض الدين الآمني في الدولة الوسطى

على أنقاض موجة الفوضى وبعد هدأة ومرحلة استقرار كانت نتيجة حتمية تبعت مرحلة القلق، قامت «طيبة» تحت غمرة من الروح الدينية الجارفة تقيم المعابد للرب الذي عرفته منذ القدم تحت اسم: «آمن».

ول «آمن» أقامت طيبة المعابد إيذاناً بقيام دين رسمي للوادي واتّبع الوادي الدين الطيبي..

ولكن... هذا الدين الرسمي لم تخرج وحدته العقيدية عن الصورة الشكلية فمكانته في القلب دون المكانة الأوزيرية!

فلتؤد شعائر العبادة لـ «آمن»، صلاةُ ترتّل أوراداً بكرة وعشياً ـ وقرابين تُضحّى لا ينال «الإله الخالق» منها اللحم وإنما يناله منها البر ـ ليطوف كهنوته «بالزيت المقدس» يمسحون المؤمنين مسحاً، وبالماء المبارك يرشونه على الخشّع رشاً.

لتؤدَ الشعائر والطقوس والفرائض لهذا الدين الرسمي، وأمّا القلب فمكانة «آمن» فيه لا تضارع مكانة «أوزير»، فللمذهب المكانة المكينة باعتبار صاحبه ملكاً للموتى إليه تصبو الروح إذا عرفت الألم وألّمت بها الملمات... وأثبت ما حفظه لنا الزمن عن ذلك كأثر من آثار الدولة الوسطى «بردية خاتي الثالث»، فهذه القطعة من الأدب التهذيبي في سفر الأمس وفيها نسائم العهد الأهناسيّ وروح عصر شاهد صراعاً بين الفوضى والنظام طويلاً وتفكير عقل امتد منطقياً رصيناً والمنطق الرصين وليد عاطفة تأججت وأصابها من الهزّات العنيف!.. امتد على حروب طاحنة وانحلال قاس يتأمل تفاهة التطاحن على شيء غير باق:

«إن الإنسان يبعث بعد الموت وتوضع أعماله بجانبه كالجبال! إن الخلود مثواه هناك!»

«خيتي»

لن يُترك الإنسان سدى يعيث فساداً في الأرض ـ أنّى له فالحساب ينتظره بعد الموت والعدل الإلهي له بالمرصاد، ومن ثم:

«ليس لأحد على الأرض أن يقتل، ولا أن يعمل بما يخالف العدّل لأنه سوف يؤدي حساباً عن أعماله... إن القضاة المقدّسين «محكمة أوزير» الذين يحاكمون الميت لا يتسامحون في تطبيق الشريعة، فويل حينئذٍ للمفتري!

لا تغتر بامتداد السنين فإن حياة الإنسان على الأرض ليست في نظر القضاة المقدسين سوى لحظة!

سينشر الإنسان حين وصوله إلى الشاطىء الآخر وستكون أعماله مجتمعة بجانبه.. إنها الأبدية لا شك فيها!

الحياة على الأرض تمشي على عجل.. امتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكه.. فمن اتقى وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه في الحياة الباقية خلود.. إن الذي يأتي بغير ذنوب سيحيا حياة الأرباب، ومن جاز الحساب أمام «أوزير» مضى إلى الحياة الأخرى.. أما من تساهل مع نفسه في الحياة الدنيا فلا مفرّ له من العدم!

إن الفضيلة التي يتحلّى بها الإنسان العادل أفضل في عين اللّه من الثور الذي يذبحه الضّال له قرباناً!

انظر! إن الناس «قطيع الإله» وهو يهديهم سواء السبيل.. إنهم خلقوا منه **على صورته**.. خلق لهم الأنعام والنبات وصيد البرّ والبحر.. وهو يسمعهم حينما يبكون ويشكون».

«خيتي» اثر من آثار الدولة الوُسطى هذه العقيدة الدينية بالشبه الإلهي للبشر ولكنها دولة نرى في مطلعها العقل الإنساني يخطو نحو نموّ جديد، فإلى جانب واهي العقائد نراه يشيد بالفضيلة ويراها أفضل في عين اللّه من تقديم القرابين ـ دولة شادت العدل وكانت العدالة لها ديناً فإن كل الناس سواء، خلقهم الخالق، فالإله إنما هو عن نفسه القائل:

«سأقول لكم الأعمال الأربعة التي صنعتها.. لأخمد الشّر! صنعت الرياح الأربع ليتنسّمها كل إنسان.

صنعت المياه لينتفع بها الفقير والغنيّ على سواء.

صنعت كل إنسان كأخيه.

إني لم آمر الإنسان بصنع الشرّ وإنما صنعت قلبه ذاكراً «الرب» حتى يُؤدي قرابينه للإله!».

تغيّر جديد تنساب به روح العصر تقول بمساواة شاملة تمتدّ من هذا الشاطىء حيث الحياة فانية إلى ذلك الشاطىء حيث الحياة باقية ـ كلُّ فرد سيتمتع بالخلود فليس الخلود الآن، كما كان في الدولة القديمة، قاصراً على الملوك وإنما كل إنسان سيستمر مع «الكا» التي ينتسب إليها روحاً قبل أن يكون «آخ» أو نفساً عاملة وقبل أن تضمه بأبديتها «جنان عالو» ـ تغيّر ساد فيه الاعتقاد أن الحياة الأخروية وقف على الأعمال الدنيوية فساد الدولة

الوسطى تقوى، يقبل عبر الماضي من عبيرها عبيراً يشتد منه الأرج والأيام بها تسير إلى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩٥ ـ ١٧٩٠ ق.م).

كالأسرة الخامسة في الدولة القديمة كانت من الدولة الوسطى الأسرة الثانية عشرة.. زهت بالعصر وبها زها العصر فعهدها عهد بدأت فيه مصر تعبد مركزها القديم في الجنوب ولا سيما في شبه جزيرة سيناء. فالتمعت في آفاق الوادي حياة لوّنتها البهجة.. ولكن في هذه المرحلة من التاريخ نما وعي جديد وكنتيجة حتمية لهذا النمو العقلي والتقى النفساني كانت نهضة أدبية تعود بأسبابها إلى خيتي، قادحاً الجهل مادحاً المعرفة، وبالإنسان يهيب: «تأمل! لا شيء يفوق الكتب» «خيتي».

بدأ الإنسان يعلم أن للكتب مكانتها، وولعت منه النفس بالكلمة المكتوبة ولعاً حفّ الكلمة المكتوبة بالقدسية وألهب الخيال منه وقدحه.. ومن أثره اقتعد الأدب في هذه الفترة التاريخية شامخ القمم، والأسلوب غدا لا يضاهيه ولا يضارعه في كل مراحل التاريخ المصري أسلوب ـ إلى اللفظ المهذب وإلى اللهجة الحسنة اتجه العصر!

تلك ميزة العصر كما تنتشر عنه طوايا التاريخ مما دوّنته الدواوين واحتفظت به البرديات التي تحدث أن الثقافة المركز الممتاز كما تحدّث أن الظاهرة التي تصاحب أبداً كل نهضة أدبية بدأ ظهورها في هذا العصر فقد صاحب نهضته الأدبية إهمال الناحية الدينية!

من ثنايا أدب العصر تطالعنا هذه الحقيقة التاريخية تحدّث أن للطبقة المثقفة كان الدين محض تراث وأما العقيدة التي لا تتزعزع فتلك التي كان محورها: «اللّه الأحد»!

أجل... عرف هذا العهد نهضة أدبية التمعت في آفاق الوادي منها الأضواء، فالقصص القديمة من جديد تُنسخ، وإلى جانبها الأدب الجديد بالجديد فيّاض... فكم من قِصّة وقصة عن القدامى في مسامع الزمن أعيدت فوعتها من الأجيال الأجيال... وكم قصة بعد قصة خضّبها أدب العصر وأرهفها منه للإحساس إرهاف، حُفرت في وعي الزمن وراجعتها في رجوع إليها من بعد.. الأزمان؟!

قصص!.. قصص سنرى أثرها فيما بعد ـ في الدولة الحديثة ـ فإن كل ما سجّله هذا العهد من القديم والجديد هو الذي ظلّ من بعد في مدارس الدولة الحديثة يُقرأ ويدرس ويتدارس بينما اللاهوت يُودع في العقلية الجماعية عقيدة **النصوص المقدسة**.

عرف هذا العهد هذا اللون من النهضة الأدبية في ظلال دين لآمن رسمي والعقل الجماعي إلى مَلِك الموت منصرف بل يزيده إلى الثاوي في البيت الحرام في «أبيدوس» تحوّلاً تحوّل «سنوسرت الأول» له مصلحاً فقد حوّلت الأيام البيت إلى «بيت عتيق» يتطلّب

الإصلاح.. فليشد في أبيدوس مقاماً جديداً «للسيد الشهيد» وليحفر في فنائه بئراً يروي قدسيّ مائة ظمأ العطشى من الطائفين والعاكفين والرُّكع السجود من الحجيج!

أجل.. في هذا العهد غمر المذهب الأوزيريّ الوادي واجترفت عقيدته عقائده.. ففي هذا العهد عرفه الوادي برب «أصحاب اليمين».. وفي هذا العهد بدأت آيات كتاب الموتى تكتب على الأكفان.. وفي هذا العهد بدأ المقرئون يرتلون ويتلون بنغم الآيات في الاحتفالات والمناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية.

ولكن... هذا العهد أيضاً هو العهد الذي به امتدت يد الزمن ترسم على جدران مقابر بني حسن، الوجوه الآسيوية، وما زالت منها الصور معلّقة في معرض التاريخ وعليها من اللباس ما يحدث بحضارة لا تقل درجة عن الحضارة المصرية وإنما ذات لون مغاير ـ هذه الوجوه التي أدركت ما تضمره منها الضمائر، أقلية، تغيب في طيات الزمن لها أسماء ومن بينها يبرز «أبوي».

لأبوي عرفت مصر مما عرفت من الأنبياء نبياً دوّت باسمه آفاق الوادي واحتفظت له يد الزمن بصورة نراه من ثناياها ينذر الجالس على العرش باتخاذ الحذر وإلاّ فأحداث ستحدث ونوازل ستنزل، و«سيتحوّل ماء النهر دماً».

أجل... النبوة والتنبؤ بصورة «الوحي الهابط» أو التنزيل ألوان خضّبت في كل المراحل التاريخية تربة الوادي. بين الفترة والفترة من الزمن كان يقوم «نبي» جرت العادة أن يعلن نذره وبشائره للجالس على العرش فيتزعم أن ما يقول يأتيه عن طريق الوحي.. هكذا كانت أنبياء مصر القديمة وهكذا كان «أبوي».. بينما كان الوجه المصري يتحول إلى حيث الأرض المقدسة، ومن أقاصيه يمني النفس بالحجّ وزيارة «البيت العتيق»، ويشرئب متنسماً النسائم المقبلة من «قبر الحبيب» ويتحرّق شوقاً إلى الارتواء من ماء البئر المقدّسة، هبت سموم رياح الحدثان، وبعد صفاء اغبرّت آفاق البلاد بالغبار المتطاير من سنابك خيل الهكسوس!

ولكن... لم تُحول الوجه المصري أحداث هذه السيادة الدخيلة، وعن «أوزير» لم تصرفه الصروف بل ظلّت طوال عهد الهكسوس العقائد الأوزيرية سائدة، لم يجفها والليل مُدْلِهِمٌ بل وجد نفسه إليها خالداً في فجر جديد عقب هذا الليل الطويل على الوادي عاد فيه، بقيام الدولة الحديثة، من جديد دين آمن ليطالعنا بذلك:

المذهب الأوزيريّ في الدولة الحديثة

من جديد جاء «آمن» ولكن لن يستطيع «آمن» الإله الرجل، انتزاع السلطان من رع

«الإله النور»، ويحلّ محلّه شمساً فألوهة «رع»، بما كان لكهنوته من سلطان متمكّنة منذ القدم من قلب الوادي!

ولكن.. هناك من الوسائل وسيلة ليست جديدة على الكهنوت في مذاهبه المختلفة وهي وإن كانت عسيرة فقديماً قد استنبطها، ولتحقيق أغراض الدنيا عن طريق الدين بها اضطلع حينما وحّد وأدمج وابتدع التوحيد والإدماج.. يجب إدماج «آمن» في «رع» وتوحيده به يخلع صفاته عليه بحيث يندمج الاسمان وحينذاك يتم توحيد الرب والإله ويبدوان اسمين لمسمى واحد، ولمعنى واحد وجهين.

وأسرعت في إرهاف في يد اللاهوت الطيبي الأقلام وعلى البرديات في هدأة «طيبة» دوّى لها صرير أصداؤه ترجيع المؤذنين من فوق الأبراج والصوامع يعلنون إتمام هذا الإدماج والاتحاد التوحيدي، فلا يُنادى «آمن» بمفرده كلاً ولا ينادى بمفرده «رع» فما آمن وما رع؟

إله واحد له الاسمان، فليس للكون إلا خالق واحد، أحد صمد، لا إله إلا هو: آمن رع.

إله واحد ليس من سواه إله ـ لألوهيته ترتفع الأناشيد ترجّع قدسي نصوص تنص أن «آمن رع» إنما: الإله الواحد! وأنه:

«الواحد الأحد الذي لا غيره».

«واحد أحد لا شريك له».

«الواحد الذي لكل الكائنات قد خلق... الواحد الأحد الذي لكل ما يوجد قد صنع[1]».

قوي كان اللاهوت الطيبيّ بهذا الإدماج بوصفه الإله الذي عرفه تحت اسم آمن بصفتي الواحدانية والخلق... ملكت منه اليد ناصية العقل الجماعي الذي غدا لا يرى في «رع» إلا «آمن»، الواحد المُفرَغ في يديه أمر الخليقة والخلق.. دهاء امتاز به عن أهل الشمال أهل الجنوب يشتد ظهوراً ببدعة أخرى فهو بعد أن اطمأن إلى أنه قد أفنى «رع» وأبرز «آمن» عن طريق إدماج «آمن» في «رع» وإفناء «رع» في «آمن» وتوطيد ألوهة له في الشمس، يتحول إلى العقل الجماعي، العالق في ذهنه أطياف من أرباب الماضي فهو على الرغم من اعترافه بألوهة الآله الخالق «آمن رع» فإليها يعود وإليها في ملماته ينزع فهو إلى «فتاح» يهزّه الحنين وعلى «أوزير» سقيماً ومعافى يقبل، يريد أن يحوله إلى رب طيبة... ولتوجيهه هذه الوجهة له يقول: إن «آمن رع» واحد في شخصه ولكنه... الخفي!

---

(١) **الأدب المصري القديم**، سليم حسن.

أراد الخفيّ أن يخرج من خفائه فأنمى صفاته وفي الوجود نشرها وعن طريق هذه المظاهر المنتشرة يخرج الخفي من خفائه فيكون: منتشراً في صفة الحق:

فتاح ومنتشراً في صفة الخير: أُوزير!

وكالشأن شأن سائر الأرباب!

كل صفة من صفات «آمن» في انتشارها منه تصير كائناً أدنى منه مرتبة أو ما يمكن تسميته مجازاً بربّ.. كل هذه الأرباب المنتشرة على صفحة الوادي هي في حقيقتها صفات منتشرة من الآله الواحد وبأسباب وجودها إلى شخصه تعود فليست في حقيقتها حقيقة فإنما هو الواحد الذي لا شيء حقيقي سواه.. ومن ثمّ فليذكر القلب الجماعيّ إذا ما توجّه إليها أنها «للواحد الخفي» محض صورة!

ليذكر القلب الجماعيّ أنها مجرّد ظواهر مختلفة يظهر خلالها من خفائه «الخفي» فإذا ما هزّه إليها الشوق وعاوده إليها الحنين فليذكر أنه إنما إلى «آمن» في الحقيقة متّجه فإن «آمن» فيها كامن وأن ما هو إلاّ «واحد» صفاته هذه الكثرة المنتشرة ـ فواحد هو.. هو كل شيء فهو وهو كل شيء: «الكلّ»!

بواحد محتجب خفيّ ليظهر من خفائه يتراءى في هذه الصفات التي تكوّنت كائنات أدنى منه مرتبة تقف وسطاً بين الألوهة الكاملة والإنسانية الخالصة ويتّخذ لهذا الظهور أي مظهر شاء وأية صورة أراد، خُضّبت النفس البشرية بلون من التفكير الإلهي والديني جديد انفسحت به آفاق في فضاء الدين جديدة، ففيها أخذت تتباعد في تلاشي أطياف الأرباب.. وفيها في تركّز بدأت تقترب كحاشية مترائية تحيط باللامترائي أرواح عليا ومن عناصر ألوهته صفات... في تطوّر ارتقى العقل ففي هذه الآفاق بدأ العقل يلمح، من خلال المرئيات فكرة «اللامترائي»! أجل... لقد أُدمج «آمن» في «رع» فأُفنيت في شخصية واحدة الشخصيتان، وبهذا الإفناء جُعل «آمن» الشمس ـ ثم دفعت اللاهوت الطيبي الدوافع فجعله «المحتَجب»، وجعله «الخفيّ» ليُفني فيه الأرباب المنتشرة ويجعلها منتشرة منه به وفيه، إن العقل الإنساني ليجد نفسه قد تدرّج صعودياً في سلم التفكير وشارف من القمم قمة وجد نفسه قد أُفنيَ فيها الآحاد في «واحد» بينما دونه يقف العقل الجماعي متمرّغاً في سراب الألوهة وبين الكثرة يتقلّب.. أجل ما زال العقل الجماعي يرى الإله نوراً في الآفاق يتجلّى شمساً، وأما العقل الإنساني فشيء في داخله بدأ يتململ في ميل إلى فكرة إليها قادته هذه الدوافع السياسية، ومنها يتأرجح بين الشك واليقين، يتنازعه في فكره اللامترائي شك ويقين وأما فكرة الواحد فيرتدّ عنها كل شك فهي لديه قد غدت يقيناً.

أجل... قد أفنَى الآحاد في «الواحد» إفناءً كلياً لا إدماجاً استقلالياً وإلى هذا الإفناء يقوده المنطق فإنه: إذا كان الإله، سواء أكان اسمه «فتاح» أم «رع» أم «آمن»، واحداً في جوهره فإن الإله ليس محتاجاً لأن يخرج من ذاته ليكون مخصباً... وإذن ففي ذاته كل عناصر خلقه ومنذ الأزل وهو ينتج نفسه من نفسه فهو في الوقت نفسه: الأب والأم والابن!

لقد «تسّع» من قبل، بل وعرف في أنحاء واديه ألواناً من «التاسوعات» على غرار البدعة التي ابتدعتها قديماً «أنّ»... ثم عرف ألواناً أخرى من التثليث وكان التثليث لديه يقوم على فكرة التناسل، فالأساس فيه أرباب ثلاثة هي الإله والأم والابن ـ بيد أنه يجد نفسه أنه عندما أراد رياسة التثليث على التسيع، يدمج بعض آحاد التثليث في بعضها الآخر ويجعلها إلهاً واحداً حالاً إلاّ في ثلاثة أقانيم وبذلك تطلّع جليّة على تاريخ التفكير الديني:

«عقيدة التثليث»

لقد تطوّر العقل الإنساني فتطوّر تبعاً لذلك التثليث القديم إلى أقانيم ثلاثة لإله واحد فكما حدث في إدخال التثليث في التتسيع حُوِّر في نفس التثليث بأن ضمّ الإله الصفات الثلاث فالإله الواحد هو:

الأب باعتبار أنه: العضو الأول في التثليث.

والابن باعتبار أنه: العضو الثاني في التثليث.

والأم باعتبار أنها: العضو الثالث في التثليث.

فالإله إذن في جميع الحالات أب نفسه وابن نفسه وزوج أمه.

الإله هو هذه الأقانيم الثلاثة بدون خروج من وحدانيته... فهذه الأشخاص الثلاثة هي الإله في الإله بلى هي تسهم في كماله اللانهائي بعيداً عن تقسيم الطبيعة الإلهية فما هي إلا أقانيم ثلاثة في واحد متصف بكامل الصفات الإلهية: الأزلية. والقيام بالذات. والإرادة الخيرية اللامحدودة!

مزج العقل الإنساني في هذا الوادي هذا المزج ـ حوّل الثالوث إلى وحدة ذات صفات ثلاث جاءت بالوحدانية.. وبهذا اللون من التفكير الإلهي الجديد، وليد الدوافع السياسية ووسيلته، دُعّم لطيبة السلطان السياسي وغدا ربّها المحلي الإله الرسمي للوادي من إليه في تعبّد يلتفت الوادي ليراه «الكُلّ» المنتشر فيه الكل... واحداً يعرفه باسم: «آمن رع»!

لقد أصبح «آمن رع» الإله الرسمي للوادي من فيه الأرباب واحداً بعد واحد تتلاشى، وبألوهة «آمن رع» الرسمية وبروزه ككلّ فيه فإن الكلّ، برزت وحدانية من النوع الصدوري! من كثافة الشرك شرك وحدانية لا خالصة تنسّمت الأجواء الفكرية فكرة الوحدانية الخالصة.

أما الإدراك الجماعي فظلّ قاصراً لا قِبلَ له على الارتفاع إلى مصاف إدراك هذا التعريف ومن ثمّ كان تناوله كل مُمثل للتثليث البدائي وارتضاؤه له شكلاً مستقلاً عن الآخر به رسخت عقيدته في التثليث أن الواحد في الثالوث بشخصيته من الآخرين مستقل... وأهمّ ثالوث عرفه العهد الطيبي كان يؤلفه:

آمن رع.

موت.

خنسو.

ثالوث يقوم على رأسه الإله الواحد المعروف تحت اسم «آمن» هذا الإله الذي لولا إدماجه بـ «رع»، ولولا توحيده به هذا التوحيد، لما سادت طيبة ولما بلغت مأربها ولما اعتلت درجات السؤدد المتصاعدة الذي دفع كهنوتها قدماً ليخلّف وراءه الكهنوت الشمسي الذي كان لا يزال وطيد المكانة في قلب الوادي وأبداً في ترقب وتحفّز وعلى طيبة تألبه الخفيّ غير خفيّ فمن معقله في «أُن» يستجمع قواه للانقضاض وفي وثوب يتوثّب! ـ فليباغت توثبه للانقضاض بالانقضاض وليشهر في وجهه نفس السلاح الذي أقام قديماً لنفسه به سلطاناً فلن يستطيع اللاهوت الشمسي أن يشهّر بهذه الوسيلة لأن في دحضه لها لنفسه دحضاً!!

أجل... قويّ الآن الكهنوت الطيّبي فمركز الوزير الأكبر، ولهذا المركز الأهمية والخطورة في هذا العهد، لا يشغله إلا رؤوس الكهنوت الطيبي والكاهن الأكبر لآمن رع، ومن ثم فلو باغته بنفس الوسيلة لتدعيم سلطته الكهنوتية لأحبط استعداده، فهي نفس الوسيلة التي اتخذها في الدولة القديمة عندما ابتدع بدعة «الإنسال الإلهي» وعلى العقل الجماعي طلع بعقيدة إن كان قد ضلّله بها، فإنها كانت مطيته للاستيلاء على مقاليد الحكم... وغير عسير على العقل الجماعي قبول بدعة التجسّد الإلهي فهي قد غدت الآن في النفس الجماعية عقيدة محفوفة بالإيمان!...

لو رجع النغم القديم جديداً، لوجد مرتعاً خصباً وقبولاً إجماعياً، بل إن السانحة لتسنح فإن للجالس على العرش الآن، «تحوت ـ موسى الأول» ابنه من «أح ـ موسى» لو خلفته على العرش لثبتت في يد طيبة مقاليد الحكم.. هذه هي الوسيلة وهذا هو السلاح المشهر في وجه «عين شمس» فلن يصمد الصرح الطيبي لزعازع عين شمس حتى تقوم على العرش

شخصية يؤمن الوادي أنها من نسل «رب طيبة»! وبمثل ما دوّت به أرجاء الوادي قديماً، يعاد من جديد رجع الصدى أن:

قديماً... قديماً اصْطفى الإله «رَدَدَتْ» وليهب لها ولداً تجلّى لها بشراً سوياً... والآن الإله قد اصطفى «أح ـ موسى» فتجسّد لها بشراً سوياً... وكان أمراً مقضياً.. ثم بشرها قائلاً: «إن ابنتك ستكون ملكة البلاد ـ وسأعطيها تاجي وسلطتي وستحكم البلاد لأنها من نسلي، ابنتي»!

على جدران الدير البحري، غربيَّ طيبة، ما زالت نشرة هذا «الميلاد الإلهي» مُعلّقة وفي سجلِ الزمن منشورة وبين هذه الجدران، حيث يطوف الفكر مُفكّراً، يهبّ ريح الحقيقة قوياً أخّاذاً رائعاً يُحدّث أن:

الاصطفاء والإنسال والمولد الإلهي، كان وهماً وخُرافة ومحض خيال حاكه للاهوت خيال!.. بدعة آمنت بها الجماعات فآمنت بمجرد خرافة مؤمنة أنها من الحقائق حقيقية، ومن العقائد الصحيحة صحيح عقيدة، وهي؟..

هي بدعة السياسي المدّثر بدثار ديني لولاه لما آمن الوادي من قبل أن «أوسر ـ كاف» كان «ابن الإله» ولما آمن الآن بأن العرش من حق «حتشبسوت» دون إخوتها من الذكور لأنها «ابنة الإله»!

لحتشبسوت، ابنة «آمن رع»، أُفْسح الطريق، ومن حول «خليفة الإله» في الأُرض التف رجال الإله كهنوت «آمن رع» يهمس في مسامعها بأن من واجباتها الأُولى الاعتراف بفضل أبيها الذي أجلسها على العرش!

أجل... فليرتفع شأن «آمن» إلى العلياء ليشيد باسمه، في انتشار، على صفحة الوادي المعابد وليكنْ كهنوته في الذرى ولتكن للكهنوت الطيبي الصدارة على الكهانة عامة وعلى عين شمس خاصة، ولتكن له عليه الأسبقية في كل مقام ومجال فإنه كهنوت أبيها المستوي على عرش في السماء، والذي بين الآن والآن **يهبط** إلى «الدير البحري» ليرى ابنته!

كبوة! خُرَافة... ولكن! بها قوية غدت يد الكهنوت الطيبي، فابنة إله طيبة سيدة البلاد!

وارتدّ المدّ الشمسي جزراً إلى معْقله في «أُنّ» وفي مجرى التيار الزمني الجاري سكن يراقب عن كثب تحول الأحوال والتيار الزمني جارٍ يُطوى وينشر.. هذه «حتشبسوت» يطويها خضّمه، وهذا «تحوت موسى الثالث» على شاطئه ينتشر وبانتشاره تغيب أعوام سلم وسنين حكم حكيم، وتنتشر أعوام حرب وسلاح وسنين فتح وإرضاخ تؤكد سلطان مصر السياسي في الخارج على من أغرّتهم الأعوام السلْمية طويلة المدى بالتألب والعصيان

ـ قُمع عصيان فلسطين والشام وأرض النهرين ـ أُفني خلفاء الهكسوس وأصبحت مصر سيدة الحيثيين وسيدة لبابل وآشور ـ سيدة الدنيا غدت مصر، فالظلّ فيها يمتد طاوياً البقاع الواقعة من الشلال الرابع إلى أعالي الدجْلة والفُرات حتى غربي آسيا، غامراً جزر البحر الأبيض...

لقد حقق «تحوت ـ موسى ـ الثالث» حلم «أح ـ موسى الأول» بإمبراطورية مصرية لها الدنيا تدين... أرجاؤها تدوي بسيادتها سياسياً، لها طيعة تطيع الأمم الأمر المفروض وفي خزائنها تفرغ ما في خزائنها في صورة الجزية عاماً بعد عام!..

ولكن! هذه الإمبراطورية القائمة إنما هي سيادة طيبة و«آمن رع»!.

إن تحوت موسى الثالث لا يعود من فتوحه إلاّ ليقيم المسلات ويعلن لآمن رع ولاءه اعترافاً بفضل رعايته له ومساعدته إياه في الحرب.

هذه السيادة إنما على وجه أصبح سيادة الكهنوت الطيبيّ فلهذا الكهنوت تنحني في إجلال الدنيا، وإليه في تطلّع تشرئب الشعوب.. ترى فيه قوة «آمن»، الإله الذي إلى هذه المكانة قد رفع شعبه حتى مختالاً لقّب نفسه **«بالشعب المختار»**!

أجل... سيادة «آمن» إنما هذه السيادة، فقد زادت من مكانة «آمن» وكهنوته تمكناً على تمكّن بل مما يزيد هذه السيادة الكهنوتية قوة على هذا المال المتدفّق من الخارج، من الجزية المفروضة على البلاد المغلوبة، ومن الهدايا المتصلة المقدّمة تقرّباً إلى السيادة السائدة ودرءاً لعدوانها... هذا المال أثرى الدين الآمني ووضع الثراء في يده قيداً، ذليلاً به غدا العقل الجماعي!

بلى مذ قام «أح موسى الأول» يغزو فلسطين والقدس والشام وإلى الوادي بدأ من الخارج يتدفق المال وعليه ينهال ليكوّن للغد كنوزه... هذا المال المتدفق مذ «أح موسى الأول» حتى «تحوت موسى الثالث»، عاماً بعد عام إلى جانب منهلّ الهدايا، كان النصيب الأكبر منه نصيب الراعي للوادي، الإله الذي إليه أتى بهذه السيادة وهذا المال: «آمن» ربّ طيبة!

أجل... ثرياً غدا الكهنوت الطيبيّ تملك يده الآن إلى جانب شاسع الأراضي في الوادي، مدناً برمّتها، بإمائها وعبيدها، في الشام وفلسطين ـ غدا الغنيّ، القادر، الجبّار... وإذ تطالعنا في هذه الفترة الزمنية من التاريخ الإلهي للإله صفات الغنى، والقدرة، والجبروت، صفات قط لم تكن للإله من قبل، يطالعنا الوادي طروباً فقد أطربه التكبير المدوي مَمَجّداً الإله الواحد الذي جعل مصر سيدة الدنيا وجعله فوق الشعوب طراً.. الشعب المختار!

فلا غرو إذن أن تغدو معابد «آمن» أكبر المعابد وأهمّها وأن ترتفع على صفحة الوادي المسلات، كلّ منها سبابة تشير إلى دين آمن.

ولا غرو إذن أن تلتفّ الجماعات من حول كهنوت هذا الدين، ومتقربة إليه.. منه تقتربّ، نست كل شيء إلا المجد الحاضر وكأن مجد عين شمس قد أضحى في جفن الزمن أضغاث أحلام!

ولكن... من معقله في «أُنّ» جثم الكهنوت الشمسيّ يرقب عن كثب مآل الأحوال ومن حوله التيار الزمني جارٍ، ومن يديه سلطة زمنية بعد سلطة زمنية تهوي، ففي يديه من الأمر لم يعد باقياً إلا كل ما قد أصبح في ذاكرة الوادي ذكرى...

إن «آمن» ربُّ مهمل التاريخ، لم تكتسب كهانته قوة إلا بادعائها ربّها باسم مركّب من آمن ورع فتوسّلت برع لتوحيده بالإله الشمس.. وهذه قوة مكتسبة ما كانت قط لتكون له ما لم يك قد وُحّد وربّ عين شمس!

ومن ثم فإذا ما أريد إحباط «آمن» وإضعاف الكهنوت الطِّيبي فالوسيلة هي: **فَصل** آمن عن رع!

لتثر حقوق «رع»! لتثر حقوق الإله الشمس، مَنْ إليه الوادي عابداً يتحوّل ناسياً فيه «رع» وذاكراً فيه «آمن» فلن يقوّض لآمن وكهنوته سلطان حتى يُفْصل «رع» عن هذا المدّعي، والوسيلة لهذه الغاية هي: العرش!

وعاد الكهنوت الشمسي إلى مكمنه يتحيّن الفرص عبر التيار الزمني الجاري.. هذا «تحوت موسى الثالث» في راحة الزمن يروح ـ وهذا «آمن حتب الثاني» يقوم يحيط به من الأبناء ابن فتيّ، تلوح أن به قد سنحت السانحة فإن بقران الأمير «تحوت ـ موسى»، هذا الفتى الحدث الذي لم يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة، من ابنة الملك ميتاني، يربط النسب برابطة المودة السياسية بين مصر والشام، بين هذه وتلك المقاطعة الواقعة في شمال الشام، حيث تُعْبَد الشمس كنور متحدر ورمز رامز إلى الإله المعروف لديها تحت اسم «عدن» أو أدون!

ولكن... يعترض طريق هذا الفتى الناظر إلى العرش إخوة أكبر منه سناً ومنه، حسب التقاليد المرعية، بالعرش أحق..

بالفتى المُتوثّب إلى العرش، وبالعنصر الآري الدخيل بالزواج العابد الشمس كمظهر من مظاهر الإله الواحد، أحاط الكهنوت الشمسيّ.. أحاط مؤلِّباً:

ماذا لو أفسح له إلى العرش الطريق؟

كلا! لا يريد الكهنوت الشمسي مقابل هذا الأمر شيئاً إلا النذر الطفيف!

ردّ مهدور الكرامة!

ثم.. وبالعنصر الآري الدخيل، محرّضاً أحاط:

ما عدن أو أدون، وما آتوم؟!

ما عدن رب ميتاني، وما آتوم ربّ أُنّ إلا إله واحد فكلاهما إنما مجازاً الشمس، كلاهما: «آتن»! وآمن!؟

آمن رب مُدَّعٍ لا صلة له بالشمس ـ لا صلة له بآتن!

يصمت التاريخ لحظة ليتكلم بعدها معلناً ارتقاء الفتى إلى العرش باسم «تحوت ـ موسى الرابع»، يحفُّ به الكهنوت الشمسيّ مباركاً معلناً قيام: «ابن آتوم.. مُنْقِذ حور أخْتي.. المُطَهَّر أُنّ، المرْضيّ رَعْ»!

بل وليكفل اللاهوت لنفسه سيطرة على العرش، جاء من جديد يردّد العقائد القديمة في وعي الزمن.. لإخضاع العرش لإرادته أعاد عقيدة «التجسّد الإلهيّ» جديدة ولكن بلون صارخ ترك تأثيره في العقل الجماعيّ بتلك العقيدة.

«عقيدة روح الإله وابن عذراء»

الحائط الغربيّ لمعبد الأقصر سجل آخر للون ديني آخر من عقيدة التجسّد الإلهي، **فعليه** منقوشة السطور تحدّث أن الإله قد اصطفى «متمْوا» ولها بشراً سوياً تجلّى فحملت بأمنحوتب وهي بعد عذراءُ.. وأن الإله قد بشرّها به قائلاً:

«أمنحوتب هو اسم من به ستحملين... إنه سيكبر وسينمو **وسيحكم البلاد** للنهاية فإن فيه **روحي**!».

عذراء، بروح الإله، حملت «متمْوا» ولأمنحوتب الثالث ثبّت عرشٌ ولكن.. كبّلت بالعقيدة العقلية الجماعية!.. عقيدة كمنت في طواياها فقد طاب لها أن ترى على عرش البلاد: «روح الإله وابن عذراء»!

بدعة! بدعة ابتدعها اللاهوت ليصون بها العرش من طمع الطامعين ودعوى الأدعياء.. وقبل العقل الجماعي المشبّه «بقطيع القطعان» دعوى الدين وتلفّت في أرجاء دنياه فخوراً بأنه دون الشعوب طراً «المختار من الإله» فعلى عرش الإمبراطورية يجلس «ابن الإله»!

أجل... كبّلت العقلية البشرية بهذه العقيدة البشرية لهذا الدين الرسمي في هذا العهد الذي سادت فيه مصر الدنيا فرنت الدنيا إلى مصر ـ فالعهد عهد عرفت فيه مصر حركة

تجارية واسعة النطاق فإلى أسواقها تقبل القوافل وعن أسواقها تروح إلى بلادها قافلة، فتقبل بعقائد وتروح بأخرى لها رنين في النفس!

إلى طيْبَة وأسواق طِيْبَة تحمل جزر البحر الأبيض وشواطئه سلعها التجارية... وعلى صدر طيبة التقى العنصر بالعنصر واختلط الجنس بالجنس، وتلاقى في احتكاك الرأي بالرأي والعقيدة بالعقيدة والمذهب بالمذهب ولكن الغلبة دائماً معقودة للعقائد المصرية فمصر، سيدة تلك الدنيا، ذات سيادة من النيل تمتد حتى الفرات وإلى عقائدها تلتفت وتلتفّ العقلية الجماعية في خشوع!..

هذا الامتزاج في المدن والأسواق ـ هذا الاحتكاك الرأيي والعقيدي والمذهبي، عوامل كانت لمزج العقائد وإلى جانبها كان هناك عامل آخر، فالبلاط، بلاط امنحوتب الثالث، بلاط مصري الصبغة سوري الروح كأثر من آثار «متموا»... كما يطالعنا أثر مهم من آثار هذه الدولة هو نتيجة حتمية لعقيدة التجسّد الإلهي وهذه نتيجة طبيعية تلج بنا مشكلة مهمة من مشاكل الدين وهي: «المكالمة الإلهية»

المكالمة الإلهية ليست بعقيدة دينية جديدة وإنما بلغت أوجها في العهد الطيبيّ غداة طلعت «حتشبسوت» من في المخيّلة منها قد أودع اللاهوت الطيبيّ عقيدة بنوّتها للإله.. فإذا كان الإله لها أباً فمن الطبيعي أن يهبط «الأب» من سمائه لزيارة ابنته على الأرض، ومن الطبيعي أن تطلع ابنة الإله عن عقيدة تقول كلّمني الإله!..

من السهل أن يكون الحاكم للإله كليماً...

أجل... المكالمة بين الإله ومَنْ في يده الحكم عقيدة الدنيا القديمة وظاهرة في آفاقها طبيعية ومن ثم كانت أكثر القصص التي تصاحب الصور المنقوشة على الحائط مكالمة بين الإله والمختار أو الكَلِيم.

عهد وطّدَت فيه العقيدة بالمكالمة الإلهية ومن النتيجة الطبيعية أن تؤدي هذه العقيدة إلى عقيدة نراها في هذا العصر وطيدة هي: رؤية الإله وجهاً لوجه!

يهبّ من ثنايا هذا العصر ما ندرك به أن أمنحوتب الثالث، مَنْ في مخيلته أيضاً قد أُودع أنه روح اللّه وابنه وابن عذراء، قد اشتهى أن يرى أباه، يرى الإله وجهاً لوجه، وعذّبه الشوق وأضناه فشكاه لسميّه أمنحوتب.

وأمنحوتب؟ أمنحوتب «نبي» آخر من أنبياء مصر القديمة له في المتحف المصري تمثال فيه يطالعنا شيء وراء الفن الطيّبي.. يطالعنا السياسي القادر تحت رداء القدسية، فالقدسية رداء وقفٌ على من تلحق باسمه شهرة: السِحْر!

أجل.. كان السِحْر علْم العصر وشهرة أمنحوتب «النبي» فيه قد طبّقت الآفاق، وما على بعض أوراق البردي من «كتابات سحرية» فإنما إليه تُعزى. عرفته مصر قديساً نبياً وله في القلب مركز لا يضارع فالتماثيل له تقام وآيات المديح عليها تنقش والقصص عن عجائبه أو معجزاته تحدث وتحفر في الوعي البشري ذكراه **نبياً في يده القدرة على السِحْر.**

ولكن! لأمنحوتب يعرف التاريخ السياسي غير ذلك ففي ثنايا صفحاته يطالعنا الداهية والمعول الخفي الذي عوّل عليه الكهنوت الشمسيّ في هدم الكهنوت الطيبي فهو الذي منح بركته لأمنحوتب الثالث وعليه أقبل مباركاً يبارك فيه «وريث عرش آتوم»... ومن ثم فإذا أراد «وريث آتوم» أن يرى الإله وجهاً لوجه فعليه أن يطْرد «الدنسين»!

أوغر «أمنحوتب» النبي صدر أمنحوتب الملك ضدّ كهنوت طيبة، وبإيعاز غير مباشر أوعز إليه أنه لن يمكنه إطفاء لظى الشوق المستبد إلا إذا طرد هؤلاء الذين دنّسوا قدسية «آتوم» فبدأ في ذلك فعلاً وعلى توالي الأيام نرى إقفار المراكز الرئيسية من أردية الكهنوت الطيبي... لتظهر أظهر ظاهرة في بدء تضاؤل مركز الكهنوت الطيبي إذ نرى أن منصب الوزير الأكبر الذي كان يشغله «فتاح موسى» رئيس كهنة آمن والذي بوفاته قد شغر لا يملؤه خليفة له وإنما يحلّ محلّه «رع ـ موسى» من الكهنوت الشمسي من به فُصّلت السياسة الزمنية والدينية ومن في قبره نرى للدين تطوراً من لون إلى لون.

أجل... إن الزمن الجاري قد جَرى فطوى لتحوت موسى الرابع حكماً قصيراً (١٤٢٠ ـ ١٤١١ ق.م) ويقيم أمنحوتب الثالث على الحكم صبياً دون الثالثة عشرة، حكمه حكم «متموا» ذلك العنصر الآري الذي بدأ يحكم البلاد من بلاط مصري الجسم سوري الروح، أترعه الأصفياء من الشام، والمقربون من أصحاب الرأي الحر والمتحيزون إلى دين الشمس ضد ما يدّعيه كهنة آمن ولاهوت طيبة، وعلى رأس هؤلاء الأصفياء من المستشارين يبرز على صفحة التاريخ السياسي في صدد التفكير الديني «يُواو» السياسي المحنك الذي بلباسه الكهنوتي يقف الآن إلى جانب «متموا» راعياً للصبي الذي رغم هذه السن المبكرة قد أضحى زوجاً لابنته «تي» صبية مثله وملكة قصر فيه العبادة تُوجّه إلى «أودن» المتجلي في «آتن»!

إن التيار الزمني ليأتي إلى «أُنّ» بعد جذر بمدّ جديد لأحداثه تهش «أُنّ» وتطرب لمرأى «متموا» طالعة على صفحة الوادي تحتضن بيد الصبي وبالأخرى الصبية متجهة بهما إلى الشمس ـ إلى «آتن» تريهما فيه معاً الإله السوري «أدون». وإله أُنّ «آتون»!

ما أسرع مرور الزمن.

هذه الأعوام تتجمّع لتبلغ الثلاثين وأمنحوتب الثالث يحكم البلاد من فوق عرش صرفه إلا عن اللهو والصيد وصرفه واسع الثراء عن دنيا الحرمان والفاقة، إلى تجميل الوادي وبالأخص العاصمة، فإلى هذه العاصمة تأتي من كل صوب الدنيا.. إلى أسواقها تحمل القوافل البريّة والبحرية، وفي أسواقها بما تحمل تلقي ـ من الصومال، من جزر البحر الأبيض وشواطىء فينيقيا، من قبرص وكريت وأورشليم والقدس ومن سيناء ـ قطّ لم تجتمع في الوادي من قبل هذه الكثرة من الألوان والأجناس المتباينة المختلفة، وقطّ من قبل لم يحتك الرأي بالرأي ولا يمثل هذا الخضاب من قبل خضبت الطباع الطباع ـ الدنيا لمصر دانت فأقبل إليها الكل وكلّ إلى بلاده عنها يروح حاملاً لوناً جديداً، في طباعه، وعاداته وتقاليده..

أجل... ما أسرع مرور الزمن!...

في لُجة الماضي هوت الأعوام وإلى جانب أمنحوتب الثالث «تي»... ولكن عن لهو الملك لاهية، عن اللهو يلهيها عمل السياسة!.. لقد تخطت صبية الأمس الأربعين من العمر اليوم، وللقوة الكامنة فيها قديماً قد أنمت الأيام.. تقبض قبضتها القوية على قبضة الملك المتراخية، وعن هذا الطريق تُحكم بلاد عرفت لها تأثيرها فاعترفت بقوتها، فما من تمثال للملك يقام إلاّ وإلى جانبه لها يقام تمثال وعلى صفحة الوادي ما زالت قائمة لها تماثيل يطالعنا منها ذلك التأثير الذي امتدّ حتى سيناء، حيث وُجد لها هناك تمثال، وحيث تطالعنا أحداث تلك الأيام بأمانيها وأحلامها، بمخاوفها وأفراحها إلى جانب أتراحها، ففي تينك العينين مرتسمة ما زالت تلك النظرة الحائرة في ثبات والثابتة في حيرة، المطمئنة إلى حقها وقوتها ولكن يفزعها ثراء الكهنوت الآمني وتوثّبه للوثوب على العرش... وأما على جبهتها فمرتسم ذلك الحلم الذي عليه طيَلة العمر طاف راسماً إمبراطورية «مصرية ـ سورية» لأطرافها معقودة منها الأطراف!

إن فكرة هذه الإمبراطورية لن تتحقق إلا **بوحدة دينية!**

بدين واحد إلهه إله واحد يعبد من شلالات النيل حتى أقاصي الفرات لن تستطيع قوة ما هدم هذه السيادة... ستصمد لزعزع الدهر هذه الوحدة السياسية.. وليس من ألوهة تفي بالغرض كألوهة الشمس: «آتن».

ليس كالشمس إله يجمع بين أطراف البلاد الشاسعة بأواصر لا تنفصم له عراها، فواحد هو هنا وهناك. وحيثما كان الإنسان هناك أو هنا فله في الآفاق نور يتجلّى ثم، ثم هو يُعْبَد

هنا وهناك تحت اسمين مختلفين وليس لهذا من معنى فهو واحد سواء أنادته الشفاه هناك: آدُن أو عرفته الشفاه هنا باسم: آتن...

من ثم فلتثر **جدياً**، حقوق الإله الشمس القديم ضد ما يدّعيه «آمن» وكهانته وليُفصل **جدياً** رع عن آمن!..

لن يفصل بين آمن ورع إلا بمنح الإله الشمس اسماً جديداً تُثار به حقوق «أُنّ»، وفي نفس الوقت يَتَحتم أن يكون اسماً يُدْرأ به ثائرة «آمن»، كما يتحتم أن يكون في نفس الآن اسماً يحقق الحلم لهذه السيادة «المصرية ـ السورية»... اسماً رنينه ووقعه هناك نفس رنينه ووقعه هنا، وليس من اسم كاسم القرص الماديّ للإله نفسه: «آتن»!

«أجل... فَليُدْعَ الإله الواحد **باسم الشمس نفسها** مُجرّدة من اسم أي إله آخر، ويكون اسمها على ألوهته عَلَماً... إنها الوسيلة التي سَتُقْصي عن «رع» «آمن» وتفصل «آمن» عن الشمس فصلاً، وفي آن الآن لا يستطيع معترض الاعتراض فإن الألوهة لم تخرج عن تأليه الشمس فآتن هو جسم الإله والإله هو متجسّم في آتن!

ثم.. آتن اسم يجمع بين مصر والشام ففيه من المصري «آتوم» وفيه من السوري «آدون» وكلاهما الشمس: «آتن».

إذن فَلْيُهْتف بالاسم حتى تجلجل طيبة بالهتاف، وليرجّع في أرجائها الهتاف دوياً، ولينساب الدويّ بمن إليها يأتي ومن عنها يروح فترجّعه أصداء فيه من رجع الصدى ترجيع بأن للوجود مُوْجداً واحداً هو الإله العالمي المتجلّي في الآفاق نوراً، المرسل نوره على الكل، وأن: آتوم وآدون هو... آتن!

آتن؟ لنفسه تلفّت الوادي وسرى فيه الهمس دوياً: إن هذه لنغمة في لا جدتها جديدة!

منذ القِدَم ومصر القديمة تعرف القرص الشمسي باسم «آتن»، **فليس في الاسم شيء من حيث الشكل جديد ولكن المعنى، الموضوع، المقْصَد** فشيء آخر، فإن في هذه الرّنة الجديدة لحناً قديماً فيه للماضي ترجيع وفيه لمجد عين شمس تمجيد، بل تشهد الشواهد وتدلّ الأدلة على أن الاسم ما أُدْخِل إلا لمحض التضليل والتمويه!... منذ القِدَم و«آتن» للقرص الشمسيّ في الوادي اسم، بيد أن لأول مرة يدخل اسم «آتن» كاسم مُرادف لمعنى آتوم ربّ «أُنّ»!

إن الأحداث تجري فأمنحوتب الثالث يقضي تاركاً «تي» وقد تجاوزت الحلقة الخامسة من العمر، وصيّة على عرش يعتليه ابنهما الصبي ذو الاثني عشر عاماً والذي من حوله يَلْتفّ

الكهنوت الشمسي ومحتفلاً ينصبه «الكاهن الأكبر لرع المبتهج في سمائه **باسم الحرارة التي في آتن!**».

في هذا الصبي المعتلي العرش باسم «أمنحوتب الرابع» والمخضبة دماؤه بالآرية يتمثّل العقل الإنساني في أول صورة معروفة في تاريخ الفكر فالنفس منه مرآة صافية لألوان الوجود تعكس، والقلب منه منبع للحب وفي مسامعه، منذ وعي الصوت يُردّدان ألوهة «آتن» هي الألوهة الصحيحة وأما «آمن» فإله مُدّعٍ... ومن ثم نما في قلبه حب «آتن» بقدر ما في القلب منه نمت كراهية «آمن» ويدعّم هذا الحب تنصيبه كاهناً أكبر لرع، وهذا منصب له خطورته في تاريخ الدين الشمسيّ والألوهة الشمسية إذ يصاحبه دائماً لقب «نبي» وتلازمه عقيدة تودع في وعي صاحبها أنه قد بلغ بها درجة تُخوّله الاستعداد لتلقي الوحي والاستماع إلى الصوت الإلهي...

أجل... لـ «تي» كان «أمنحوتب النبي» صديقاً بارك على جبينها الحلم الحالم بإمبراطورية «مصرية ـ سورية» تربطها **وحدة دينية** لتحقيقها كان الاتجاه إلى «آتن» حتماً وطريقاً مرسوماً وبمساعدة هذا «النبي» دفعت يدها القوية دفعاً «أمنحوتب الرابع»، ليطلع على التاريخ الديني، باسم آتن، ديناً جديداً فيطالعنا:

الدين الآتني في معترض المذهب الأوزيري وأديان الشمس

إن الأعوام تمر ونحو النضوج بأمنحوتب الرابع العمر إلى الشباب قد سار فنضج به، ناضجاً، حب «آتن» نضوجاً أبى به إلا استبدال اسم أمنحوتب باسم من يراه «المانح الحياة» ويرى نفسه فيه حياً، ومن ثم فاستبداله باسمه الاسم الذي نعرفه به على صفحة التاريخ السياسي:

«عنخ آتن» من فوق تلال «تلّ العمارنة» أعلن «عنخ آتن» ألوهة آتن ووحدانية لا ترى إلا «آتن» إلهاً فأتى بوحدانية استهلّت خطاها مادية بحتة... مادية لا ترى إلا آتن أو الشمس إلهاً يُعْبَد وليعبد يتجلى في الآفاق نوراً... بيد أن كما تسير الأيام به وبه تتخطّى من العمر مرحلة التفتّح نرى في ميل إلا المجرّدات والمعنويات به النفس تميل فإن في انصراف عن «آمن» وانصراف إلى «آتن» انصرف «عنخ آتن» فصرفه هذا الانصراف إلى الحب!.. واجترفه الحبّ من مخالب المادية إلى رحاب المثالية وطفرت به المثالية من اللامجرّدات إلى المجرّدات ففرغت الشمس من الألوهيّة!... إليها متّجهاً لا يراها إلهاً ـ ليس هو هي وليست هي هو وإنما هي من ضوئه ضوءاً.

كالروح ـ من روحه روحاً!

فالإله العالمي ليس آتن وإنما الحرارة التي في آتن!

قط لن يكون الإله العالمي هو «آتن»... فإنما «آتن» شيء مرئي والإله الحق ينبغي أن يكون من صفاته التجرّد ـ تَعَالى عن أن يكون المُتَعَالي إلا المجرّد في المترائي وأن يكون إلا الحقيقة القصوى من وراء هذا المظهر، ومن ثم فيقيناً أن الإله العالمي ليس «آتن» وإنما هو قوة مظهرها «آتن» أو الشمس!

نزعة حب من ألوان الحبّ الصافي صافية بـ «عنخ آتن» هبّت تفجّرت بها منه ينابيع القلب تفجّراً عن ألوان من الفناء المُستَطاب، وجَرَت تحتفر أسس وحدة دينية ونظام مترابط تستبدل فيه الوحدانية اللاخالصة بوحدانية خالصة لا شرْك فيها لدينٍ واحد يتجه عابداً «الأب الذي في السماء»...

إن فكرة الحق أو «معات» تميّز هذا الدين. ورمز «آتن» أو القرص الشمسي الذي تمتد منه اليد في كل اتجاه حاملة «عنخ» أو مفتاح الحياة إنما تمتد للجميع ولكل كائن حيّ!

إن الرمز الجديد «للإله» هو الإله القديم ـ الرمز الجديد اللامرئي هو آتن المرئي!

بلى... إن عنخ آتن، قد اختار الرمز الجديد، الإله القديم ففي الدولة القديمة كانت أشعة الشمس تمثّل بذراعين: ويمثّل الشمس بقرص تخرج منه أشعة متفرّقة تنتشر على الأرض وتنتهي بهيئة يد بشرية تحمل **صليب** الحياة: عنخ!

من ثم فما لهذا الكهنوت بألوانه المختلفة تُعجّ صفحة الوادي، وواحداً إنما «الأب السماوي»، لا شفيع ولا وسيط إليه يؤخذ وإنما بينه والإنسان الصلة موصولة مما يجعل الدين للكل واحداً!؟

بالتديّن الشخصيّ استُبْدِلت الوساطة الكهنوتية فللفرد الاتصال بربه اتصالاً مباشراً دون حاجة إلى وسيط فهو للكل أب والكل لديه وأمامه سواء... وإنما قانون هذا الدين الحب وللحب قانون أساسه الاستقامة بكل أوجهها ومعانيها، وأبرز وجه لها الشرف وأما أوضح معنى فالصدق..

فلتهوِ من ثم الأديان الشمسية إلى الحضيض فليس هناك إلا دين واحد صبغته عدم الشرك وطبيعته كطبيعة الإله!.. الفرح والجمال.. وأما شعائره فالشعور!

أجل... شعائر هذا الدين الشعور.. إلى «الأب السماوي» يتجه المرء مُعَبّراً عن حبه، شاكراً منحه إياه الحياة.. يتجه المرء للإله عابداً لا عبادة العبد للسيد وإنما عبادة الحبيب للحبيب!...

ومن ثم فلتؤد الصلاة للواحد الصمد شكراً وحباً لا مخافة وفَزَعاً، وإلى «آتن» يتّجه قبلة في توجّهه إلى من «آتن» له مظهراً.

إن بين زهر ينثر وطيب يتضوّع وبخور يطلق ترتفع أناشيد الدين الآتني إلى المُجرّد ومَنْ «آتن» له رمزاً.. ومسبحة بحمده إليه توجه الصلوات في العشيّ وفي الإبكار.

كلا...! لا مُحْرقات ولا دماء تُرَش ولا لحوم تُرسل عَبْر النار إلى الإله!

لأول مرة في تاريخ العقل البشري يتّسع الأفق الديني وتُحوم فيه روح الصفاء ـ ولأول مرة يخضّب منه الرحاب بألوان قزحية هي للصوفية العقلية خضاب تنساب فيظلّ الفكر لون كالنغم، مختلفة في امتزاج وانسياب منه الألوان ـ لون لا يرى فيه الكلّ إلا في وحدة ولا الوحدة إلا في كل ـ لون به يبرز دين واحد من طبيعته أن تتلاشى فيه ما سواه من أديان..

لا غرو إذن أن يطوّح العقل الإنساني في خطواته هذه بالأديان المادية ذات الصيغ والصبغ والطقوس البُدائية ويحاول فكّ الأسر الجماعي بتحطيم قيد قيود الدين الرسمي.

فاللون من الفلسفة الصوفية لا يعترف بلون من ألوان هذه المادية فالعبادة لديها توجه إلى المجرد بصورة تجردية ـ لا غرو إذن أن يُطوِّح هذا الدين بأديان الشمس، استجابة لهذا اللون الصوفي، وأن يقفوها باللون الآخر لمذهب أوزير!..

أجل.. هذا اللون من التفكير الديني لا يعترف بقيامة أو نشر جسد بعد موت وردّ رميم عظام فهو لا يعترف للجسد ببعث بعد فناء ولا بحساب ميزان ولا بشيء من هذه الصور المادية الفجّة التي جاء بها مذهب أوزيرا!..

كلا..! ليس عن منطق عقلي وليد تفكير رسين وإنما عن شعور شاعر وإحساس مرهف أداته البصيرة أو الحدْس ـ إن دينه الحب والحب دينه. والحب كدين، يشفق على نفسه من أن يكون الخلود الأوزيري له خلوداً.

ومن ثم طوّح هذا الدين بالعقيدة الأوزيرية تطويحه بأديان الشمس!

إن الإنسان لا يفقد بالموت إلاّ جسداً يغلّف منه الذات أو الشخصية التي لها نفس صورة هذا الجسد أو بعبارة أوضح ليست الذات على شبه الجسد وإنما الجسد هو الذي يأخذ بتغليفه لها منها الشبه، ومن ثم فالموت إنما ظاهرة لا تؤثر إلا في الجسد وقط لا تنال من الشخصية أي منال بل على العكس فموت الجسد حياة للشخصية **ذات الجسد النوري** ـ الموت إنما تحرير الذات من هذا الغلاف وفك أسرها من هذا القيد الحائل لها دون الانطلاق جسماً نورانياً إلى رحاب الإله!..

كلا...! لا شيء من «جنة أوزير» الموعودة بعد الحساب يوم تشهد الأيدي والألسن بما قد فعل الإنسان، نجده في هذا الدين الآتني، فالملكوت الإلهي يختلف عن مذهب أوزير كل الاختلاف:

«إن الملكوت السماوي، الجنّة، إنما في داخلك»![١].

«عنخ آتن»

والنار؟!... كلا...! لا شيء من هذا أيضاً فالملكوت الإلهي من الشر خلا ـ يمحق الشرّ نفسه بنفسه ونهايته الإبادة فلا نار في الخارج فإنما النار في داخلك أيضاً ضارمها منك فيك الضمير!

نَشَر العقل الإنساني في تمثّله بـ «عنخ آتن» الجنة والنار في طوايا الإنسان، فَقَلَب الأوضاع وجعلهما معنويين ومعنين مجرّدين.. جاء بنظرة جاءت كنتيجة حتمية لهذه الدعوة الدينية القائمة على أساس من الحب الصوفي الذي تلاشت أمامه التمييزات الكيانية فتبدّت له نفسه و«الكل» واحداً أحداً فلا وسيط ولا شفيع ولا كهنوت يقف دونه والإله!...

واهتزت آفاق الوادي استجابة لهذا الدين...

ولكن!.. حتى الآن كان الكهنوت الشمسي راضياً لا يرى في الترنم باسم آتن إلا صوت الفَصْل بين آمن ورع وأما الآن؟

الآن يجد نفسه يتململ شأن الكهنوت الآتني ـ فالآن، وبـ «عنخ آتن» الأعوام قد قربت به من الحلقة الثالثة من العمر، يتجه اتجاهاً مغايراً وينحرف انحرافاً كلياً عن الطريقة التي قد اختطها قديماً بـ «تحوت موسى الرابع» فهدده ألوهة جديدة تنكر الشمس ودينه تستنكر!

دين جديد به يهوي آتن أو الشمس مِنْ ألوهة إلى مُجرد مظهر للألوهة وهذا إنكار مباشر لإله أَنّ وتنكّر مباشر لسلطان عين شمس السياسي... دين جديد لإله جديد يطلع به ناضجاً «عنخ آتن» وبالتبشير إليه، من على العرش، يضطلع ومِنْ على تلال تلّ العمارنة يسمع الصوت منه للموجود مناجياً: «أنت الإله الحق!»

«عنخ آتن»

بل من «تل العمارنة» ينساب الصوت الأخناتني إلى الوادي يرجّه رجاً بنشيد راح فيه للمُجرّد منشداً:

---

(١) Oxyerhynchus Paparus.

«إن الإله الحق **ليس بجسم!**

إنه الرب من سوّى نفسه بنفسه..

إن الإله قد فطر نفسه ولكن صورته غير معروفة

«خفيّ الشكل!»

«إن الإله الحق لا شكل له ولا صورة!»

«عنخ آتن»

أجل... على الوادي ليست الوحدانية بجديدة ولكن اللون منها هو الجديد... إلى أكثر من عشرين قرناً من الزمن قبل هذا العهد والبذور منها في تربة النفس ملقاة.

ولكن... قط لم تك صبغتها الصبغة! كانت وحدانية لا خالصة ومادية الطبيعة والطابع، وأما هذه فوحدانية خالصة روحية التعبير روحانية المعنى تأتي بإله مجرّد فتأتي بإله للفهم الجماعي في مختلف مذاهب غير مفهوم بل تحاول للبناء الكهنوتي تحطيماً!...

أجل... إن من الشمس إلى ما وراء الشمس ومن المرئي إلى اللامرئي تغلغل الفكر الإنساني بـ «عنخ آتن» وبه تحول التفكير الديني من الوحدانية اللاخالصة إلى الوحدانية الخالصة وتطوّرت من مادية إلى مثالية تفوح من ثناياها عطر الصوفية وصفو تعابيرها وتعبيراتها، فأخناتن يريد وحدة دينية لدين صوفي فهو قد غدا لا يرى إلا اللامترائي إلهاً... بتسبيحه تنطلق حنجرته وبقوة يفرد له مكانة يهوي بها بكل الأرباب فلا تحفّ به من الأرباب طوائف ولا دونه يقف أرباب منه أدنى، فإنما هي وحدانية مطلقة وألوهة خالصة فإنه هو: «الإله الفرد»!

«عنخ آتن»

الإله الفرد؟...

هذه نقمة أخرى جديدة بها «عنخ آتن» يأتي.. يأتي بما لم يأت به أحد من قبله قطّ!

إن النغمة لها معناها ورنينها له مغزاه ويفهمها الوادي عهد ذاك فعهد ذاك ليس بخفي منها المعنى ولا منها المغزى ففيها لأصل آلهة الوادي تقريعٌ. فيها تنديد وفيها انتقاص، ففيها عنخ آتن يقول للوادي عامة وللكهانتين المتناحرتين خاصة:

إن الإله الحق ليس كرع وليس كآمن وإنما هو أبداً وأبداً: «الإله الحي»!

«عنخ آتن»

الإله الحي!؟

إن النغمة قد ازدادت وضوحاً على فردية اللامترائي، بل إن «عنخ آتن» يخرج النغمة إلى حيز الوجود المحس حقيقة واقعة من ثنايا شفتيه المنادية إنه هو: «الحي الذي لا يوجد بجانبه إله آخر!»

«عنخ آتن»

فلتحطّم تماثيل الأرباب حيثما وجدت ولْيُمْحَ محواً تاماً حيثما تقف اسم «آمن رع»!

لِيُمْحَ اسم «آمن» حتى يُمحى من ذهن الوادي ووعي الزمن، وحتى يوقن العقل الكهنوتي والعقلية البشرية كافة بأن الإله الحق ليس له صورة ولا شبه ولا جسم وإنما هو شيء مجرّد.. مجرّد كالحبّ!.

كلا: بل «هو الحب!»

«عنخ آتن»

عانقت العقل الإنساني في تمثله! «عنخ آتن» نسائم الصوفية وأرسلت في أعطافه عطراً عطر الحب ـ ونشوان تبدّى الإله له المحبوب، ولنفسه تبدّت نفسه فرأى نفسه المُحِبّ والمُحَبّ!

المُحِبّ؟... المحب قلب نبضاته اسم المحبوب ـ المحبّ روح أنفاسها استرواح لروح وأنفاس المحبوب ـ المحب ضعف ينادي بالوصل يرى في الوصل من المحب الرضا ونيل الرضا منه لديه هو المرتضى!

والمُحَبّ؟... والمحب لا يعرف الغضب فمن صفة الحب الرحمة والحنان والرعاية والغفران... صفة الحب تنفي صفة البغض والإله الحب، فللكل حبّه حاو وغامر ـ أخطاء البشر لديه.. ضعف ـ والتقصير في عبادته يعتبره قصوراً... من ثم نرى في هذا اللون من التفكير الديني صفات جديدة غير تلك التي رأيناها في اللاهوت الآمني، **فالإله الإله الرحيم الحنون الغفور الأب!...**

إن الأب لا يعرف الغضب ولا يعرف البغض ـ بغض شعب وحب شعب!.. الكل لديه سواسية والكل لديه سواء، ولأن الكل لديه سواسية فهو ليس الحرب وإنما: **السلام!**

السلام لا يقبل إراقة الدماء لأن الكل أبناؤه ـ لأنه:

«الأب السماوي» «عنخ آتن».

الأب السماوي مَنْ إليه ترتفع الصلوات صلاةً تناديه: «أبانا الذي في السماء»[1].

«عنخ آتن»

للكل! للكلّ هو أب ـ لكل حيثما كان مكانه من الأرض!.. عالمي هو وللعالم قاطبة الإله، ومن ثم فلترتفع الأناشيد على أنغام المزامير في أنحاء الدنيا تُرجّع لـ «عنخ آتن» شعراً ألحانه تنطلق «للأب السماوي» في تمجيد تُسبح:

«على الزمن من الشام إلى كوش

وعلى صفحة مصر أنت العاطي لكلٍّ مكانه

ولحياته أنت المكوّن

المانح الكل ما يملك والعَالِمُ بأيامه كم ستكون»[2].

«عنخ آتن»

فلتدو بالنغم أرجاء الإمبراطورية المصرية ولتجلجل في آفاقها أصداء الهمس الداوي دوياً!..

فلتهب الرياح على ضفاف النيل إلى الأورنتس حتى الفرات متغنية على أنغام المزامير تُعلم العالم بأن للعالم إلهاً فرداً صمداً واحداً نحوه تتدفق القصائد من منابع الروح الصافية، بصفائه في تلّ العمارنة تتغنّى: «الأرض في يدك»

«عنخ آتن»

وتصفه بأنه: السلام!

من النيل حتى الفرات دوّت الرياح وخفقت في اصطفاق الأمواج وعلى أنغام المزامير راحت الأناشيد تتغنّى بوحدانية لا شرك فيها خالصة ومطلقة وإله واحد للعالم قاطبة... هو المجُرّد!..

وإلى «آتن» تحوّلت العين البشرية من النيل حتى الفرات وحتى جنوب الوادي ترى فيها ألوهة جفّت، ونوراً كان للألوهة سراباً ـ لا ترى فيها الإله ولا محلاً للعبادة وإنما من المجرّد طبقاً مرئياً أو خيالاً ومن متساقط نوره الخفيّ شعاعاً عبره ترتفع الصلاة إليه، وفي الصلاة إليه تتّخذ قبلة!

---

(١) The Life and time of Akhnaton, By A.Weigall.

(٢) Story of the Pharoahs, By J.Baikie.

في تاريخ الأديان قاطبة لم تُتّخذ في الصلاة إلى الإله قِبْلة أسمى مما إليه قد اتخذ عنخ آتن!

لا حجر ولا وثن ولا نصب ولا بناء أو بيت نحته أو أقامه وشاده الإنسان وإنما هذا الجرْم المتلألىء في الفضاء نوراً الطالع على الأرض بأسباب الحياة!

ومن الفرات حتى النيل وحتى جنوب الوادي تحوّلت العين البشرية إلى الرمز الجديد ولكن سهّرها منه المعنى فالمعنى غير غامض عليها أنّى كانت وفي أي بقعة من هذه البقاع فالرمز إنما للسيطرة العالمية رمز لإله تدل على سيادته المُطْلقة هذه القُوَى المنبعثة من منبعها السماوي وهي تضع يدها فوق البشر ترعى شؤون مَنْ على الأرض... ليعلم العالم أنه إله واحد تمتد يداه راعية شؤونه وبجانبه لا يقوم إله آخر ولا رب من الأرباب.

أجل... بـ «عنخ آتن» تضوّعت الأرجاء بأريج فلسفة تجرّدية ووحدة وجود صوفية جرّدت الألوهة من الصفات البشرية، وبهذا التجريد طلع على الوجود الدين الصوفي فـ «عنخ آتن»، متمثلاً، بلغ العقل الإنساني فكرة الوحدانية المطلقة وبه بلغ التوحيد الصافي النقي ـ وبه تمثّل روحاً ليعطي معنى وليبث روحاً في مادية التعبير ـ فيه نمت الروح الإنسانية ومن اللامجردات تغلغلت إلى المجردات فشفّ «الواحد» من كثافة المادية وتلاشى من المكان والزمان ليشعّ في الوجود روحاً! روحاً غير مرئي ولكنه يتراءى في كل الوجود فوجوده الوجود وأنفاسه النفوس وحياته الحياة!

يقيناً ما بلغ العقل الإنساني التوحيد إلاّ على أكف السياسات المتدافعة ـ ما كان التوحيد إلا لأنه كان للسلطان السياسي الوسيلة ـ وما بلغ التوحيد النقي لألوهة عنْصرها التجرّد والمطلقية من صفتها صفات إلاّ بأسباب الحلم الذي على جبين السياسة قد طاف وما صعد العقل الإنساني في سلم العلل الثانوية نحو العلّة العليا، وما شفّت به الروح فاستشفت نسائم المعاني والمجردات ووجود اللامترائي في المترائي إلا بدفع السياسات المتدافعة.. ولكن... التوحيد الأخناتني... التوحيد النقيّ الصافي، كسب فاز به العقل النظري وليس حدثاً من أحداث المدركات الجَماعية فمنذ مطلع الفجر من تاريخ الوادي ونحو هذه القمة تسير بالعقل الإنساني الخطى حتى بلغها «عنخ آتن»...

ولكن!.. لئن كان كهنوت عين شمس حتى هذا العهد راضياً لا يرى في الترنم باسم آتن إلا صوت الفصل بين آمن ورع، فإنه الآن، يرى أن هذا الدين دين جديد يحطم لدينه بناءً...

لتحطيم هذا البناء الأخناتني تكتّلت الفروع اللاهوتية المختلفة جموعاً فأنّى لدعوة كهذه

الدعوة أن تقْبَلَ من طوائف الكهنوت ورجال الدين الرسمي فهؤلاء لا يرضيهم إلا أن تملك قبضتهم قبضة المُلْك، ولهم يؤازر من داناهم من ذوي الحِرَف الدينية كناسخي «كتاب الموتى» ورجال الكهانة المسرحيين الممثّلين لمأساة أوزير في عيد القيامة، والملقنين الموتى، والمُقْرئين من قارئي «الآي المقدّس» في كل احتفال ديني واجتماعي وكل حفل سياسي...!

ومن ثم فما كان لهذا الدين القالب الأوضاع رأساً على عقب أن يسود وطوائف الكهنوت تهوي عليه بمعاولها وتتّخذ من السياسة السلمية في آسيا مواد تشعل بها سخط القلب الجماعي على «عنخ آتن»..

إن السيادة التي على جبين السياسة قد طافت منها الصور بوحدة دينية تصمد بها لزعزع الحدثان وأحْدَاث الأيام، لم يتحقق منها إلا الجانب الروحيّ وأما الجانب السياسيّ فأخفق. أخفق لأن الإله المنتشر عليها، صفته السلام وعنصره الحب!..

على المدركات الدنيوية في أحداثها كان إدراك هذا الدين الصوفي عسيراً فتململت أرجاء الإمبراطورية، ومتألبة شقت عصا العصيان، في الخارج وفي الداخل.. ومن ثم كان في الخارج توثُّب الشعوب التي قهرها السيف إلى الوثوب تنتهز النهزة للانقضاض على الصدْر الذي للكل قد اتسع منه الرحاب.. بل وامتدت في تسلّل. وبقدر هذا الامتداد تراجع المدّ السياسي إلى مصر جذراً..

ومن هذه الأحداث اتخذت طوائف الكهنوت موادّ تحيك بها سخطها المتغلغل في الخفاء جهارة بها انْتشرت سُحُب التذمّر الشعبي التي ثارت هوجاء لا تلوي على شيء تُذْري بفلسفةٍ جاءت بريقاً خاطفاً في آفاق عالم حالك عمرها كان عمر «عنخ آتن»!

سعيراً اندلع الثأر الكهنوتي وثائراً لم يتورّع، فحرمة الموت لم يرع فنعته بعد موته: الآثم! المُلْحِد!..

بل لا يقترب الزمن من عهد «حور مُحبَّ» نحو النهاية حتى كانت السجلات الرسمية الحكومية تُلَقِّب من يُلقّبه التاريخ الفكري أول صورة معروفة للفكر الإنساني: «المجرم الكافر!...»

للكهنوت حاك السخط، المتغلغل في الخفاء، سحب التذمر الشعبي فثارت في ظروف غامضة مبهمة عواصف ثورة نفسية اندلع لهيبها دخاناً غيّب عنخ آتن، وانحسر عن دين باسم «آتن» هاو، ودين رسمي باسم «آمن ـ رع»!.

ومن جديد طلعت على الوادي أديان الشمس تتناحر ويرفّ من بينها دين رسمي عليه

فُرِض يشترط الإيمان بألوهة الإله الفرد «آمن ـ رع» ـ عاد الدين الطيبيّ وعادت بعودته عقائده وفي الوعي البشريّ رجعت، وبحور محبّ أعيدت جديدة عقيدة التجسّد الإلهي والحلول الإلهي في البشريّ، ففي سجل الزمن سجّلت على نفسها يد الكهنوت الطيبي هذه الكبوة وهي تنقش أن «حور محب»، أيضاً، ابن الإله آمن رع!

هوت المعاول السياسية تعمل هادمة فقوّضت لآتن صرحاً، ولآمن بدأت من جديد لمتناثر الأنقاض تجمع ولم يمض قرابة نصف قرن من الزمن حتى استردّ «آمن» مكانته واستعاد كهنوته قوته، وكأن عنخ آتن كان في جبين الزمن حُلْماً إلاّ من حلقات الفكر المُفكّر والدوائر الثقافية بل من الكليات الكهنوتية نفسها فبالفكرة الجديدة، فكرة المطلق المجرد كان وعي الزمن قد تخضّب فقد أعقبت فترة الثورة فترات تفكير.. وبينما ظلّ العقل الجماعي لا يرى في الرمز والمرموز إلا شيئاً واحداً كان الكهنوت بسائر طوائفه وفروعه المختلفة، رغم تشابكها وتنافرها، قد بدأ ينظر إلى الألوهة كشيء فيما وراء الرمز ـ شيء وراء الشمس.. وما الشمس إلا رمز، وما الرمز إلا محض صورة للحقيقة ـ الغلاف المغلّف لمحتجب الجوهر ـ المظهر الخارجي الذي تظهر به ألوهة مُطْلَق فَرَدْ!...

أجل... بالفرد المطلق ترك عنخ آتن أثراً فإن فكرة استغلال الفكرة سياسياً لآمن قد رأى فيها الكهنوت الطيبيّ وسيلة من أهم الوسائل للاستغلال السياسي وسيلة فعّالة تحمي «آمن» وسلطاناً من مستقبل قد يكون كالماضي عابساً فالاعتلاء «بآمن» إلى الوحدانية المطلقة إعلاء «لآمن»، وهدف يثبت به لدينه سلطاناً من ثم فلينطلق المؤذنون من على الأبراج مرة أخرى يؤذنون في ترديد لما تُسجلّه سجلات العهد، عهد الرعَامسة، وسجلات الرعامسة بأن:

ليس إلا عنخ آتن الإله الأحد وإنما «آمن» هو: «الإله الأحد»!

آمن: هو الإله الفَرْد هو الإله الحيّ!

الإله الحيّ «آمن» اسمان لمسمّى واحد وأقبلت ألوهته القديمة بصورة جديدة فلم يعد الإله إلهاً سيداً وإنما غدا إلهاً أحداً فرداً وحياً أبى الكهنوت الطيبيّ إلا أن يُسيّجه بسياج الأزلية الفردية فتدفقت، في أوائل **الأسرة التاسعة عشرة**، القصائد تُقصّده والأناشيد تنشده:

«لم يأت إلى الوجود إله قبله، ومعه لم يكن إله سواه».

ولتتجنّب أية دعوة بها قد يأتي الكهنوت الشمسيّ في المستقبل، تقول كهانته إنه:

هو رب طيبة الذي ظهر على صفحة الماء، وعليها، لإيجاد الوجود، رفّت منه الروح...

قول يجري على أنغام النشيد منشداً قدسيّ نصوص:

«ظهرت أولاً على وجه الماء لتتمكّن من بداية يا آمن..

ظهر على عرشه حسبما أوحى به قلبه ـ إلهاً واحداً أحداً ليس له أم سمّته ولا والد أنجبه ـ ولا أحد يعرف طبيعته الخفيّة...

إن الإله قد فطر نفسه ولكن صورته غير معروفة.. شمس السماء أشعّتها من محياه!

وإنه: «الأب المقدّس الذي أتى بنفسه إلى الوجود... عظيم القوة ولا شبيه له آخر... الواحد الجبّار خفيّ الشكل... ذو الصُوَر العدّة... ربّ الجميع»!

تعابير حديثة وتعبيرات عن «آمن» جديدة لم تك له لدى القدامى قديماً.. فالصورة منه غير معروفة وشمس السماء لم تعد هي هو وهو هي وإنما غدت أشعّة محيّاه وهذه تعبيرات مستمدّة من التفكير الأخناتني الذي حاربه نفس هذا التفكير الكهنوتي!...

ولكن... إلى جانب هذه التعبيرات لم يستطع الكهنوت التحرّر كامل التحرّر من صِبَغة تفكيره الماديّ، فإلى جانب هذه التعابير تأتي تعابير أخرى هي الهُوِي من المثالية الفكرية إلى الكثافة المادية اللاهوتية التي كانت للألوهة في هذا الوادي قديماً.. فإن «آمن»، وإن يك الخفيّ اللامترائي في المترائي وصورته غير معروفة وأشعة الشمس من نور محياه، فإن صفاته ليست كالصفات التي بها نعته «عنخ آتن» فليس هو الحبّ، ولا هو الرحمة، ولا صفة من صفات الحب والرحمة به تلحق، وإنما... إنما هو: «الجبّار»!

الجبّار الذي سيعيد لمصر المدّ الإمبراطوري للسيادة العالمية هو الراعي لـ «رع ـ موسى الثاني»، الصاعد إلى العرش حوالي هذا العام ١٣٠٠ ق. م، والذي واصل قوياً شنّ الغارات على سوريا محاولاً ترميم ما قد تصدّع من شامخ سياسي البناء ـ هو الراعي له الذي يعاونه في معاركه وحروبه وغزواته، فإنما «آمن»: «رجل حرب»!

أجل... إنه الجبّار الذي: «تهتز الجبال من قمتها ساعة غضبه!. والأرض تزلزل حينما يموج ثائره!... وكل كائن يرتعد منه فزعاً.. إنه الرّب رب الجميع من لا أم له ولا أب... مقامه السماء والرعد صوته... يمدّ يده لمن يحبّه، **يحرق أعداءه بالنار**»!

خليط من ألوان متنافرة جاءت ألوهة «آمن» القديمة جديدة، وفيها تلاقت ألوان القِدَم بالباهت منها والواضح فيها، فكما كان «آمن» قديماً «رجل حرب» أبرزته من جديد جديداً «رجل حرب» واستجابت للظرف، ثم وعلى هذه الأوضاع امتدت فصوّرته مُحباً للدم!

إن «آمن» يطرب لإراقة دماء أعدائه ولمرآها يستمتع، استمتاعه بدماء الضحايا التي تقدّم له قرابين، وبما منها إليه على المذبح المُوقد يتصاعد من الروائح مُحرقات!

هُوِيّ من آفاق المثالية والقيم العلْيا إلى حضيض الغرائز بها قد أتت هذه التصريحات الجديدة كما سجّلتها وجرت بها الأقلام اللاهوتية في هذا العهد الذي إلى جانب أهميته في التاريخ الديني له أيضاً أهمية من الناحية الأدبية، ففيه قد نُسِخ الأدب القديم، وإلى جانب الجديد فيما عرفه العهد من مدارس كان يُدَرَّس.

أجل... هُوِيّ من الآفاق الروحية إلى المادية القاتمة الجافة الخشنة... ومترنّحاً في وهْدتها انساب الصوت الكهنوتي في أرجاء الوادي أصداءً تسّجل انحدار «الواحد الأحد» هذا الانحدار، وطلوعه من جديد، رغم تلقيبه بالخفيّ الشكل والصورة اللامعروفة، على صورة الإنسان وشبهه ومستوياً على عرش!...

قَبِلَ الإدراك الجماعي هذا اللون من الألوهة فمنه قد أرضيت الغرائز أن يتصف الإله بالصفات التي تدركها منه المدارك ويفهمها منه الفَهْم ويعقلها منه العقل ـ قطّ لم يجد غضاضة في الإيمان بألوهة يأتي الوصف عنها أن الإله «رجل حرب» ويستمتع برائحة الدخان المتصاعد من القرابين مخرقات!

بهذا اللون من التفكير الديني لوحدانية تصبغها أقتم ألوان المادية، حشدت سجلات الأسرة التاسعة عشرة نصوصاً خلال حكم «رع موسى الثاني» الذي طوى حكمه فترة من الزمن طويلة تقرب من سبعين عاماً خلالها أعاد لمصر سلطانها السياسي في الخارج فعاد إلى مصر البريق الخاطف الذي جاء إليها بسيول المرتزقة من أهل التجارة وطالبي العمل يترعون الأسواق منها من جديد، وحتى طيبة من الدِلْتا حيث كان يعيش وحيث جعل من «تانيس» مدينة عظيمة إليها يقبل الناس من الغادين للوادي والرائحين عنه عبر ذلك الطريق المطروق منذ فجر التاريخ... وبينما كان العمال من العبريين يُشيّدون له «الرعمسيوم» و«البرتوم»، كانت الأقلام اللاهوتية تدعم صرح هذا الدين الذي يطالعنا من ثنايا تلك النصوص المُدَرّسة في مدارس ذلك العهد وبالأخص في تلك المدرسة اللاهوتية الملحقة بمعبد «الرعمسيوم» حيث إلى جانب الأدب الجديد دُرّس الأدب القديم وطلعت على الوجود به أساطير القُدامى كقصص دينية سيّجها القِدَم فسيّجت بسياج القدسية!...

أجل... عاد دين «آمن» ديناً عبادته الشمس فجاءت من جديد أديان الشمس تتناحر!... عادت أديان الشمس وبعودتها عاد «أوزير» ولكن عن ذي قبل عاد قوياً ـ عاد يكرر للإنسان في هذه الدولة ما قد عرفه في الدولة القديمة... عاد يقول له نفس المعنى القديم بلهجة جديدة إنك أيها الإنسان مكوّن من:

«خات» أو جسم ماديّ.

و«با» أو روح حيوانية.

و«آخ» أو نفس.

ثم.. إن لك إلى جانب ذلك شخصية مستقلة:

«كا» أو القرين «أب» أو عقل.

«سِخِم» أو قوة حيوية.

ثم تحوّل له مُعلّماً.

يُدْفن الجسم حتى «يوم الحشر» وأما الروح والنفس فتزوران بين الفينة والفينة ما ألفته هنا من صحب ومكان.

ولكن! «الكا» لا تعيش إلاّ على ما يُقدّم لها من قرابين بجانب القبر، تقدم لها بها رحمة.

وهكذا حتى «يوم المَعَاد» ونصيب الكل خلود إمّا في جنة أو في نار... إن الخلود لكل إنسان وهذا لم يعد وقفاً على الملك بل إرثاً مشاعاً به يتمتع كل فرد في الدولة ولكن مُحتّم على أتباع «أوزير» التحنيط، على غرار «أوزير»، واتباع كل الشعائر والمراسيم التي أقيمت له.

أثر من هذه العقيدة أن نرى فن التحنيط قد بلغ أوجه في عهد الأسرة الثامنة عشرة وأن نرى الصيغ الجنائزية قد أخذت مظهراً أروع عن ذي قبل، وأجزاء من ملفّات البردي لـ «كتابِ الموتى» تُوضع مع الأكفان في هذا العهد، العهد الطيبي الذي نرى «قصة أوزير» فيه تتشكّل، تبعاً للمجتمع الجديد، بصورة جديدة رسمتها يد مجهولة على حجر مقدس[1] تُصور لنا:

«السورة الثانية لقصة أوزير»

إن «أوزير» حكم الأرض فأترعها خيراً وعدلاً فنال الرضا الإلهي وبذلك اشتعل صدر أخيه «ست» حسداً فقتله!...

وبجانب الجثة جلست «إيزي» في حنان تنتحب، فرقّ لألمها قلب «رع» فأرسل من يتولى الطقوس الجنائزية لأوزير...

جَمَع العِظام وألصق القِطَع الممزّقة ثم أدرج الجثة في لفائف التحنيط وضربت «إيزي»

---

(١) في متحف اللوفر.

الهواء بجناحيها فتحرّك «أوزير» وقام حياً يستهلّ الحياة الجديدة الخالدة التي أضحى بها ملكاً للموتى في عالم الخلود.

وحملت «إيزي» من «أوزير» بعد عودته إلى الحياة الجديدة فهربت بجنينها إلى شمال الدلتا، وهناك وضعت «حور» وربّته في الخفاء... وكبر «حور» واشتدّ ساعده فكان أول شيء إليه اتجه الثأر لأبيه... وتغلّب «حور» على «ست»، وذهبت به «إيزي» إلى محكمة الأرباب... وهناك.

نازعه «ست» في نسبه الشرعيّ إلى أوزير قائلاً: إن أمه قد حملت به بعد موت أوزير!

وعُقدت المحكمة الإلهية وحكم العدل الإلهي بأن «حور» ابن شرعي لأوزير.. وأُعطي ملك أبيه فجلس على عرش مصر المُوحّدة الشمال بالجنوب، ونحوه تدفقت القصائد وارتفع صوت الوادي بقصة هذا الحدث نغماً ينشد:

«لقد ثأر ابن إيزي لأبيه فصار اسمه علماً مرفوعاً..

ما أعظم ما شمل الأرضيين من السلام.. إن الشر ليهرب وإن الإثم لينأى قُضي الأمر واستقرّ عند سيّده العدل.

ليفرح قلبك يا «ون ـ نفر» فإن «ابن إيزي» قد لبس التاج.

لقد نطق بذلك رع وكتبه «تحوت»!..

كتب القلم الإلهي على اللّوح الأمر، فكان لا بدّ له أن يكون!

بالعناصر الجديدة تطلع هذه القصة القديمة، أبرزها هروب «إيزي» بـ «حور» وتربية «حور» في الدلتا ومنازعته النسب الشرعي!..

إلى هذه الصورة تطوّرت أسطورة ملك الموتى، الروح الخَيِّر مَنْ بيده أعمار الناس، فالعمر لأمر أوزير رهين أمر، والوادي لأوزير مملكة والنيل لأوزير بُحيرة ماؤها ببركته مُبارك وبتقديسه مُقدّس..

أجل.. إلى هذه الصورة تطوّرت في غير تحوّل عن الجوهر الأسطورة الأوزيرية بعناصر جديدة بها جاءت وقَبِلَتها عقلية هذا العهد وبها آمنت مذهباً إلى جانب الدين الرسمي للإله الفرد «آمن رع»، الإله الذي بلغ دينه أوجه في عهد الأسرة التاسعة عشرة، العهد الذي فيه نشأت المُوسويّة، ومن ثم فأهم العهود التاريخية في تاريخ الدين القديم!..

إلى هذا العصر يطوي الفكر لجج الأزمان على مطيّة المعاول الأثرية فينتشر له كما كان.. كان ككلّ العصور عصراً متعدّد النواحي.. والمناحي والميول ـ مُخضّباً بشتى الألوان من

الأفكار والعقائد والأوهام ـ فيه صافي الفِكَر وفيه واهي الأوهام، وفيه صحيح وسقيم العقائد والمعتقدات...

ألوان في تنافر تتلاقى وإلينا تأتي بصورة الظلّ فيها أوهامه، والنور فيها الإله النور الذي عاد فعاد دينه رسمياً ينتظمه كهنوت نظّم نفسه إلى درجات خمس أوّلها «أوّاب» وثانيها «الأب المقدّس» ثم ثالثها «نبيّ» يتدرّج في درجة النبوّة من الثالثة إلى الثانية استعداداً للدرجة الأولى التي إذا ما بلغها كان على استعداد لتلقي «هابط الوحي»!

ولكن!... لن يكون نبياً إليه يُوحى وإلى الناس يخرج ليقول: كلمني الإله ولي قال... ما لم تلق باسمه شهرة السحْر!

إن الإله يؤيد «نبيّه» بمعجزات: السِحر!..

أجل... حكم «الوَحْي» مصر القديمة... وسحرها «السِحْر»! للحكم الإلهي كان أبداً الاحتكام... فلم يكن المصري في كل طبقاته الاجتماعية ليُقدِم على إنجاز أمر ما لم إلى المشورة الإلهية يعود عن طريق أخذ الرأي من شفتيّ «رجل الإله» الذي يأتيه الوحي عن طريق حالات وأحوال أولها «المنام» وآخرها «الكلام»...

كم دوّت هياكل معابد الوادي بصوت هابط الوحي؟!

كم ارتجّت المحارب وارتجّ القلب للصوت الصادر من شفتيّ رجال الإله ترجيعاً لصوت الرب الإله؟!

أجل... لقد دوّت هياكل معابد «رع» حيث الحجر المقدّس «بن ـ بن» وبالرنين تجاوبت معابد «فتاح» و«آمن رع» بأصوات لم يتطرّق إلى ذهن الخُشّع إلاّ أنها رجع صدى صوت الإله.!

إلى الذهن الجماعي قطّ لم يتطرّق شك في أمر الوحي الهابط وذلك في كل المراحل التاريخية للوادي، وفي كل المراحل التاريخية كانت نفس الطرق التي استعملت في كل المعابد واحدة ومماثلة تنتهي بقول كلّمني الإله ولي قال... غافل العقل الجماعي عن أن «النبي» سواء أكان لـ «رع»، أم لـ «آمن رع» نبياً إنما السياسي القلب الديني القالب، الذي تقلّب في درجات النبوة لتقبض يده بكلمة «قال الإله» على ناصية الأمر... ومن ومنذا الذي لا يستطيع الائتمار بأمر الإله؟!

أجل... فكرة النبوّة وهابط الوحي فكرة قِدَم الإنسان قديمة وعاها منه الوعي منذ قام يُسجّل في وعي الزمن وعيه للزمن فإن «ساحر القبيلة» الذي حوّلته الحضارة إلى «كاهن» تدرّجت به مراتب الكهنوت حتى النبوّة، لم يتحوّل وإنما قد تطوّر... في أعماقه البذور

القديمة تتفرّع عن أعمال يأتيها لا تتوفّر للمدارك الجماعية إدراكها ومن ثم فإليه تنقاد في تبتّل وخشوع الجماعات!..

أجل... لقد تطوّر العقل الإنساني من ساحر إلى كاهن، وفي درجات الكهنوت تطوّر إلى «نبي» فالنبوة وتلقّي الوحي هي آخر درجات الكهانة، إذا ما بلغها صحّ له أن يستعدّ لتلقّي الوحي فيكون نبياً بيد أنه ما زال الساحر... ما تغيّرت منه السجيّة منذ كان للقبيلة ساحراً عنه للدولة كاهناً.. كانت قبضته على ناصية القبيلة باسم السِحْر تقبض وما زالت قبضته كاهناً باسم السحر أيضاً على قبضة الدولة تقبض!... لقد سَحَر «السِحْر» الدنيا القديمة بيد أن قط لم يسحرها كل هذا السَحْر إلا في هذا العهد، عهد الأُسرة التاسعة عشرة، عهد «رع موسى الثاني»، ففيه كان السِحْر عِلْم العصر!

أجل... عِلْم العصر كان «السِحْر» وكان عنصراً أساسياً جوهرياً للكهانة، والزعامة تُعْقَد لِمَن عُدّ قادراً على إتيانه.. أثر من هذا الأثر أن نرى «خمواس»، الابن الرابع لرع موسى الثاني، يرتفع إلى مكانة ولاية العهد وتمهيداً لاعتلائه العرش يحكم البلاد إلى جانب أبيه ربع قرن كامل من الزمن فيه طبّقت شهرته، كساحر، الآفاق قبل أن تطويه راحة الزمن أميراً وتنشره «ساحراً أكبر» ظلّ حتى الإمبراطورية الرومانية اسمه في آفاق الدنيا يُردّد!

أجل... حكم «الوحي» مصر القديمة وسحرها «السِحْر» كما في كل عهودها ولكن بالأخص في هذا العهد، العهد الطيبيّ، فقد بلغ الأوج في عهد «رع موسى الثاني» من ولع بالبناء وإلى بناء المعابد الجنائزية والإلهية انصرف.. جمّل الوادي ونثر على صفحته التماثيل، وبيد العُمّال من بني إسرائيل بنى «الرعمسيوم» و«البثيوم»، وبنى المعابد الإلهية لتؤدى فيها شعائر الدين الرسمي للإله الفرد «آمن رع» هذه المعابد التي يطالعنا في داخلها، «قدس الأقداس» أو المكان الذي يخرج منه رجل الإله يقول كلّمني الإله ولي قال.. كما أن في داخل هذه المعابد حيث «يتكلم الإله» تطالعنا المظلّة والتابوت الذهبيّ وأحسنه ما كان مصنوعاً من خشب السنْط، والأواني الذهبية والنحاسية الخاصة بطقوس العبادة فدين «آمن رع» دين تستلزم طقوسه هذه الأواني فالدين بين الأديان ماديّ الصبغة مادي التعبير فماديّ النسكْ وماديّ الشعائر والطقوس!

ماديّ يُقدِّم القرابين من اللحم مُريقاً منها الدم.. فالإله الفرد «رجل حرب» يحب الدماء!

الإله يحبّ تقديم المُحْرقات قرابين لينال منها الرائحة، ويحبّ إشعال الشحم منها على موائد القرابين!..

هذا هو الدين الرسمي للوادي لشعب يمتاز بالتديّن وتُميزه التقوى حتى استبعدته الطقوس فحصر فيها اهتمامه وعن الروحانيات انصرف إلى الطهارة الجسدية والصيغ والتلاوة، ويقف كهنوته في تقشّف يستعمل أفخر الأطياب، يلهيه إلى جانب الطقوس تركيب زيت «المسحة المقدسة» لمسح الملوك، هذه المسحة التي كانت تتألف من خمس تركيبات يدخل فيها «قصب الذريرة» والسليخة «القرمة الصينية» والمرّ والزيت!..

ولكن... إلى جانب الاعتقاد العقلي بالدين الرسميّ والاعتقاد القلبي بالمذهب الأوزيري يجيء لون جديد إليه التفت العصر وبه اصطبغ حينما التفت ووضع في قمته «الأدب» فقد عرف هذا العصر «الأدب» ومن ألوانه أترعته ألوان مزيج فيها الجِدّة والقِدَم.. تطالعنا من المدارس التي على صفحة الوادي انتشرت في هذا العهد حيث فيها كان يُعلّم، إلى جانب الأدب الجديد، الأدب القديم، وحيث من بينها تبرز في سجل التاريخ المدرسة اللاهوتية الكبرى التي كانت تابعة لمعبد «الرعمسيوم»...

أجل... على الشاطىء الغربيّ لطيبة حيث كانت هذه المدرسة اللاهوتية أو الجامعة الدينية قائمة تقوم أطلال تلالها آثار ما قد كان فيها يُدرَّس.

على البردّي في صفحات من عَلَّم في هذه المدرسة ومن تعلّم نجد أن المواد التي كانت فيها تُدرّس آداب الدولة القديمة وآداب الدولة الوُسْطى - ففي هذا العصر نُسخت عن البرديات القديمة آداب العصور السابقة كما سُجّلت على برديات جديدة ما كانت تُردّده الألسن عن القدامى من قصص وما عنهم كانت ترويه من روايات.

تطالعنا ألوان الأدب القديم، أدب الدولة القديمة التي كانت تُدرّس في هذه المدرسة تماماً كما ندرس في العربية الآن «المعلّقات»... صافي اللغة غير معتكر لا يشوبه ما يشوب أدب هذه الدولة الحديثة من فطريّ الأسلوب والتعبير ومن ثم نراه يُلْحق بالشرح وبالتفسير ويُكْتب بلهجة عامية، ومنها... من هذه القصص المتداولة العامية الشائعة على الألسن من آثار الدولة القديمة:

«قصة خوفو والسَحَرة»(١)، تلقي هذه القصة أضواءها على طبيعة التفكير الشائع في هذا العصر، فالقصة تجري بأن باني الهرم الأول قد طلب أن يُقصّ عليه بعض ما أتاه مَنْ أوتي «السحر» من معجزات، فيأتي إليه بأولاده الثلاثة، ويبدأ الحديث أكبرهم «خفرع» فيقصّ قصة عن «خَرْحَب أوبأنر»، والحرخب لقب لا يطلق إلاّ على من كان في الجماعة الدينية

(١) Westcar papyrus.

من العلماء، العالم بأسرار الكتب المقدّسة ومن ثم فساحر... فنصغي إلى قصة عهدها عهد «نبقة» ونسمع:

«معجزة انقلاب التمساح شمعاً» انقلاب التمساح شمعاً تقبلها العقلية الجماعية في هذا العصر، وتصدقها كمعجزة حدثت قديماً تصديقها! **«معجزة تحويل العصا إلى حيّة»** كان انقلاب العصا إلى حيّة معجزة المعجزات! كانت هذه «المعجزة» تُمارس في مصر القديمة، فقد كان «الساحر» يدخل فيلقي بعصاه ويأخذ في التمتمة فتتحرك العصا وتنقلب حيّة تسعى...

كان هذا المشهد السحْري يأخذ بألباب اللبّ الجماعي، لا يدري أن عصا الساحر لم تكن إلاّ ذلك النوع من الحيّات الذي يدفن نفسه في باطن الأرض على أعماق كبيرة ويمكث مرحلة على ذلك قد تمتد من الزمن شهوراً وهذا الموت المؤقت توجد عليه في مملكة الحيوان أمثلة كثيرة في الأسماك والحيوانات الثلجية وغيرها إلى جانب هذه الحيّات الدفّانة واسمها العلمي بالتحديد Gongylophis Thebaieus BEULUS فيبحث عنها الممارس ويخرجها، بطريقة الرفاعية، ثم يؤثر عليها تأثيراً مغناطيسياً شديداً بنفس طرق ترويض الحيوان وهي بطبيعة تكوينها سريعة التأثر فتتخشّب تخشباً تاماً، فيعمد إلى ألوان من الطلاء يطليها مُقلّداً شكل العصا ويحملها معه، ويمكن ردّها إلى حالتها الطبيعية وبالعكس في أي وقت دعت إليه الضرورة[١].

هذا هو العمل السّحْرِيّ لمعجزة تحويل العصا إلى حيّة وهذه هي حقيقته العلمية في ضوء العلم الحديث!..

ولكن... العقل الجماعي لم يدرك هذا التفسير فأجمع على أنها خارق معجزة!.. ثم ينهض «بأفرع» ويأتي بقصة أخرى عهدها عهد «سنفرو» ومحورها «حرخب زازا ـ م ـ عنخ» فنصغي إلى: «معجزة انشقاق الماء».

أمام «سنفْرو» أتى «زازا» بهذه المعجزة فقد وقف وأمرَّ يده على الماء آمراً الماء بالانشقاق فافترع النهر وانشقّت المياه!

ثم ينهض «حورددف» لنصغي إلى:

«معجزة رد الحياة إلى الطير»

حتى الآن قد قُصَّ عليكم ما يُقال إنه قد وقع في عهد السلف وسلف السلف وليس من

---

(١) **الإيحاء الذاتي**، رمزي مفتاح.

شيء يُؤيدها ويثبتها كحقيقة وقد تكون محض رواية ووهم حاكه الاختلاق... ولكن لدينا في هذا العهد وحيّ بيننا ما زال «حَرْخب دِدِي» من يتبعه السبع الضاري دون تردّد، ومن له المقدرة على إعادة الحياة...

وتستطرد القصّة وبعد تفاصيل طويلة تقول: أن جيء بدِدِي وجيء إليه بطير، ففصل الرأس عن الجسد ثم نادى الطير فعاد يسعى حيّاً!

أجل... هذه بعض القصص التي كانت شائعة في هذا العصر وإليها منه ترهف المسامع يعتبرها معجزات!...

وإلى جانب هذه القصة من قصص الدولة القديمة تأتي من قصص الدولة الوسطى: «قصة سي - نوح».

من طبيعة مغايرة للقصص الأولى تأتي هذه القصة ليس فيها إعجاز ومعجزات وإنما تتحدث عن «سي - نوح» الذي عاش في الدولة الوسطى في عهد «أمنهات» (١٩٦٥ - ١٩٩٥ ق.م) فتجعل منه بطلاً من أبطال المشاق والسفر الطويل[١] حتى أصبح اسمه علماً على الاغتراب وامتطاء مطية الصعاب وركوب مركب سفينته الأمواج!

وإلى جانب هذه القصص من الدولة القديمة والدولة الوسطى تأتي قصص من نفس الدولة الحديثة لهذا العهد ومن بينها قصة كانت من أحسن القصص لديهم، ما سمعها سامع إلا وكان يأسف على الأخ الأصغر فالقصة: «قصة الأخوين»[٢].

كان «أنبو» الأخ الأكبر - وكان «بطة» الأخ الأصغر وكان جميلاً وفتياً.. كفله أخوه وأحسن مثواه حتى كان يوم ذهب فيه إلى الحقل، وكان أن أرسل «أنبو» بأخيه الأصغر إلى الدار ليأتيه ببعض البذور، فذهب.. ولكن!

حدث ما لم يخطر بالبال، فهناك وجد زوجة أخيه التي ما رأته وحيداً إلا وأقبلت عليه، وراسفة في قيد الغرائز روادته عن نفسها فأفلت منها صائحاً: معاذ اللّه! إنه كأبي وقد أحسن مثواي.. أية فاحشة هذه التي عليها تحرضين؟!

وتستطرد القصة فتقول إنه لما عاد الأخ الأكبر إلى داره مساءً، لقيت الزوجة سيدها بالباب قائلة: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُقتل! واللّه لئن لم تقتله لأقتلن نفسي فلقد انتهك لك حرمة وعن نفسي راودني!

---

(١) Notes on the Story of Si-Nouhe, By A.Gradinier. Literature of Ancient Egypt, By A.Erman.

(٢) Papyrus d'rbinier British Museuem.

وهنا تستطرد القصة بحديث طويل، فالقصة طويلة مملّة تستغرق صفحات، تحدث عما قد لاقاه «بطة» من العذاب ومن الوحدة القانطة المملّة كما لاقى من التشريد صنوفاً حتى رقّ له قلب الإله فأمر فخُلقت له امرأة لتؤنسه... يصيح فيها الشباب!

أجل... هكذا تجري القصة وتختتم أحداثها بين مساء يمسي وصباح يصبح حتى يكون صباح يوم سادس فتظهر الحقيقة ويتصافى الأخوان ويجازي اللّه الأخ الأصغر بعرش فيصبح عزيز مصر!

وإلى جانب هذه القصص قصص أخرى أهمها:

«قصة نهاية العالم»

هذه قصة سادت العصور الثلاثة، شبيهة كل الشبه بقصة «الطوفان البابلي» التي تقص كيف أن الرب قد ندم على خلقه الإنسان لما رأى من الشر في قلبه فأراد إبادته من الأرض فأرسل عليه الدمار ولكن لما رأى الرب كل هذا الدمار ندم على فعله الشر بالإنسان.

هذه القصة الصبيانية من عمل العقل الإنساني صبياً، فهذا خيال نراه تحت أضواء علم النفس عبث صبية! خيال صبي تخيّل الإله يغضب وينزل الشر، ثم يعود فيندم على ما أنزل من شر!

ولكن حفّت هذه القصة بالقدسية وحفّها من القلب الجماعي الإيمان، فقد اهتمّ المصريّ القديم بأنواع الأدب القصصي ووضعت القصة لتناسب ميول العامة ـ إلى أن بجانب هذه القصص وسواها مما كان يُدرّس في مدارس الأسرة التاسعة عشرة، حول سنة ١٣٠٠ ق.م. ومن ضمنها هذه الجامعة اللاهوتية، ألوان أخرى من الأدب النصائحي والتأملي والتهذيبي ـ ألوان نراها في آفاق العصر مصادرها شتّى.

من الأسرة الثالثة حول سنة ٢٩٨٠ ق.م، إلى الأسرة التاسعة عشرة حول سنة ١٣٠٠ ق.م يرسل «كاجمنه» وصاياه في لون من الأدب النصائحي، وصوته في أرجاء الوادي يتجاوب أصداؤه عنه تردد أن «كاجمنه» يقول:

«هذا كتابي إليكم فاعملوا بما فيه كأنكم تسمعونه مني اتّبعوا الصدق والطهر وإياكم والجهل والخمر»[١].

ومن الأسرة الخامسة حول سنة ٢٧٠٠ ق.م يأتي صوت «حبيب اللّه فتاح ـ حتب»،

---

(١) **الحضارة القديمة**، أحمد كامل (باشا).

وحبيب اللّه لقب من ألقاب الامتياز في الكهانة معروف، عبر صفحات كتابه «سفر الأمثال» مدوياً في أرجاء الأسرة التاسعة عشرة بلون من الأدب التهذيبي، في مدارسها تدرّس حِكَمه كأحكام تعطى للسلوك، وأمثاله تضرب كأمثال للأخلاق، تقول: قال «حبيب اللّه فتاح حتبْ» أنْ:

«احرص على الصدق فإنه لجميل وإن قيمته لخالدة، والذي يخطّي نواميسه يُعَاقَب... إن الصدق أمان للضال كالطريق المستقيم..

أجل... إن الفحش يُكسب الثروة ولكن لا شيء خالد كالاستقامة! استمعوا إليّ إن اللّه يحب من يسمع»[١].

ومن العهد الإقطاعي، بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، إلى الدولة الحديثة يأتي لون آخر من الأدب القديم له نفس الأهمية، وُجد في الصفحات التي تركتها تلك المدارس المنتشرة التي تحملنا إلى عهدها آثارها فتهبّ من روح ذلك العصر وطبيعة تفكيره وخلقه هبّات على أجنحة صوت في أرجائه يُدوّي إن هذه «وصايا دوّاف»[٢].

لقد أوصى «دُوّاف» ابنه «حخيتي» قائلاً:

«لا تكن مُفترياً فلقد رأيت أن المفْتري إنما على نفسه يَفْتَري»!

ومن الأسرة العاشرة يطالعنا في الدولة الحديثة أيضاً لون جديد في «وصايا ختى» لـ «مري كارع» إذ يطالعنا فيها مُسَجلاً قانون «المثْل بالمثْل» وفي وعي الزمن يُعاد ويُكرر أن الإنسان قد خُلق على صورة الإله فممّا فيها:

«إن اللّه لا تخفى عليه خافية... إنه يعلم مَنْ المتمرّد ومَنْ الظالم ومَنْ المظلوم... ولكن اللّه يطلب الخطيئة بالدّم! فكن عادلاً وتقياً إن اللّه بالسرائر عليم وافعل الشيء الذي يجب أن يكون لك لأن اللّه سيكافئك بالمثْل!

إن الإنسان صورة اللّه وشبهه.. لقد خلق له الأنعام والنعم والأرض والهواء ولكنه أيضاً شديد العقاب!».

بجانب هذه الألوان هناك ألوان أخرى يطالعنا بها هذا العصر كقصص تقصّ سير القدامى والتنبؤات التي كانت تردّدها الألسن ثم تكتب وتنسخ مها الصور ثم تدخل في

(١) Papyrus Prisse.

(٢) Papyrus Sallier & Anastasi.

مادة التدريس في المدارس فمنها ما به قد مررنا من نبوءة «أبويّ» وإنذاره الجالس على العرش بأن النهر سيستحيل دما[١].

ولكن... هذه القصص عن التنبؤات يطالعنا من ورائها شيء آخر.. يطالعنا لون نرى فيه كيف كانت بعض القصص تحاك وتُنسب أقوالها إلى القدامى.. كيف كانت الأقاصيص عن القدامى تقصّ وأسماؤها تلحق ألوان من المعجزات والنبوءات.. مثلاً «تنبؤات نفر رع»[٢] فقد كتبت هذه البرديّة في الدولة الحديثة في عهد «تحوت موسى الثالث» وكانت من القطع المحبوبة في عهد الدولة الحديثة، فعن المجد التليد تجري قائلة: ان قبل أن تبنى الأهرامات... نادى «سنفرو» إليه «حرخب نفر رع» وسأله عمّا تطالعه به مطالع الأيام؟ فقال إني لأرى في الأفق البعيد الآسيويين يقتحمون حرمة البلاد فأراها في أبأس حالات البؤس.. وستنقلب الأوضاع.. ولكن أرى ملكاً يأتي من الجنوب باسم أميني «تقصير أمنحوتب» ابن نوبية ووليد مصر العليا.. سيتلقى جبينة التاج الأبيض والأحمر.. سيوحّد الأرضين وينشر السلام فطوبى لكم يا أبناء ذلك الزمن فلقد **أتى «ابن الإنسان»**.

تلك كانت روح العصر تطالعنا من آداب ما سجّلته ونسخته النصوص وما نُسِخَت النصوص إلاّ لأن للكلمة المكتوبة طابع قدسيّة ولا سيما إذا كان بالهيروغليفية فعند ذلك يُصاحبها أمر «لا تدر ظهرك لكلام اللّه!».

أجل... إن «كلام اللّه» هو ما كان يُعرفُ بالنصوص الهيروغليفية ومن ثم كانت نصوصاً مقدّسة وما النصوص المقدسة إلا تلك التي سطّرتها يد الكهنوت ثم غلفتها القرون بأغلفة القِدَم. ومن هذه النصوص المقدّسة يطالعنا شيء مما كان يُدرّس في تلك الجامعة اللاهوتية الملحقة بالرعمسيوم:

«الخمر! إن الخمر لمنكر.. إنها تبعث بالروح إلى الفناء» الخمر؟

ولكن... الخمر، في المذهب الأوزيريّ، للمتقين والأبرار في الجنّة الجزاء؟!

أيسأل سائل: كيف يكون الباعث بالروح إلى الفناء، جزاء للروح في الآخرة؟!

لو طاف ببال أحدهم هذا السؤال لهانت في ناظريه عقيدة مذهبية تجعل أم الفواحش جزاء في الجنة لمن عزف عنها وكان في دنياه تقيّاً.

ولكن...! من ثنايا البرديّات وصفائح القبور وتلال الأطلال تهبّ روح العصر عليلة تُحدّث:

---

(١) Leyden Museum.

(٢) Papyrus Gardinier.

إن الدين كان الدين وإن التفكير كان التفكير في هذا العهد الذي بدأت يد الزمن فيه من جديد تتحرّك فتطوي «رع موسى الثاني». وتنشر «منفتاح الأول» فتنشر له عهداً لا يكاد ينتشر حتى نلمح في مسير الأيام ضمير الزمن، فيده بخضاب الغروب لآفاق الوادي بدأت تُخضّب.

هذه رياح الحدثان عاصفة في الخارج تهبّ... دويّها ينساب في الوادي ترجيعاً لألسن متباينة لشعوب مختلفة وقبائل من الحضر والبدو من بينها القبيلة العبرية التي عملت بعض طوائفها فيما قد شاد «رع موسى الثاني» من أبنية وفي بناء الرعمسيوم.. هذه القبيلة العبرية تشق عصا الطاعة وتتألب، تألب من في الخارج..

من سجلات طيبة بين أطلال معبد «منفتاح» ينساب صوت التاريخ يُحَدّث بأن «منفتاح»، قد أخمد ثورة الثائرين ـ انتصر على ليبيا ـ حطّم كنعان ـ أسر عسقلان ـ قيّد جذير ـ ودمّر إسرائيل!

ولكن.. عن سنة الكون المحتومة بغروب بعد شروق لم يحُلْ انتصار الوادي على الثائرين في الخارج عن أن يبدأ المجد السياسي للوادي في التهاوي، فهذه أسرة تقفو أسرة وكأن عهودها ساعات ما قبل الغروب!.. ساعات عصر كان للوادي إعصاراً اعتصره وأثار في أجوائه ألواناً من الانقباض فاجتاحت الوادي حالة من حالات الانقباض النفسي... وفي حالة الانقباض النفسي لا يعمل العقل بقدر ما يعمل القلب! يهجع العقل ويكف عن تلمّسه النور في المعرفة فالقلب قد بادر بالعمل يتلمّس الراحة ينشدها في إيمان الآباء ولو غلّف هذا الإيمان الوهم، ومن ثم نرى اشتداد الميل إلى ملك الخلود ليطالعنا:

المذهب الأوزيري وأديان الشمس في مشرق المغيب

على «بردية آني» من الأسرة الثانية والعشرين نرى «أوزير» في مشرق المغيب كما كانت في مشرق الشروق «مَلِك الموتى» و«السيّد الشهيد».. كلّ ما ينص به المذهب الأوزيري إنّما على هذه البردية منصوص، فعليها مسجلة الآية المائة والخامسة والعشرون من ذلك الكتاب الذي ألّفته تتابع الآيات فكان سِفراً تحدر على الأجيال بالقدسية محفوفاً وسجلاً للعقل يُبيّن مراحل تفكيره في عهود امتدّت من الأسرة الأولى إلى الأسرات المتعاقبة.. ومراحل هذا التطوّر أمامنا، منشورة على جدران المتحف المصري عبر الصفحات من هذا الكتاب، «كتاب الموتى» أو «سفر الشريعة الأوزيرية».

من أمام هذه الصفحات نمر فتمرّ من أمامنا الأجيال وفي انتشار تُطْوَى بعد الأزمان الأزمان، وفي تفرّع تتشابك فروع التفكير في تعقّد عجيب!.. ألوان متنافرة لعقائد متنافرة تأتي بها، في كتاب واحد، آيات لا يمكن الجمع بينها في آن.

ولكن.. الشيء الوحيد المستخلص من هذا الاستعراض هو أن العقل الجماعي في هذه الفترة من الزمن قد تشابكت في غير تصادم في أفقه عقائد متنافرة الألوان فَلَمْ يلتفت إلى هذا التنافر والخلط العجيب في الآي وإنما لها قدّس وبها تبارك وعلى صفائح القبور ولفائف الأكفان وجدران المعابد راحت في غمرة الإيمان يده لها تنقش.. وهكذا راح خلف عن سلف يأخذها، فأخذها على علاّتها عليلة وعلى سقمها سقيمه، غافياً عن حقيقة العقيدة وأسبابها وأنها لم تك إلا أداة أدّت للسياسة أغراض السيادة وغاياتها ـ غافلاً عنها عقيدة بها جاء العقل الإنساني يافعاً ثم تطوّر فتركها.. تركها للعقل الجماعي الذي تشبّث بها وبها آمن كحقيقة خالدة حتى لديه أضحى جفوها للإيمان جفواً!

أجل... إن في هذا الكتاب ما يدعو إلى البحث والاستيعاب وشيء من التركيز الفكري، والتمحيص دون تحيّز إلى عقيدة دون عقيدة..

ولكن!.. عن حقيقتها عقائد كانت في يد قادة الجماعات للجماعات قيداً غفا العقل الجماعي وعلى الإيمان بها انصرف فانصرف عن الالتفات إلاّ إلى ما يطرب منها منه الحواس ـ حسبه أن الآيات تُتلى نغماً وتُرتّل ترتيلاً وأن المقرئين يُشنّفون منه المسامع ويُنغْمون النصوص أنغاماً، مختارين من الآي ما يناسب كل مناسبة... ومن ثم يطغى ساحر النغم على المعنى!..

صفة للعقل الجماعي تتجلّى في عدم المقدرة على أن ينظر نظرة جامعة شاملة لعقائده التي يُفني ذاته في الدفاع عنها وتلهبه الحمية الدينية لأي دين وجد نفسه في أحضانه وليداً! يجنّ به جنون التعصّب لأي دين وجد نفسه له وريثاً فيراه دون سائر الأديان الدين الحق.. لقد وجد آباءهُ يجلّون ويقدّسون فلم يسألهم ولم يتساءل لم أجلّوا ولم قدسوا... وجدهم يجلون فأجلّ!.. وجدهم يقدسون.. فقدّس!

الحال كانت الحال ويد الزمن تُحوِّل الوادي من حال إلى حال وفي سجّل التاريخ تمتد وتسطر اختتاماً لتاريخ المجد السياسي للوادي ليأتينا في زفر الغروب صوت الزمن متهافتاً يُحدّث:

لقد طافت على الوادي من الأديان أديان اتخذت محوراً عبادة الإله «الخالق» كلها رسخت في الوعي الزمني كهذا الدين القائم حتى المغيب باسم «آمن» في تشبث بـ «رع» وكالعقيدة الأوزيرية التي تهبّ منها النسائم قوية ونسائم الغروب عليلة تهبّ وبلهبها تتوهّج الآفاق وأفق الوادي بغسق الغروب يخضبّ تهمس: إنها كالنيل!

كالنيل الجاري الجارف جرى «أوزير» جارفاً العقائد والمعتقدات ـ ضمّ أطراف الوادي من سَحَرِه حتى الغروب بوحدة عقيدية.

أجل... لم يكن للوادي وحدة دينية، وقصر لاهوته في كل فروعه عن أن يكون له منهج ديني مرسوم، ولكن لئن لم تك له هذه الوحدة الدينية فإنه من الواضح اليقينيّ الذي لا شك فيه كانت له وحدة عقيدية مذهبية وشريعة محورها أوزير ـ فإذا كان قد كان للوادي دين رسمي يقوم بقيام إله المقاطعة السائدة ويهوي بهويه، فإنه قد كان له بأوزير دين قلبي اجترف الأديان الرسمية وسادها سيادة أبت أن يغرب بغروب شمس المجد السياسي للوادي لها شمس.

كلا! لم يغرب بغروب الغروب «عذرا» أو عذير» أو «أوزير» بل في أفق غروب سياسي أخذت غلائله على الوادي تنسدل ولأطرافه تغلّ بأغلال ليبية فنوبية ففارسية فإغريقية فرومانية.. كان أوزير يمد ظلّه على أمجاد المجد القديم. ولكن! في لباس جديد... فنحن نرى «أوزير» في هذه الفترة من تاريخ الغروب السياسي بصورة جديدة استغرق تصويرها فترة زمنية امتدت من القرن الثامن إلى الخامس ق.م ـ الفترة التي اغترفت الأيدي الدخيلة فيها ماء النيل ورشفته منها الشفاه رضاباً راحت بخمره ثملة تتحدّث عنه، وبأيدي هومير وبلوتارك وديودور الصقلي تسطّر أساطير واديه... ففي هذه الفترة من الزمن نرى القصة الأوزيرية قد تطورت تقول:

«إنه لما وُلِد أُوزيريس ارتفع صوت من معبد آمن يُبّشر العالم بأن: قد جاء «**السيد**».

وأن قد دوى المعبد بهتاف:

«إن أوزيريس الملك العظيم والمحسن للكون قد وُلد»!

«لما ولّي أُوزيريس عرش مصر لم يكن الوادي بعد متحضّراً وإنما كان على الحالة الهمجية فأرشده أوزيريس إلى الصلاح وعلّمه الزرع والضرع وعلّمته إيزيس صنع الخبز.. ومنذ ذلك الوقت كفّ أهل الوادي عن افتراس بعضهم بعضاً وانتقلوا من طور الهمجية إلى طور الحضارة.. وعصر أوزيريس العنب وصنع خمراً رشف منها أول كأس.. وصنع من الشعير جُعة ونهل منها أول كوبة.. وعلّم أوزيريس الوادي ووضع له القوانين، وعاونه في عمله تحوت الذي استنبط الكتابة وبثّ العلوم والفنون وحبّب إلى الوادي الموسيقى وعلمه علم الفلك، فحسد له أخوه النِعَم وقتله!

وعندما قَتَل «ست» «أوزيريس» ألقاه في اليمّ في تابوت وحمله الموج إلى فينيقيا ثم قذفه إلى الشاطىء من أمام «بيلوس» وما تكاد الأرض تتلقاه حتى أنبت اللّه من فوقه شجرة!

ثم تستطرد القصة استطرادها القديم عن بعث أوزير وعودته إلى الحياة وتُعيد في وعي الزمن ما قد سُطر قديماً وتتمثّل من جديد الرواية القديمة جديدة تجري على صفحة المخيّلة

الإنسانية منها الأحداث تُصوّر أوزير يقوم بعد الموت حياً بجسده كما من قبل قد كان ـ وتصوّر إيزي تهرب بجنينها من مكان إلى مكان ـ وتصوّر ميلاد المخلِّص الذي حنت عليه البقرة وأرضعته بين أحراش وقشّ الدلتا!

أجل... لم يغرب بغروب الغروب السياسي أوزير وإنما أمدّ ظلّه على الألوان الدخيلة التي مرت بها على الوادي من السياسات الاستعمارية فترات...

لهذه الفترات من التاريخ أهمية في تاريخ التفكير الديني وبالأخص الفترة الأخيرة منها التي تبدأ بالاحتلال الفارسي وعهد هذا الاحتلال حديث لنا نسبياً وعن فجر الوادي نسبياً بعيد فقد احتلّ الفرس الوادي في منتصف القرن السابع ق.م بسواعد جنود سخّرت من أيونيا وسائر بقاع الإغريق، ومن الإغريق الذين طاب لهم منذ ذاك العهد في هذا الوادي المقام فاستقروا فيه قبل أن يحتلوه... ففي هذه الفترة من الزمن وتحت الظلّ الفارسي، حنّ القلب المصري إلى الماضي حتى ألهبه جنون الذكرى فأقبل على الماضي يروي غلته بابتعاثه!... بدأت نفحات الماضي من الأدب القديم والمتوسط والحديث تعبق في آفاق الجو الجديد، وفي تضوّع يطوف في أرجائه من عبير الماضي عبير وكأن الوعي الزمني خشي على التراث الإنساني من النسيان فاستذكره بإعادة ذكراه..

ولكن... أثمله عبير القدم فَغَالى! في تلهّف احتضن القلب المصري القديم والجديد ومن ثم يطالعنا التفكير الديني للوادي في ظلال الحكم الفارسي مزيجاً وخليطاً واللون منه مغاير للون القديم..

أجل... ظلّ الإله الواحد، الأحد الفرد، وظلّت هاتان الكهانتان، اللتان تمثلان في سجل التاريخ اللاهوتي في هذا الوادي قطبيّ التفكير الإلهي والديني، تتنازعان الفردية لإله كل منهما تراه كائناً في اسم ما قد عرفت في فجر التاريخ من إله وعلى الموضوع تتناحران في صُور الشكليات.. بيد أن أهم ما يطالعنا في هذه الفترة الزمنية من تاريخ التفكير الديني لون ألوهة تطلع في غَسَق الغروب ابتعثها من سحيق القدم اللاهوت الشمسي غداة أحاطت طوائفه، «قمبيز» صاعداً العرش تومىء إليه:

إن عليه أن يُقَدِّم فروض الولاء لربّه منذ سَحَر التاريخ يعرفها الوادي باسم: «نيث».

إن «نيث» ربة عذراء أتت بـ «رع» الإله الشمس فهي أم الإله![1].

(١) Egypt, By W.Budge.

إلى بعث جديد لنفسه عن طريق عبادة «نيث» هدف اللاهوت الشمسي من جديد وإلى هدف سياديّ ينحصر في امتلاك ناصية الوادي سياسياً عن طريق إرضاء الكهنوت القائم واكتسابه إليه هدف قمبيز.. فأية مغبّة ينالها، وأي ضرر يضيره من أن يُصْلح للربة العذراء، أم الإله، متهدم معبد؟

وانسابت من معبد «أم الإله» الصلاة في أسماع الوادي بما فيه من عناصر دخيلة تصيب منه القلب بنغم يتضوّع من أريجه عبير الطهر ـ نغمٌ عبر الأكف المرفوعة والجفون المُسبلة ينساب من الشفاه همساً يرجّ الأرجاء رجّاً في ابتهال وتضرّع ورجاء منادياً:

«السيدة العذراء أم الإله»!

أجل... إلى «السيدة العذراء أم الإله» تحوّل انتباه الوادي بمن فيه من عناصر دخيلة في هذه الفترة الزمنية الزاخرة بالإغريق وإليها ظلّ في انتباه متحولاً والزمن المرتحل به يرتحل، وظلال بعد ظلال على الوادي يترامى حتى ترامى عليه ظلال العصر الهيلليني الروماني وغربت تماماً للوادي شمس مجده السياسي..

مُتهافتة في غسق المغيب تهبّ نسائم الغروب مُحدِّثة بأن العقل الإنساني وهو يرتقي مدارج العمر في هذا الوادي قد توهّم!

توهّم إلهاً على شبهه الإنساني فخلع عليه من صفاته البشرية صفات! صوّر الإله رجلاً فطبعه بالعنصرية وقيّده بالجسّدية!

وأسكن الإله السماء فجعله في أسر المكان والزمان!

وأجلس الإله على عرش، وأقام العرش على الماء، فأكد لنفسه وهماً على وهم! وأراق للإله الدم وإليه رفع القرابين وأطلق دخانها رائحة سرور محرقات!

وتوهّم!.. توهّم ربة عذراء جعلها أم الإله وامتزجت في غسق الغروب منها الصورة بالرّبة الأخرى حاملة الطفل الإلهي «حور» الواقفة على هلال: «إيزي»!

وتوهّم!... توهّم فانسلّ الإله وجعل له ولداً يطلع في أفق الغروب السياسي تحت ألوان متنافرة الصفات فهو:

«الروحُ القُدُس»

و«الكلمة»

و«ابن الإله»

بل فيه تتلاقى صورة «الشهيد» و«المخُلِّص» الذي قام من بين الموتى حياً، وحياً ليحكم،

رفعه اللّه إلى السماء!

أجل... هذه كانت الحال ويد الزمن تُحوّل الوادي من حال إلى حال وبالألوان الليبيّة فالنوبيّة فالفارسية فالإغريقية فالرومانية تخضّب منه بغسق الغروب الآفاق...

ولكن... بين هذه الألوان من فجر الليل يقف «أوزير» أوضح منه عن ذي قبل فعقيدته بلسم للقلب المكلوم بما تمنحه من طمأنينة إلى حياة ثانية أفضل من هذه الحياة ليس فيها من متاعبها متاعب ولا من أتراحها أتراح، حياة طبيعتها فرح في جنّة أرضها ذهب...

وبجانب أوزير تقف «إيزي» يستنشر ظلّها ويمتزج منها الشبه بالسيدة العذراء أم الإله... فضاء الغروب قماش ترتسم عليه صورتها واقفة على هلال بين إطار من نجم الغروب، حاملة الطفل الإلهي حورس، روح اللّه، الكلمة، المخلّص البشر المانح البشرية الخلود!...

أوهام!... توهّمها العقل الإنساني واعتبرها حقائق وهو بالتفكير الإلهي يُسجّل له تفكيراً فكوّنت ما قد كان من أديان.. أوهام جاءت بدين بعد دين وبمذهب انحصرت عقيدته في أوهام البعث الجسدي في قيامة ويوم حشر وميزان يُنصب وجنة ونار وكتاب في يمين وكتاب في شمال... أديان!.. أديان بها دان العقل في هذا الوادي مذ صابحه الفجر حتى ماساه الغروب!

الفصل الثاني

الدين عند الكلدان والسومريين والبابليين

الدين عند الكلدان

بين غلاف من الرمال تنتشر صفحات سفر الدين في هذا الوادي الذي كوّنه الرافدان فكوّن به «جنّات عدن»... الجنات التي أنشأها ذلك الفرع الأصفر العنصر غداة انسلاخه عن غيره من الفروع الممتدة من الشمال الشرقي من جبال أواسط آسيا وهبوطه في غسق الألف الخامس ق.م هذه البقاع التي إليها سعى به السعي وراء العيش وفيها بعد طويل ارتحل حواه الاستقرار. استقرّ يتعهّد شائك الجمال وإلى تهذيب يُحيل توحشه بأيدي من به قد التقى على هذه البقاع من فروع ذلك الأصل السامي العنصر الذي هبط من أقاصي الشمال من سفوح الـ «برز» ومعتليات «أورأرتو» وشواطىء البحر الأسود وتخوم القوقاز مَنْ مثله إلى هذه البقاع قد دفعت به دوافع العيش وحتى الجنوب منها مُذ ليل التاريخ قد اجتذبه الخصب الخصيب فله قد استعبد العنصر الأصفر، وعبداً، أعاشه في (العُبِيّد) ذلك النجع المنخفض من الأرض، بينما عنه قد انصرف إلى الأنجاد ينشىء عليها المدن وينشىء لمدنه عاصمة «أور»... مدينة من أطلالها يطل الماضي على الحاضر محدّثاً، إن منها أطلّ العنصر البازغ يستعرض الجمال الذي تعهّد توحشه وحوّل كل «جين»[1] من الأرض فيه إلى قطعة من جمال مهذب... فتجمّعت في عينيه «الجنان» تجمّعاً تبدّت فيه منحة من الإله فبدأت تُكوّن بين شفتيه كلمة: «جنات عدن»!..[2]

---

(١) كلمة «جين» بابلية تعني رقعة من الأرض مقدارها ثمانية عشر قدماً.

(٢) «عدن» أو «أودن» معناها «السيد» وصفة هي عرفة تحتها رب السماء بين الرافدين. The Worlds: Earliestlaws, By ch.Edwaards.

كل ما في هذه البقاع فَنِعَم حتى ناعم هذا السبسب ورقيق هذا الصلصال الذي يدفع به حبه الكتابة إلى ترقيقه إلى صفائح عليها أجرى قلمه الغابيّ بلغة بها معه أتى... وجرى القلم المسماريّ على الصحف الصلصالية يُؤسس بين الرافدين صرح الكلمة المكتوبة ويقيم قوائم الفن الناطق.. جرى، إلى جانب السامية المطوي فيها للعبرية والعربية أصول، سامرياً يسجل شرائعه وقوانينه، ويطبع من صور الحياة في تلك الأيام صوراً.. صوراً متشابهة فعلى منوال مماثل صارت حركة الأجيال وسارت بركب الأجيال الأيام بين تشييد بناء وللأرض تعهد، وبناء سدود خشية فورة الفُرات فللفرات فيض وللفرات فيضان!..

بهذا الحديث يحدثنا القلم المسماري أن هكذا سارت من الأجيال أجيال حتى إشراق التاريخ بمدّ الفرات.. ودوّي هديره إنه: الطوفان!

في الذهن الساميّ دوّي مدّ الفرات طوفاناً وكان هديره فيه عميق الأثر بل وفي الوعي السامري حفر هديره أيضاً أثراً بصبغة مماثلة فقد اتخذته اليد السامرية محوراً لقصة حفّتها بالقدسية بها طلعت على دنيا الدين «أسطورة الطوفان»!... كما سجّلته حدثاً طبيعياً نجت منه هي ومنه سلمت مدنها ولدنياها أفسح الدنيا...

وبمدّ الفرات بدأت بين الرافدين رواية العقل البشري لتروي لنا رواية الدين باهتة غامضة مبهمة من رواية الدين أولى السطور.. أبهتها حول الشمس دورات بضعة آلاف قاربت السبع!

ولكن..! لئن على السطور الأولى من المقدمة أسفت يد الزمن أكداس الرمال، وبطيات النسيان طوتها، فبعد باهت المقدمة تنشر منها الصفحة الأولى وبعد مغلق سكون تهب من أنفاسها روح ذلك الفرع الأصفر الذي أتى بحضارته كاملة غداة على الزمن طلع باسم: «سومير».

تهبّ روح «سومير» قوية تعيد الماضي جديداً.. تعيده كما كان وكما فيه كانت.. فينتشر لنا:

الدين السامري

منذ فار الفرات وفاض، ومنذ عاد جذراً وبدأت تنتشر على ضفتيه أور وبابل وإسين ولارسام للإمبراطورية السامرية الأولى من المدن مراكز و«أوروك» عاصمة دينية، ينحسر من ثنايا التاريخ الطالع وأضواء الفجر المُسفر للتاريخ السياسي، تاريخ الدين..

كالسحر على ضفاف النيل، على ضفاف الفرات كان السحر!

سجّل العقل الإنساني بين الرافدين ما قد كان في نفس الآن يسجله على ضفاف النيل

ذلك العهد العهيد فخضّب بخضاب الألوهة مَنْ مِن البشر قد رهب أو أحبّ.

وكما في مصر.. ألّه من مظاهر الطبيعة ما قد غمّض عليه من ظواهرها.

ولكن... تلك لمحات من السَحَر المُولي يُغيبها الفجر الطالع وتطويها أضواؤه في حواشيه، فلا يغدو لها في تاريخ التفكير الدينيّ بين الرافدين إلا العرض أما المحور فتراه يطلع بمطلع الفجر: إله السماء: «أنو» محور، به يطالعنا:

التفكير الديني في اللاهوت السامري

في عهد مُبكِّر من التاريخ السامريّ تُباكرنا فكرة «الواحد»، الباسط الأرض الرافع السماء والمستوي في الماء على عرش...

وليباكرنا «واحد» في ثالوث وثالوث في واحد فإن على أسس التفكير في الطبيعة وما بعد الطبيعة بني الدين.. فالعقل الإنساني يُعيد الطبيعة أو نشأة الوجود إلى «الماء» وعلى هذا الأساس يواصل تفكيره فيقول إن من «الماء الأزلي» وُجد الواحد.. وُجد المبدأ السرّي وتكوّنت وحدانيته في وحدة خلت إلا من الخواء وإلا من روحه التي كانت ترف على وجه المياه..

كان «الواحد» سراً خفياً فأراد الخروج من وحدته، أراد أن يُعرف وتكون معرِفة.. أراد أن تكون كائنات ويكون كوناً فخرج من خفائه وانتشر في صفات رئيسية ثلاث:

فهو: بصفته الخفية «أنا».

وبصفته كخالق الأرض والسماء «أنليل».

وبصفته إله المعرفة «عين ـ كي».

بهذه الألوهة الطبيعية لخفيّ منتشر في صفات ثلاث، عقد اللاهوت السامري في «أوروك» أو العراق، وحدة عقيدية ضمنت الوحدة السياسية بين الرافدين فبالعقيدة هوت المُدن عابدة «إله السماء»!

برابط العقيدة الدينية عقد «إله السماء» بين المدن السامرية وبُنيت الوحدة السياسية وانتظم السامرية الدين!

أجل... بإشراق الوحدة السياسية السامرية انتظم السامرية ديناً وضمت الوحدة السياسية

(١) كلمة «جين» بابلية تعني رقعة من الأرض مقدارها ثمانية عشر قدماً.

(٢) «عدن» أو «أودن» معناها «السيد» وصفة هي عرفة تحتها رب السماء بين الرافدين. The Worlds: Earliestlaws, By

الرافدين بأواصر الوحدة الدينية.. وحدة دينية تعود بأواصرها إلى يد رأس اللاهوت أو الكاهن الأكبر المستوي على العرش الذي إلى عالمه طلع يقول إن للمستوي على عرش السماء صفات أبرزها العدالة والعدل...

ولتنفيذ العدالة السماوية على الأرض ولقضاء القضاء الإلهي، ينبغي أن تكون روح الجالس على عرش السماء قد حلّت في الجالس على عرش الأرض...

ومن ثم تباكرنا أيضاً بين الرافدين هذه العقائد:

التجسّد الإلهي وحلول اللاهوت في الناسوت وابن الإله

أجل... بِدَع أرسخها الكهنوت في وعي الزمن فرسخت في العقلية الجماعية كعقائد دينية تقول إنه الخفيّ المتجسّد على الأرض في صورة الابن، والابن إنما الكاهن الأكبر، والكاهن الأكبر إنما الملك...

عقائد حفرت في الوعي السومري فرجّعها عبر الزمن من بعد أصداء رددت عقيدة حلول الإلهي في الإنساني وابن الإله بالإله المتجسّد بشراً على الأرض!

بلغ اللاهوت السومري المدى وعلى أسس هذا التجسّد للخفيّ على الأرض في صورة الابن قال:

هو الخفيّ إلا على كاهنه، من لإصدار أوامره إليه له بين الفينة والفينة يتجلّى وله يُكلم...

أين يكون التجلّي، ومتى، وكيف تكون المكالمة؟

أنى شاء ومتى شاء وأما مكان التجلّي.. فالجبال! على الجبال، للمختار فقط، يتجلّى الإله!...

وإلى مراتب ودرجات نظم الكهنوت نفسه ومن فوق العرش قيد العقل الجماعي بقيد هذه العقائد فوجّهه إلى السياسة التي أراد ومن ثم ظهرت نفس الظاهرة التي تصاحب أبداً ظهور الوحدات السياسية، فبالوحدة السياسية السومرية وحّد الدين وفرض فرضاً وكان رسمياً!

أجل.. كونت الدين عقيدة الألوهية أو بالأحرى التفكير الإلهي بيد أن قط لم يك رسمياً إلاّ بطلوع الوحدة السياسية ـ متفرّقاً كان من قبل ـ كان مستقلاً، فردياً في جماعة وجماعياً في فرد، وقطّ لم يك الاعتراف به أمراً واجباً وعقائده لم تك تفرض فرضاً كلا ولا معتقداته هي «الحق» المفروض على الجميع ولا كان الإيمان بما يقوله القائمون على أمره

ch.Edwaards.

ولكن... ببدء الوحدة السياسية كان لا بدّ لهذه الظاهرة من الظهور... فبدأ الدين ينتظم سومير...

أي دين انتظم سومير، وأي دين من الأديان كان لسومير ديناً؟

يغيب في غياهب الماضي البعيد إذا كان قد هتف به ديناً منزلاً أو غير مُنزل.. تغيب في طيّات هذا الماضي البعيد أولى الطقوس والنسك والشعائر مذ قام العقل الإنساني تحت مظهره السومري للحصد يرقب النجم المرتقب ويبني ويشيّد ويُحوّل «الجنان» إلى جنات عدن ـ بل ويتلاشى في تخافت عن السمع المرهف دويّ الأوراد وصيغ الصلوات ورنين الأناشيد، وفي آفاق الرافدين بُعد ذلك العصر البعيد يروح ـ لا يطالعنا على صفحة هذه الآفاق إلاّ صور من تلك الحياة الدينية... ومن أبرز هذه الصور تضحية الصبية من الأبناء.

العادة عادة العقل الإنساني في سَحَر التاريخ بل وصاحبته هذه العادة والسحر من حوله يتحوّل إلى أضواء فجر نراها تحت المعاول الأثرية تلمع فتضيء التاريخ وتعلن بدأه بطلوع «أور» عاصمة للجنوب...

عبر المعاول الأثرية في «أور» يتنفس الماضي البعيد وفي «أور» عن «أور» يحدثنا إن: «بأور» سجلت في سجل التاريخ السياسي الوحدة السياسية السامرية...

أجل... كوّن الدين التفكير أو العقيدة الإلهية ودعّمته الوحدة السياسية ولكن كان هناك في فجر التاريخ رابط ربط الجماعة بعقيدة دينية مشتركة.. فأي رابط شدّ الجماعة إلى **دين واحد.**

للسؤال، جواب يأتي: «مكة» أو بيت الإله.

كعبة الدين السامري ومحور العقيدة ومركزها.

هناك على صفحة «أور» كان قد أقيم في فجر التاريخ بنيان حوله قد التفّت الجماعات... بنيان تنحسر عنه المعاول الأثرية[1]. بينما يتنفّس عبرها التاريخ الديني ويروح هادىء الصوت منه في السمع المرهف يدوي: إن «سومير» في مطلع الفجر البعيد من تاريخها، مذ قامت تُقيم أُور وتشيّد وتبني، قد أقامت بيتاً للإله، فَلِمَنْ في السماء قد بَنَت على الأرض «مكة»[2].

على العقل، سامرياً، أكملت بناء «البيت» عقيدة ألوهة على الجبال تتجلّى!

---

(١) ur of The Khaldess 1 By Sir A.Woolley.

(٢) **تاريخ الإسلام السياسي**، للدكتور حسن إبراهيم حسن، **والرحلة الحجازية**، للبتانوني. **«مكة»** في اللغة البابلية معناها بيت.

على العقل، سامرياً، أكملت بناء «البيت» عقيدة ألوهة على الجبال تتجلّى!

وجد نفسه قاطن واد عن السماء التي تعانق غيومها جباله كل البعد بعيداً وعمّن في السماء وجد نفسه بعدها بعيداً فاصطنع الصناعي من الجبال إلى السماء طريقاً.. اصطنع «زجورات» أو الطريق إلى السماء وفي قمته «قدس الأقداس» أو بيت الإله نفسه: مكة!..

تلك كانت الرابطة في الفجر البعيد من تاريخ الرافدين ـ فببناء «مكة» أو «البيت» التفّ العقل الجماعي حول مركز واحد للعبادة وترابطت في انتشار حلقات الجماعة كما تحدّثنا الحفائر الحديثة التي نشرت على صفحة التاريخ آثار سومير الأولى قبل أن تعصف بها «عقّاد» وقبل أن تستدير القرون على «البيت الحرام» فيُهمل منه الشأن وبعد ذلك الفجر البعيد يضحي «بيت الإله» بيتاً عتيقاً!...

أجل... قرون من الزمن على الرافدين قد مرت مذ قام «البيت العتيق» لم يبق منه إلاّ أساس بين طيّات الرمال يغيب. فعهود قد انقضت وطويت مذ قامت الأسرة الأولى التي يسجّل القلم المسماري تاريخها «ببعد الطوفان» حتى مغيب الأسرة الخامسة «بعد الطوفان» والأسرة الخامسة للإمبراطورية السامرية بعد الطوفان هي الثانية في أور... بل وتكاد تغيب في طيّات العهود معالم هذه السيادة التي عصفت بها عقّاد، ومن آثار هذا العصف أن يقف، بعد قرابة ثلاثة قرون منذ عهد «شارجاني شار علي» أو سرجون الأول، سليل سومير «أور ـ عين ـ جر» أو «أورنامو» في ظل العرش مجرّد حاكم في أور...

أجل... إن «أورنامو» لم يطف في خضم التاريخ السياسي إلا غداة تألب على العرش القائم في أوروك وثار ضدّه وأقام نفسه ملكاً مؤسساً الأسرة الثالثة في أور ليطالعنا:

«أثر أورنامو على التاريخ الديني»

إن هذه هي الفترة التاريخية من تاريخ الدين بين الرافدين التي يبدأ فيها الدين الرسمي في الوضوح على التاريخ بخصائصه أو بصفته التي كان عليها فللدين بين الرافدين شأن خاص في النهضة السامرية في عهد أورنامو (٢٣٠٠ ـ ٢١٨٠ ق.م) إذ تطالعنا «أور» كما لم تطالعنا به في عهد من العهود من قبل فقد جاء «أورنامو» يبعث مجد «سومير» ويطبع على التاريخ هذا البعث... جاء يشيّد ملكاً... وكان لا بدّ من دعامة يقوم عليها هذا المُلك...

---

(٢) **تاريخ الإسلام السياسي**، للدكتور حسن إبراهيم حسن، **والرحلة الحجازية**، للبتانوني. **«مكة»** في اللغة البابلية معناها بيت.

(١) Seven years of Axcavation, By Sir A.Woolley.

(١) Earliers Suneerian Laws and Godes, Bycl Edwards.

وجرت على الصحف الصلصالية الأقلام المسمارية صدى للصوت الذي جاء: **بالأمر الإلهي ببناء مكة** يُردّد: لقد أمرني الإله ببناء **«البَيْت»!**

من مدوّنات ذلك العهد مدوّنة من «مكة»، من بيت الإله نفسه على مساحتها البالغة خمسة أقدام عرضاً وخمسة عشر قدماً طولاً، سطرت يد الزمن وصوّرت من ذلك العهد صُوَراً وسطوراً...

بين سطور هذه المدوّنة وصورها يطوّف الفكر منا بالقرون ـ يطوّف ناشراً مطوي الأجيال ومن فوق هذه الأكمة بين الرافدين المسماة الآن «تلّ المُغير» يعود القهقرى الزمن... يعود حتى هذا العهد، عهد «أورنامو» ومن المعاول الأثرية يشيّد الخيال الديار كما في عهده كانت[1]..

هذه «أور» بالحياة تتنفس ودويّ الحياة في أرجائها يدوي..

وهذا «أورنامو» قد قام يشيّد ويبني.. قام يقيم حضارة على أسس حضارة أخرى تنتشر عنها مقبرتا الأسرة الأولى الناطقة محتوياتها بأن هذه الحضارة نفسها إنما هي وليدة الماضي.

ولكن... «لأُور» لم تك من قبل مذ كانت عاصمة السيادة السامرية الأولى كل هذه الأهمية التي كانت لها في هذا العهد فـ «أورنامو» إنما يبتعث الحضارة القديمة ويبعثها مدويّة باسمه، يمتدّ دويها امتداد سيادته، ومن الديار إلى الخارج تنساب في تدافع بين شواطىء الرافدين، وتختلج بها مياه الخليج الفارسيّ...

على الزمن أراد «أورنامو» طبع اسمه وإرساخ عمله، فملأت المدن الرئيسية آثاره ـ وتحوُّل «أُور» تحوَّلت المدن إليه ترى فيه العدل والحكمة وتشيد بأعماله... فأوقع شيء أتاه كان إبطال القرابين من البشر واشتراع افتدائها بكباش الفداء، وأهمّ عمل بدأه كان بناء مكة!

أجل... من خلال هذه المدوّنة القائمة في «بيت الإله» نفسه يعود القهقرى الزمن ويقف عند «أورنامو» وهو يختطّ «البيت»... ففي ناحية منها تمثّله في موقف تلقي الأمر الإلهي ببناء «مكة» ـ وتسطر عنه بدأه في حمل الحجارة علامة على الصدوع بالأمر الإلهي...

وفي ناحية أخرى تطالعنا فيها صورة كائن مجنّح في صورة بشر يسكب الماء من أعلى.

أجل... سُجلت هذه السطور والصور على هذه المدوّنة من نفس «البيت» الذي أقامه «أورنامو» وساعده فيه ابنه «دنجي» فأقام لنفسه به ملكاً.

ولكن... ليس كالبناء السامريّ المألوف قد شيّد «أورنامو» البناء وإنما تطالعنا «الزجورات»

---

(١) Seven years of Axcavation, By Sir A.Woolley.

يحيط بها فناء رواقيّ ذو عدة محارب، يطوّقها سلم خارجي إلى أعلى حيث القمّة المغطاة الجدران بالنقوش الزرقاء أو قدس الأقداس، بيت الإله نفسه أو مكة بيت، لا مستدير البناء كما جرت العادة السامرية من قبل وإنما.. بيت مربّع الأركان.

ما زالت جدران هذا «البيت» على صفحة «أُور» في صفحة الحاضر قائمة...

أجل... على صفحة عراق اليوم قائم «بيت الإله» في «أور» الأمس، قائم منه الجدار وقائمة منه الجدران أما مكة، بيت الإله، فقد طرقته طوارق الدهر، وانتفضت من حوله الأزمان.. فانفضّ من حوله الناس وكفّوا عن التطواف به سبعاً...

راح الطائفون والعاكفون وراح المؤمنون به برواح الأجيال..

لا... لا تطوّف من حوله الآن إلا الرياح خافتة مثقلة كأن كاهلها قد حُمّل من الأسرار أسراراً ففي همس يروح من حوله خافت الريح يحدّث: إن هذا كل ما تبقّى في سومير من آثار بيت الإله: مكة!..

أجل... هذا كل ما تبقّى من آثار ماض مضى.. مضى فتنفس التاريخ الديني ومضى يُحدّث: إن «البيت» كان المعبد، وإن المعبد كان في نفس الآن يضمّ، ضمّه الشؤون الدينية، الشؤون الدنيوية ـ فليس «بيت الإله» فيه إلا الغرفة المربّعة الأركان وأما ما دونه من البناء فالقصر، قصر «الظلّ الإلهي على الأرض»، وفي نفس الآن ضريح الباني ومقامه... فالمعبد كان مقاماً وفي نفس الآن كان بيتاً للإله... بل إن التعريف السامري يجري يقول: إن «مكة» بيت إلهي وما حوله فهو أرض الإله!

قط ما كانت سُومير تقول بحدود مدينة وإنما بحدود مدينة الإله ومن هذه المدن كانت «أُور» التي بالبيت المقدّس قدّست وغدت بين البلدان الحرام: «بلداً حراماً»...

في هذا «البلد الحرام» ومن ألواح الصلصال فيه ينهض الماضي محدّثاً:

إن ببناء «مكة» في أُور بُنيت العقائد، وبدأ الدين الرسمي يتكوّن ويتماسك تماسك العقلية الجماعية من حول هذا «البيت» متخذاً مظهره في صُوَر: الطقوس ـ والشعائر ـ والحجّ.

من حول هذا البيت التفّت الكهنوت السامريّ منتظماً الدين، ومن حول هذا الكهنوت التفت أفواج المؤمنين تقبل من كل فجّ عميق تسعى وتطوّف وتؤدي من الشعائر شعائر ومن فروض النسك نسكاً فتكوّنت الطقوس وفرضت فرائض الدين الرسمي.

بسيطة شعائر هذا الدين وفرائضه، فهي لا تتعدّى توسّلات وابتهالات وأوردة وأدعية

قرّرها الكهنوت وعلّمها، فردّدتها الشفاه الجماعية دون أدنى تفكير وأرسخها الزمن إلى جانب تلك المعتقدات والعقائد التي دعمها سمر السمّار من حول «البيت» في الليالي القمرية... فليالي «نانار» في أور عيد!

يُضيء مُقمر الليل «الزجورات» أو طريق السماء، هذا البناء الذي رصدت من أبراجه الأنجم وفيه انبثق مشرقاً علم النجم في صورة التنجيم، فيضيء في قمته «مكة»... والحجيج ليلاً من حول «البيت» يُطَوّف سبعاً في اتباع للرقم المقدس سبعة... وعلى السلم الخارجي المطوّق الزجورات إلى «مكة»، إلى بيت الإله، يُظهر الليل المضيء الكهنوت السامريّ بأبهى الحلل الملتمعة في الضوء الفضيّ صعوداً وهبوطاً تتناثر منه الطوائف ومن حول طوائفه طوائف المؤمنين.. تطوافه تطوف وسعيه تسعى وخاشعة ترتفع أبصار الكلّ إلى «نانار» تَلمح في «نانار» لمحات من ملامح الإله!

بهذه الصورة عرف العقل الإنساني سامرياً عبادة القمر ـ قط لم يُعبد القمر إلهاً وإنما عُبد الإله في القمر... فعبد القمر رباً لا إلهاً.. كعبادة مختلف الأجرام السماوية..

أجل... إن ببدء علم الفلك أو بالأحرى ببدء علم النجم في صورة علم التنجيم، بدأت عبادة محورها مختلف الأجرام السماوية، كوّنتها عقيدة تقول بها أقدار علّقت بها مقادير الأحياء... فإلى الرافدين حمل السامريّ عقيدة وجود تتقاسمه ثنائية بين الخير والشر ومن ثم فمترع الوجود بالأرواح المنقسمة إلى طبقتين تعجّ بذكرهما النصوص الدينية وتقسمهما إلى:

الأرواح الخيّرة، كائنات مجنّحة، رسل الإله ومأواها الملكوت السماوي «أجي جي».

والأرواح الشريرة، كائنات أيضاً مجنّحة، رسل «علاّتو» وموطنها الملكوت الأرضيّ «أنوناكي».

دأب الأرواح السفلى إيقاع الأذى، كما أن دأب الأرواح العليا مطاردتها وطردها كدأب هذه الأجرام السماوية التي كلّ منها، كالأرواح العليا، روح عليا!.

أجل... إن هذه الأنجم، الثوابت والسوائر، ظهورها ومغيبها بشائر أحياناً وأحياناً نذر فكأن، كاللوح الصلصالي، السماء لوح عليه بقلم خفّي تجري يد من في السماء تسطر المقدّر بلغة كلماتها هذه الأنجم ومعانيها مطويّة منتشرة في الظهور والمغيب... كل نجم روح قدسيّ يؤدي وينفّذ الأمر السماوي.. وأما هؤلاء السوائر الخمسة فشأنها الحركة، والحركة ما زالت لدى العقل الفتي دليل الحياة، فكأنها عقول.. بل هي، كالشمس وكالقمر، عقول!

عقول، تتدرّج في قائمة الوجود وتقف وسطاً بين صافي الألوهة وخالص الإنسانية، أرباباً...

إكراماً لهؤلاء السبعة نظّم العقل بين الرافدين دورة الأيام إلى أسابيع، وألّف الأسبوع من أيام سبعة، وقدّس الرقم سبعة!...

العبادة عبد العقلُ الإنساني سامرياً النجم والكوكب القمر تقرُّباً وزلفى إلى الإله.. وهنا ينبغي لنا أن ندرك أن الرب غير الإله وأن الربّ شيء والإله شيء آخر. فلم يك الرب إلا سيداً يُؤلف والأرباب حاشية تحف بالجالس على عرش السماء!..

أجل.. تعدّدت الربوبة بين الرافدين فإلى من يعرفه علم الهيئة الحديث سياراً باسم «المريخ» تحول العقل الإنساني في بابل يناديه من على رباها رباً: مَرْدوخ!

وإلى السيّار الآخر الذي يعرفه علم الهيئة الحديث باسم «الزهرة» تحوّلت المدن قاطبة في اتباع لتحوّل «أوروك» العاصمة الدينية... فمن «أُروك» قد انبعث اللاهوت السامري يصفها أنها ابنة القمر هلالاً..

إنها «أنانيتو»: سيدة السماء!

أجل... قطّ لم ترَ مدينة من مدن الرافدين في «الزهور» ألوهة كاملة وإنّما فيها كانت ترى مظهراً للألوهة.. وتحت هذا المعنى وبهذه الصفة قدّستْ الزُهرة كمظهر من مظاهر الألوهة، كما تحت نفس المعنى وبنفس هذه الصفة قدّست الشمس فإلى: «شماس» تحوّل الرافدان لا يرى فيه إلهاً وإنما سراجاً وهّاجاً معلقاً في سقف السماء، تشعله يد الإله تبديداً للظلمة وللخائف أمناً.

من أجل هذه الصفة قدّست «لارسام» و«سيبارة» الشمس وتحولتا إليه بصفة خاصة كما من أجل النور الإلهي فيه تحولت إليه بصفة عامة المدن قاطبة، التي تحوّلت أيضاً إلى القمر اقتداءً بـ «أور» العاصمة السياسية في ذلك العهد.

بيد أن بتحوّل العبادة إلى تقديس الظواهر الطبيعية، تحوّلت إلى تقديس الوسط الذي فيه تبدو هذه الظواهر فقُدس الفضاء رباً عُرف تحت اسم: «رأمان».

الرأمان، كما يلفظه اللسان الغربي أو كما يصح أن تلفظه لغاتنا الشرقية، «الرحمان»، كان بين الرافدين في زمرة الأرباب رباً، واختياره من الأفراد كان كاختيار أي رب آخر أمراً مشاعاً فكل مدينة من المدن قد اختارت لحمايتها رباً، وكل فرد من مواطنيها له أن يختار إذا شاء غير رب المدينة الرسمي رباً يتخذه حامياً وإليه يلجأ في ساعات الحاجة والبأس!..

من ثم فإذا قال قائل للقمر هذا ربي، وإذا حاجاه آخر وللشمس مشيراً قال هذا ربي، وإذا قال آخر بل الرحمن ربي، نفهم أن الرب هنا بمعنى «السيد» ـ وكل قائل لا يختلف مع

الآخر في موضوع الألوهية وإنما في موضوع الربوبية وفيما قد اتخذه كل منهم من حام له وراع!

بهذه الألوان من التفكير الديني راحت الأيام باللاهوت السامري تسير ويده تسجل بأقلامه المسمارية على ألواحه الصلصالية تفكيره في العهد السامري الأول وعهد النهضة السامرية...

ولكن... إلى جانب هذه النواحي الدينية والعقائد المتمكنة التي أرسخها التوارث وقدسها مرور الأجيال فقدسها العقل الجماعي دون تفكير وانصرف إلى الاعتقاد أن الانصراف عنها إنما الانصراف عن الدين الحق نواح أخرى يطالعنا بها:

القانون الأخلاقي في الدين السامري:

الدين السامري يتجلّى ثمرة مرحلة طويلة من مراحل التطوّر الارتقائي الاطرادي وأهم ناحية تنتظمه وعليها تقوم له قائمة هي **الناحية الأخلاقية** فهي فيه تقوم كصرح أخلاقي شامخ ورفيع فعن شرائع وتشريعات ووصايا ساميّة تنحسر الألواح الصلصالية والمداون الحجرية محدثة أنها: قرار «نِصَابَا»[١] ربّة الكتابة وحكم «هاني» سيّد الأختام[٢].

قرار وحكم يأتيان في صورة قوانين مدنية:

روحها: العدل والطهر والحب

نرى في ثنايا هذه القوانين مجابهة الدين للمشاكل فتواجهنا:

مشكلة القيم الأخلاقية

تطالعنا الحريّة الأخلاقية في هذه المشكلة، فالحريّة الأخلاقية إنما ناحية مهمة في الدين السامري... يطالعنا من ثناياها أن العقل سامرياً اعتبر الإنسان مستمتعاً بأتم أنواع الحرية في العمل والقول، وحراً في استخدام ملكاته العقلية وقواه الطبيعية ـ الخير والشر بين يديه وليس عليه إلاّ أن يختار بينهما اختياراً حراً بعيداً عن كل قسر وذلك لأنه مستول تمام الاستيلاء على حركاته ومشاعره الأخلاقية وليس عليه إلاّ أن يوفّق بين أعماله والمبادىء الأخلاقية فإن لم يفعل ذلك وأسلم زمام نفسه للأهواء فقد أنصت إلى الشر وإليه انحاز!

وهنا تقودنا هذه النظرية إلى:

---

(١) Earliers Suneerian Laws and Godes, Bycl Edwards.

(٢) في متحف فيلادلفيا.

مشكلة الخير والشر في الدين السامري

هذه المشكلة من مشاكل الدين هي من أهم المشكلات التي تجابه الفكر خارجاً عن دائرة العاطفة إلى دائرة العقل بسؤاله كيف يصدر الشرّ عن كائن كله الخير؟

هذه المشكلة عرضت للعقل الإنساني في أول عهده بالنظر وحملته سامرياً على البحث والتفكير، فلم يجد لها سبباً إلاّ أن الخير لا يمكن أن يصدر عن الشرّ ومن ثم فإن الإنسان هو صانع الشرّ الذي انفرد بخلقه لنفسه!... وهذه النظرة تسلم نفسها إلى مشكلة أخرى من مشاكل الدين هي مشكلة الثواب والعقاب التي تتركز في:

مشكلة النفس أو عقيدة الخلود

من مقبرتي الأسرة الأولى الراجع تاريخها إلى ما بين الألف الثالث والخمسمائة والألف الثالث والمائتين ق.م، وفي مقبرتيّ «عابر ـ جي» و«شوب ـ عاد» تطالعنا مشكلة النفس إذ نرى أن على قاعدة الخلود ترتكز الناحية الأخلاقية في الدين السامري... عقيدة الخلود تطالعنا من ثنايا المقبرتين قوية فإن الثاوي ثاو في وضع النائم الهاجع حتى لحظة الإيقاظ ومن هنا كانت:

عقيدة البعث... بالبعث اعتقد العقل الإنساني سامرياً. وثَوَى مؤمناً بيوم فيه سَيُبْعَث حياً... سِجِلّ ذلك هذه البقعة من «أور» حيث أهال الزمن على الجبّانة الأولى ترابه فواراها بجبانة أخرى أزاحت المعاول الأثرية عنها الرمال، فَنشرت في تاريخ العقائد والمعتقدات الدينية، عقيدة الخلود ولكن عن طريق البعث الجسدي!

كل هذه الهياكل الثاوية تنتظر نفير البعث!..

كل هذه الهياكل الثاوية ثوت مؤمنة بالبعث الجسدي في يوم يُنصب فيه ميزان العدالة السماوية، وتكيّل الأعمال فيكون المرء إمّا:

كائناً طيباً: أو مَلَكاً أو كائناً شريراً: أو شيطاناً!

ولكن... من وراء عقيدة «البعث الجسدي» تبرز عقيدة الخلود الذاتي قويّة تُسجل أن أول عقيدة رسمية هي تلك التي أُسست على الإيمان بالمبدأ الحيّ والاعتقاد بكينونة مستقلة للكائن الحي سجل بها العقل الإنساني على ضفاف الفُرات ما قد سجله على ضفاف النيل من أن لكل كائن شبيهاً عرفه بلغته تعريفاً لا يميزه عن المصرية القديمة إلا اللفظ اللغوي، فلم يقل إنها «كا» وإنما قال إنها «زي» أو «ظي» بمعنى الضوء!... وهذه الكلمة كلمة سامرية انحدرت إلينا وفي العربية العامية نستعملها بمعنى «مِثْل» استعمالنا في اللغة الفصحى «كا» بمعنى مقارنة شيء بشيء... هذه الكلمة كان في الأصل معناها الحياة والضوء، فالظي، أو

الزي إنما هي «الذات»، الشخصية، المبدأ الحي، ومفارقته للجسد ليس إلاّ للجسد ضجعة فيها يستيقظ حال عودة «ظي»!...

الجوهر جوهر الدين في العهد السامري الذي ظل سليماً حتى عصفت العواصف السياسية بسومير وأتت ببابل لتقوم بقيامها إمبراطورية لها لاهوت به يطالعنا:

الدين البابلي

التفكير الديني في اللاهوت البابلي:

برزت بابل عاصمة لإمبراطورية اشتقت من نفسها لها اسماً، وإليها برابط الوحدة السياسية بدأت تضمّ مدن الرافدين قاطبة فبدأ العقل الإنساني، بتسجيله هذه الوحدة السياسية، يُسجِّل على نفسه نفس الظاهرة التي تظهر أبداً بظهور السيادات والوحدات السياسية. بدأ يخطو الخطى التي تحتمها مراحل الانتقال السياسي بالبلاد من مدن مستقلة إلى إمبراطورية ذات وحدة سياسية مظهرها وحدة الدين ووحدة العقيدة الإلهية... فبدأت تتجه منه الخطى نحو خالص الوحدانية.

بدأت دوافع السياسة تدفع العقل الإنساني من وحدانية لا خالصة إلى وحدانية خالصة فقد صحّ لديه أن الوحدة السياسية جسم ولن ينتظم الجسم ما لم تنتظمه الروح - روح فيه تسري فترتبط بين أجزائه المتفرّقة وتنتظم هذا التفرّق في وحدة... هذه الروح إنما هي: دين واحد لإله واحد.

ولكن... لهذه السيادة القائمة ربها المحلي الذي قد توارثته منذ العهود الأولى... رب عرفته باسم: «مردوق».

لقد صاحب ظهورها ظهور «مردوق» وببروزها على مدن الرافدين سيدة برز «مردوق» لأرباب المدن المسودة سيداً ولكن لا يعدو موقفه عن أن يكون بين الأرباب رباً.. وهو ولئن ساد الأرباب طراً فسيادته إنما مادية الصبغة، خالية الوفاض مع روح تصمد للأحداث السياسية...

وأطرق الكهنوت البابلي مُفكِّراً في وسيلة تُمكِّنه من نفث الروح في هذه الوحدة فكانت

الوسيلة إلى الغاية القصة الدينية التي ستطالعنا فيما بعد باسم: «قصة التكوين».

إلينا تلقي المعاول الأثرية بلوغ هذه الغاية بصورة الأناشيد والأدعية التي تعلن ارتفاع الرب المحلّي في سلم التطوّر الإلهي إلى مرتبة الألوهية، وتوحيده بالإله، بإضفاء **صفة الخلق** عليه!

أجل... على «مردوق» أُضيفت هذه الصفة ـ هذه الصفة ذات الأهمية والشأن الخطير في تاريخ التفكير الإلهي فإن «الخالق» هو من تَمْتَد سيادته على من خَلَق.

وطلع اللاّهوت البابلي بـ «مردوق» خالقاً.. هو الذي خلق الكون والكائنات وعمّر بالإنسان المدن، ولنفسه اختار من هذه المدن مدينة بابل ومن ثمّ فبابل «مدينة مقدّسة»!..

على «مردوق» أضْفَى اللاهوت البابليّ صفة الخَلْق فأعلاه إلى مكان الواحد المستوي في السماء على عرش ـ فـ «مردوق» هو الذي أراد أن يكون الكون وتكون الكائنات ليتّجه القلب الإنساني إلى من كان له في وجوده سبباً...

ولكن... ما زال القلب بين الرافدين متّجهاً إلى ما قد عرف قديماً من أرباب ـ وإلى هذا القلب يتّجه الكهنوت البابلي وبه هاتفاً ينادي: بلى إن هناك أرباباً، ومن ذلك «الماء الأزلي» كان الإيجاد...

ولكن... هذه الأرباب المتعبدة ليست إلاّ صوراً مختلفة للألوهة الخالقة... إن كل هذه الأرباب التي بها الوادي يمور ليست إلاّ صفات تنتشر من تلك الكلمة التي تعني الإله أو «إيل»...

«ومردوق»؟ «مردوق» كما تنص «قصة التكوين» هو الخالق... من ثم فـ «مردوق» هو «إيل» أو الإله!.

وامتدّ ظلّ مردوق يطوي الرافدين... ولكن... بارتقاء مردوق إلى مرتبة الألوهية تغيّرت الأوضاع فتغيرت مرتبة الأرباب والربات، وأسبقهن كانت «دامكينا»... إن هناك بين ما قد عرف قديماً من الربات الربّة «دامكينا» أم «مردوق الرب» قبل توحده بالإله ولكن الأوضاع قد تغيرت الآن فأم الرب قد غدت:

أم الإله! و«دامكينا» كأم الإله يجب أن تكون لها المكانة الأولى التي تحتلها منذ القِدم «أنانيتو»... فلم يك عسيراً على الكهنوت البابلي الذي طالعنا بـ «مردوق» إلهاً أن يطالعنا بصيغة فيها تتراءى «نينتو» السامرية و«دامكينا» أم «مردوق»، واحدة في وحدة محسوسة فارتفعت سبابته إلى الكوكب المتلألىء في أفق الشروق آناً، وآناً في أفق الغروب، معرفاً أنها مُسبّبة الألفة وباعثة العشرة، فوصفها «أم العِشرة» وناداها بلهجته السامية: «عشتار»!

هكذا برزت عبادة الزهرة «عشتار»، وانطفأت في تلألُئها الربّات.. وإلى «السيدة» تحوّلت الوجوه عابدة فجاء التحوّل بمذهب في الدين جديد أضحى ركناً من أركان الدين البابلي القائم باسم «مردوق» ـ مذهب صاحب المراحل التاريخية للرافدين حتى الغروب دون أن تتزعزع مكانة «مردوق» عن أن يكون إلاّ: إله السماء المعبود تحت اسم: «إيلوربو»!..

ومنذ هذا العهد، عهد «حمورابي»، الذي تطالعنا فيه «عشتار» «سيدة السماء»، يطالعنا اسم «مردوق» بصفته الإلهية منقوشاً على اللوح الحجري المحفورة عليه الشرائع الحمورابية.. اسم مرادف لمعنى «أنو» أو الإله السماوي[1].

أجل.. تحولت مدن الإمبراطورية البابلية ترى في «مردوق» إلهاً لا رباً، وفيه أربابها تتراءى فإن هذا الإدماج الإفنائي الذي اضطلع به اللاهوت البابلي قد أرضى العقل الجماعي في قرارة نفسه فأقرّه لأنه أشبع منه العاطفة الدينية!..

راق العقل الجماعي أن يرى ربه في «إله السماء» وراقه الاعتقاد بأنه إذا ما تحول إلى الرب الذي اختار من بين هذه الأرباب فإنما هو بهذا التحوّل لا يتحوّل إلاّ إلى «إله السماء» ولا يختار إلاّ صورة منه أو صفة ما دام الرب قد غدا صفة في إله السماء ومن إله السماء صورة..

وامتد هذا الإدماج يشمل الفضاء ومن ثم فالفضاء الذي أطلقت عليه الإمبراطورية البابلية اسم «الرأمان» أو «الرحمان الرب» هو «إله السماء»!

ولكن!... بهذا اللقب لقب «الإله السماوي» تميّز رسمياً عن سائر الأرباب «مردوق» وبهذا التمييز الندائي شق رب بابل حجب التاريخ ليطلع إلهاً على عرش في السماء مستو، وعلى الأرض، على غرار بيته في السماء، يُبنى له بيتٌ!

أجل... لقد طَوَى العهد البابلي العهد السامري وطلعت بابل مدينة مقدّسة وعاصمة سياسية أخضعت «أور»، فـ «لبابل» أخضع حمورابي «أور» في زمن قريب من عهد «أورنامو» الذي به تأثر فبنى، كأورنامو، معبد «بابار» أو معبد «سيبارة»، بيتاً للإله، عنه تجري النصوص معرّفة أنه: «تماماً كمثل بيته الذي في السماء»[2]!

أجل... بحمورابي بلغت بابل مجدها السياسي وطلع الدين البابلي رسمياً بابلي المظهر سامري الجوهر... أمدته السامرية بالمعاني والمعنويات ونفثت فيه الروح فطلع ديناً عماده

---

(١) The Worlds Earliest Laws, By A.Edwards.

(٢) The Worlds Earliest Laws,By A.Edwards.

الناحية الأخلاقية وإن كان كأي دين آخر قوائمه تقوم في العقلية الجماعية على أسس المنفعة الشخصية والأنانية البشرية مُتّخذاً نفس الصورة البدائية من صور المقايضة واستجلاب رضاء القادر بترضيته عن طريق العبادة والصلوات، وإعطائه القرابين ليُعطي العطايا.. ولكن.. إلى جانب هذه الصورة الشعبية تجيء الصورة الأخرى الأرقّ ألواناً، تلك الناحية الأخلاقية التي يتكشّف عنها الدين البابلي في صيغة شريعة قدسية وصيغ قوانين مدنية أو تشاريع وضعية بها تطالعنا:

الناحية الأخلاقية في «القانون السماوي»

إلينا عبر الأزمان تمتد يد الزمن بأولى القوانين التي دوّنتها اليد البشرية وناولتها للعقل الجماعي «شريعة إلهية» أو قانوناً إليهاً، غداة انفضت يد اللاهوت البابلي من تسطير «قصة التكوين» وإيداعها في العقل الجماعي أن الإله السماوي، بعد خلقه الإنسان، للإنسان شرعها شريعة... بيد أن رغم هذا الادعاء فإن من هذه الشريعة أو القانون السماوي يقتطف القلم هنا نواحي تسفر عن أعمق ما فرضه الضمير الإنساني على نفسه من واجبات... واجبات «المخلوق» نحو «خالقه» فالنصوص المقدّسة تجري بالإنسان هاتفة أن الإله له يقول:

«نحو إلهك يجب أن تكون طاهر القلب فذا هو المجد وذا هو التمجيد الذي يطلبه ويتطلّبه منك الإله... ولكن... الصلاة والتضرعات والركوع والسجود على الأرض في الفجر فريضة له عليك»[١].

وتستفيض قدسيّ النصوص وتقول إن الإله تكلم قائلاً:

«ضد صحبك وجارك ليس لك أن تقول شراً...

لا تتجسس وتبحث عن أمور مخفاة...

كن رحيماً... وأوفِ بالعهد إذا عاهدت»[٢].

أجل... تسفر النصوص المقدّسة عن ناحية رفيعة في الدين البابلي، القانون الأخلاقي من صفاته صفة أساسية، ونموّ الضمير الإنساني فيه ظاهر في فرضه على نفسه فرائض وواجبات فإن الصلة بين الدين والناحية الأخلاقية بدأت بتأسيس الدين تقوى شيئاً فشيئاً حتى طالعتنا بها:

---

(١) Baby Lanian Beligion, By King.

(٢) في اللوفر.

الناحية الأخلاقية في «القانون الأرضي»

لـ «حمورابي» ٢٠٨٠ ـ ٢١١٣ ق.م، تُسَجّل هذه الاستقامة، الشرائع والوصايا والقوانين المحفورة على الحجر الأسود، فأهمّ الأحجار وأقدسها في العهد القديم ما كان منها الأسود...

أمام هذا الحجر الذي رجّ اكتشافه في فجر القرن الحالي، أرجاء العالم الفكري، نقف فنراه لوحاً عليه في دقة جرى القلم المسماري مُسَجِلاً القوانين... بل ويحملنا الخيال إلى عهده فيرن في المسامع منا مدوياً صوت «حمورابي» مملياً الشريعة على اللوح الحجري.

أجل... تنطوي العهود الفواصل بينه وبيننا وإلينا من عهده تبدأ العهود في التحدّر من جديد ـ في لحظات تهوي العهود فتنفرط قرابة عشرة قرون من الزمن و«الحجر الأسود» في معبد بيت الإله «معبد سيبارة»، قائم، من حوله تطوّف بالأجيال الأجيال وفي تقديس للقديم، تقديس القدامى، تُقدّس... حتى سنة ١١٧٦ ق.م. حين غزت «عيلام» ونقل «شوتوك ـ ناهنتو» الحجر إلى «سوسا» حيث انقضت عليه هناك، حتى فجر القرن الحالي أجيال، غاب فيها عن العقلية البشرية، فنسيته... نسيت «الحجر الأسود» ونسيت «مكة»، ونسيت معبد «سيبارة» ونسيت الشريعة الحمورابية المحفورة على لوح حجر...

نسيت العقلية البشرية هذا اللوح الشرائعي حتى فجر القرن الحالي.. حتى استخرجته من ظلمة «سوسا» أحداث الزمن ونشرته للعالم الفكري في مشكلة الدين نوراً!..

أجل... في لحظات طُويت وفي لحظات عادت فانتشرت العهود الفواصل بيننا و«حمورابي» ـ فغاب المعبد في حاضر الخيال وتلاشت هدأة المعبد في هدأة المتحف ـ وفي ضوء الحاضر نقرأ عليه سطور نصوص مدنية يعتبرها تاريخ القانون أوّل صحيفة مدوّنة وأول قانون مدوّن في تاريخ «علم الحقوق».

كلا...! كلا لم يُرسل الإله «حمورابي» رسولاً! فلم يدّع الرسالة «حمورابي» ولا ادّعى أن من الشرائع أنزلت عليه شريعة.. كلا لم يقل إن التشاريع عليه نزلت وحياً هابطاً وبها كلمه اللّه كما اعتقد خاطئاً العقل الجماعي حتى هذا العهد!..

كلا... إنما تستفتح النصوص بهذه العبارة: «شرائع الدين التي شرعها حمورابي وأقامها للناس»[١].

الصيغة صيغة خلت من صيغ التنزيل، فإنما شرعها المشرع **ورفعها إلى الإله**.. إلى الإله

(١) The Worlds Earliest Laws, By A.Edwards.

الذي عنه تجري النصوص على الحجر الأسود بصوت حمورا تقول: «نصبني حاكماً للبشر لأكون لهم راعياً فأنظم القوانين وأقيم العدالة» وهكذا تطالعنا:

الشريعة الحمورابية وأثر حمورابي في دنيا التشريع

في هذا القانون، المنتشر في مائتين واثنين وثمانين مادة، تجول منا الأعين فيجول منا الفكر في فحوى محتوياته...

مرآة هذا اللوح، تنعكس عليه الحياة البابلية كما كانت تنتشر عبر سطوره السيادة البابلية والدين البابلي، وعليه يتراءى العصر كما كان فنرى: الطبقات الثلاث التي تنقسم إليها الإمبراطورية، ونرى الشريعة تظل الجميع بالعدل، فللإمبراطورية قضاتها ودور قضائها التي ترينا امتداد العدالة حتى تشمل روح الإنصاف إدانة القاضي نفسه وتجريده من مركزه إذا أثبتت الأيام أن قضاءه لم يك عدلاً!..

ونرى.. قانون أو «**شريعة المِثْل بالمِثْل**».

لأول مرة نرى قانوناً لم يطالعنا من قبل في الشرق القديم قطّ ـ لأول مرة في تاريخ الشرائع والقوانين يطالعنا قانون «المثل بالمثل»: «العين بالعين.. والسن بالسن»!..[1].

ولكن قانون «المثل بالمثل» لا يطبّق إلاّ إذا كان المُفْتَرىَ عليه للمفترى نِداً.. إن السيئة في الشريعة الحمورابية تجازى بمثلها بين الندّ والند فقط، أما إذا كان المسيء قادراً ومن الطبقة العليا فإن العقاب يُضَاعَف..

وإلى جانب هذه القوانين يطالعنا قانون ينصّ على أن الجروح قصاص، وآخر يشرع عقاب قطع اليد للسارق!...

بهذه المواد تطالعنا الشريعة الحمورابية فتطالعنا بشدّة رأت فيها ارتضاء لروح العدالة التي تتنسمها في الصدق والاستقامة فجاءت تحرّم «الكذب» وتعتبر «السرقة» من أشنع الجرائم التي يعاقب عليها بألوان مختلفة تصل إلى الإعدام...

بل وجاءت تشدّد في تطبيق قوانين القيم الأخلاقية فجاءت تنهى عن الفحشاء والمنكر.. تسجل قوانينها أن الخمر من الأرجاس رجس وأن عقاب «الزناة» الإعدام!

أجل... اعتبرت الشريعة الحمورابية الطهر رأس الفضائل، والزواج لا تعتبره شرعياً ما لم يُقدَّم فيه «ترحاتو» أو المهر، ويسجّله صك تمهره إمضاءات شهود.. وكثيرة المواد التي تتناول الزواج في الشريعة الحمورابية ومنتشر بين جدران المتاحف كثير من هذه الوثائق الشاهدة بأن

---

(١) من الشريعة الحمورابية.

الطهر كان جسم الشريعة الحمورابية التي أبت إلا تطبيقه تطبيقاً راعت فيه التزام اللفظ العفّ والقول الطاهر فجعلت لمن يرمي المحّصنات سوءاً جزاءً من جنس العمل ـ كعبودية نفسه جزاؤها عبودية!

ولكن يبدو أن المجتمع البابلي كان يعاني ضعفاً في ناحية من نواحيه الاخلاقية فإننا في جولاتنا بين مواد هذا اللوح الشرائعي نفهم أن هناك كانت رذيلة متفشية في فئات ممن تضمّهم السيادة البابلية وهي ما نعبّر عنه بالشذوذ الجنسي إذ تجري مادة بأن: إذا افترش الأب ابنته فإن هذا الرجل يُنْفَى من البلد!!

على اللوح الحمورابي سطّرت من مواد الشريعة بعض هذه السطور التي جاءت بالجديد ممّا لم تضعه من قبل السامرية، كما جاءت بالقديم في تأثر بالسامرية إذ استنت احترام الوالدين في وصاياها... وكالقانون السامري في الزواج القانون البابلي فليس للرجل أن يتخذ زوجة أخرى، فلن تقوم بجانب الزوجة الشرعية زوجة شرعية أخرى، وإنما للزوج، تحت ضغط أسباب طبيعية وأحوال معينة، أن يتخذ أمته محظيّة وكثيراً ما كانت، كما نفهم من روح هذه القوانين، تهدي الزوجة زوجها جاريتها فتكون له «ذكريتو» أو المحظية ويكون أولاده منها شرعيين إذا بهم اعترف...

هذه هي الحياة البابلية الأولى معكوسة في مرآة الماضي على اللوح الحمورابي.. حياة تُسجِّل حضارة سلمت فيها الآداب فالخطيئة الجنسية لديها كانت رأس الشرور جميعاً فقد جعلت القتل على مقارفتها عقاباً فعقوبة الزانية العادية الموت غرقاً وأما إذا كانت عضواً في الجماعة الدينية وفرداً في المراتب الخمس التي تنقسم إليها الكهانة النسائية كأن تكون «عنتو» أو الأخت المقدّسة، أو تكون «آشياتو» أو الراهبة، أو تكون «ذكرو» أو الذاكرة ـ أو تكون «قديشتو» أو المقدسة، فالعقاب الإحراق بالنار!

بيد أن سكت القانون عن النص على عقوبة: «زرماشتو» أو عذراء المعبد!

تستثني الشريعة الحمورابية من العقاب هذه المرتبة من درجات الكهانة، لأن هذه المرتبة من الكهانة لم تك اختيارية وهذا اللون من الحياة الدينية لم يك إرادياً فعذراء المعبد هي من كانت تُنْذَرُ، جنيناً، للمعبد... لخدمة الإله.. ومن ثم فاعتبارها عروس الإله!.

إن «زرماشتو» هي تلك التي لا يجب أن يكون لها زوج.. ولكن...!

إذا جاءت «عذراء المعبد» بثمرة فباذرها... الإله!

هذا هو الدين البابلي الذي تنحصر فروضه في صورة القانون الأخلاقي... هذا القانون الذي يسوقنا إلى مشكلة الحرية الأخلاقية فنرى أن للإنسان حرية في العمل والقول وله

استخدام ملكاته العقلية وقواه الطبيعية، بل إن الخير الذي يُشبّه بالحياة والشر الذي يُشبَّه بالموت هما بين يديه وله أن يختار الخير دون الشر فالشر عقابه الموت!...

أجل... إننا في تصفحنا التاريخ الديني البابلي لا نرى أثراً لخلود النفس ولا للحياة الأخروية، فالثواب والعقاب هنا في هذه الدنيا، وإنما تظلّ أشباح الموتى في مكان مظلم سحيق «ماتالاري»!

دين!.. دين رفّ على جزء كبير من بقاع الشرق القديم والأيام تسير فتجيء بامتداد المد الحيثيّ والكوشي والحوريّ على الرافدين... امتداد به يطالعنا:

«الدين البابلي في امتداده إلى فينيقيا وكنعان»

لم يتأثر الدين البابلي بالعاصفة التي هبّت من أقاصي الشمال الغربي وأقبلت بالحيثيين يجتذبها إلى الرافدين حضارة وعمران بلغهما هذا العهد بسبب ذلك التنافس الذي عرفه بين مدينتين من أهم مدنه، «بابل» على ضفاف الفرات و«آشور» على ضفاف الدجلة.. ولبابل كانت الثقافة ولآشور القوة ـ ظاهرة دفعتهما إلى التفاخر والتنافس على الصدارة فكانت العوامل عاملاً بلغ به الرافدان حضارة التمعت واختطف بريقها الأمم المجاورة فتدافعت إليها أفواجاً لا لتستطلع تألق هذه الحضارة وإنما لتحل محلها بأن تتخذ لنفسها نفس العادات والمعتقدات والتقاليد ـ مَثَل الفوج الأول الهبوب الحيثيُّ الذي أقبل عاصفاً فأطاح بالإمبراطورية البابلية الأولى وأسس في شمال الرافدين حاضرة منها راح يقلد نفس الخطى البابلية وللخطوات البابلية يقتفي أثراً في العقائد والعادات والتقاليد. السبب الذي حُفظت به العقيدة الأولى في منشأ الوجود بل وزادها في العقلية الإنسانية رسوخاً دوي الهبوب الحيثي قرابة قرنين من الزمن حتى حوالي سنة ١٧٤٦ ق.م عندما امتدت من الشرق، من هضاب إيران، نهضة أخرى تأخذ، أخْذ الحيثيين العقائد البابلية، ومن أنفاسها الحاملة اسم «كوش» تعبق في البلاد نسائم جديدة هي من الآرية نسائم!..

أجل... لقد هبّت «كوش» بالنسائم الآرية وما كان الهبوب الكوشي إلا رذاذ الموجة الآرية التي أقبلت من الشمال والشمال الشرقي بالعنصر «الآري الهندي» ممن نجد أثره في آثار أسمائه ومسميات إلهياته في الفادية، فلقد أقبلت من العنصر الآري فلول تمثل جزءاً من الارتحال الآري وانصبّت على هذه الديار تتخذ الجنوب إلى وادي الأورنتس والأردن ومنهما إلى وادي النيل طريقاً تعفّره بسنابك خيلها باسم «الحج سوس» أو «الهكسوس».

أجل.. امتدت الموجة الآرية على الرافدين حتى بلغت الشمال الغربي ثم عادت مجترفة معها من كان قد نزح في الألف الثالث ق.م من سفوح «أور أرثو» أو أرمينيا واستقر في

«ميتاني» وطلع على الدنيا باسم الحوريين فقد اتخذ العنصر الآري عوناً من الحوريين، لعجلاته مهّدت سواعدهم الهبوط إلى وادي الأردن فهبط بهم يقيمهم نيابة عنه حكاماً وينيبهم عنه أقيالاً... وهكذا بالامتداد الآري امتد من «ميتاني» هذا العنصر الأرمني وبخضابه خضب الرافدين.. ومن «آشور» حيث اتخذ للحكم قاعدة، امتد الحكم الحوري حاكماً الرافدين وللسيادة الجديدة خضعت، خضوع «آشور» «بابل» واستكانت المدينتان المتنافستان في القبضة الحورية من حوالي (١٧٠٠) إلى (١٥٠٠) ق.م.

عبر المعاول الأثرية يتنفس الزمن عن أثر التفكير الآري في «ميتاني» وأثر «ميتاني» في تفكير الشرق القديم محدثاً أن الأثر جدّ عميق!

إن هذه الأمة التي خضبت دنيا الشرق القديم بآثارها، نفسها قد خضبها من الآرية الخضاب فلقد أقبل العنصر الآري إليها سيداً محتفظاً بتقاليده وعاداته فتشبّهت، مسودة، بالسيد! قلّدت تقاليده، واعتادت عاداته ولاعتقاداته اتخذت فجاء بها لون من التفكير الديني جديد الصيغة فيه محض آرية ـ جاء هذا اللون كنتيجة للاحتكاك «الكوشي الميتاني» وكأثر لأثر العنصر الآري فيه فإن الحوريين، أولئك الذين خضبوا الشرق القديم إنما قد خضبتهم أنفسهم الآرية الهندية التي أقبلت قبائلها من الشمال الشرقي بخيلها وعرباتها تؤسس بين القبائل السامية، التي كانت منتشرة في القرن السابع عشر في وادي الأورنتس، حضارة جديدة ذات لون جديد من آثارها تطالعنا ألوهة ليس لها من البشر الصورة وإنما الشمس لها رمز تُعبد تحت اسم «سزيا».. هذا اللون من الألوهة خضب الحوريين فطالعت الدنيا بهم ألوهة لا تعترف للإله بصورة بشرية ولا بشبه كائني..

في كل بقعة حلّت فيها «ميتاني» تجنّبت كل صورة للألوهة فليس للألوهة في عقيدتها صورة ـ خفية الألوهة لا يُعرف لها من الأشباه شبه ولا من الصور صورة فإنما حسب الإنسان أن يعرف أن هذا الأتون النوري إنما على وجودها دليل، وبرهان على صفات القدرة والرحمة والإحياء في الإله الذي منحها من أرضه هذه الأرض، هذه «الجنات» ومن تناديه في تضرعاتها وصلاتها ومناجاتها بصفة السيادة:

«أدون» أو عدن! بأدون أو عدن، هبّت في أرجاء الشرق القديم هبّات نسائم تجرّدية لألوهة مجرّدة عنصرها التجرّد وصفاتها المطلقية!..

ولكن... إذا كان بـ «عدن» قد هبّت في أرجاء الرافدين هبات نسائم تجرّدية أحالت قاتم آفاق الألوهية المادية إلى شفافية روحية فليس إلاّ في أرجاء الفكر الإنساني وأما العقل الجماعي فظلّ مؤمناً بما توارثه من دين فظلّت العقيدة داخل أرضه عقيدته بل وانسابت إلى

خارج أرضه حين كان الارتحال «العراقي السوري» يأخذ مجراه من الرافدين، بالمرتزقة الساعين وراء العيش، وينتشر في واديّ الأردن والأورنتس وشواطىء البحر الأبيض... على الشواطىء باسم فينيقيا وفي الداخل باسم كنعان..

وهكذا... امتد هذا الدين بمعتقداته الفجّة التي كان عليها في عهديّ «أونامو» و«حمورابي» وبذلك يطالعنا:

«رسوخ العقيدة البابلية في الوعي السامي بنصوص الدين الكنعاني أو سجلات راس شمرة»

بهذا الانسياب رسّخت العقيدة السامية في الوعي السامي وتوارثها عبر الأجيال ديناً فمن سجلات هذه الفروع السامية التي انتشرت في أرجاء هذه البقعة من فلسطين يطالعنا دينٌ محض بابليّ راسخ هنا منذ فجر الألف الثاني ق.م.

من سجلات «راس شمرة»، على الشواطىء الشمالية السورية، التي أزاحت حديثاً، المعاول الأثرية عنها غبار الزمن تطالعنا نصوص الدين الكنعاني التي تعود قطعاً إلى ما قبل القرن الرابع عشر ق.م لفترة قصيرة سباقة على عهد «التوراة» مكتوبة على الألواح الصلصالية بالقلم المسماري ولكن باللغة العبرية القديمة فيطالعنا دين بابلي الجوهر ألقى عليه الترحال الخشن من ألوان التغير فالمحور منه ألوهة خشنة فجة وفظة كمن بها إلى هنا قد جاء ممن آثر التجارة وآثر على الاستقرار الترحال..

أجل... جافة الألوهة البابلية ومجردة من نسائم المجردات بيد أن حياة الجفاف هنا قد زادتها على جفاف جفافاً فعبر المعاول الأثرية يشق الفكر عباب الزمن إلى تلك الأزمان ويستعرض من أحداثه تلك الأحداث التي دفعت بالفروع السامية إلى الارتحال فرادى وجماعات إلى هنا تؤسس قبائل وتبني كـ «أور» التي خلفتها على ضفاف الفرات «أور» جديدة وتنعتها باسم السلام وتطلع على الدنيا «أورشليم» أو مدينة السلام ـ وتبني كـ «سمريا»، سمريا ـ ولمن تؤله وتقدس، في اتباع لتقاليد تلك العهود، تبني «البيوت» فتبني بعد بيت بيتاً وقريرة من حوله تستقر وتلقي جانباً عصا الترحال ففي المخيلة منها قد استقرّ عهد ذاك أن حيث يُبنى «للمعبود» بيت فالمعبود إنما ساكن هناك!

ومن هذه البيوت:

«بيت لحم».

«بيت شماس».

«بيت يراه».

من هذه «البيوت» التي نطوف بها تقبل عبر الزمن أصوات كنعان وفي تنافر غريب يمتزج الدويّ المنساب على الربى والمعتليات والمهابط يعلن تمسُّك كل قبيلة بما حملته معها من الرافدين من دين! ولكن كلها تتلاقى حول عقيدة مشتركة محورها «إيل» أو الساكن السماء وإليه تتجه بالالتفاف حول بيته المقام على الأرض!

«بيت إيل» بَيْد أن أي الإله إله كنعان من عنه تتحدث سجلات راس شمرة؟.. إله كنعان كنعاني الصورة والطبيعة والصبغة... بكليتها فيه تتراءى كنعان!...

جبّار، مستو في السماء على عرش، من عليه يرسل البرق والرعد والصواعق في يديه قذائف يقذف بها من الناس من يشاء! طبيعته طبيعة فيها الغضب والرضا مزيج فهو لا يغضب وينزل سخطه إلا ليعود وعلى من أنزل سخطه ينعم!.. «خالق» هو وحاكم للبشر يروقه من البشر إراقة الدم له قرباناً ورشّه على المذابح، وإيقاد الشحم من اللحم المضحى، محرقات إليه تتصاعد رائحة سرور!..

إن الإله، رجل حرب!

عبر المعاول الأثرية تنفّس الزمن ومن أسرار العقل البشري أسرّ أسراراً بها خلال هذه السجلات أو نصوص الدين الكنعاني يحدِّث أن، العقل الكنعاني قد تخيّل للألوهة شكل البشر، وعنصر الجنس، وطبيعة الطبيعة البشرية، ومن صفات البشر صفة الغضب والرضا، والندم، والانتقام، والتمشّي على الجبال والكلام!!

لأجيال رسّخت هذه العقائد كما أورثتها السامرية الأجيال وقطّ لم تجد فيها عقلية ما غضاضة ما، فليست العقيدة بشاذة على عقلية طوت الألوهة في المكان والزمان فأقرّتها في السماء وأجرت عليها الأيام، وأقامتها على عرش، وصاغت لها من البشر الصورة، وحدّدت لها عنصراً جنسياً استجاب لطبيعة الرجل الجنسية فكان الإله رجلاً!

كلا.. لم يتساءل العقل حدثاً ماهية المكان وماهية الزمن، وكيف للألوهة تحد الحدود؟!

وليداً كبا العقل فطوى الإله في المكان وغلّفه بالزمان!.. ووليداً وهي الخيال فتصوّره رجلاً وخلع عليه من صفات الكينونة البشرية صفات، وتعثّر قائلاً إن الإله «رجل حرب»!.

إن إله كنعان إله ما زالت له نفس الصفات التي كانت له قبل إبطال القرابين البشرية بين الرافدين ـ ما زال فظاً وفجاً! نهماً جشعاً إلى الضحايا! عطشاً إلى الدم!.

إله يأبى إلاّ إراقة الدماء تقرّباً وتضحية بل إن العادة كانت شائعة هنا شيوعها قديماً فقد كان يُعتبر عملاً مشكوراً إراقة الدماء في سبيل الإنسانية والوطن لدرء كارثة قومية وصدّ

نازلة وطنية ولهذا فإذا ما ادلهمت المِحَنْ وتخبّط الإنسان بين الخطوب، وذلك معناه أن الإله عليه غاضب، عليه إذنِ ليفتدي غضب الإله تقديم أنفس ما لديه علامة على الخضوع والولاء! وطالما أضرمت النيران وألقى فيها أعيان القوم أنفس ما لديهم وأنفس ما لديهم كان الأبناء!. وكم؟ كم ألقي من أبناء ترضية للإله المعبود تحت اسم «بعل مولوش»، في تلك الهاوية من النار حيث يقوم وادي أبناء هنم أو كما يسميه اللسان الكنعاني: «جي - هنم» أو جهنم؟!

طبع الطابع فينيقيا والأجيال عنها تنسلخ وبها أوج الذروة المادية ترتقي حتى بلغتها، في «صور»، تحت أشهر ملوكها «حيرام» الذي شاد القصور وبنى المعابد وعاصر عصره عصر سليمان... هذه المعابد التي، في اتباع للعقائد القديمة، وُضِعَتْ فيها قِطَعْ «النيازك» واعتبر الحجر منها، لتساقطه من السماء، مقدّساً!.

وكم «بالحجر المقدَّس» وَهْماً تبرّك المتبرّكون؟!

أجيال والمؤمنون في فينيقيا تُؤْمِن الإيمان بأن النيازك أحجار مقدّسة حتى هوت في هاوية الزمن فينيقيا فهوت معابدها وقصورها وأحجارها... عفت ولم يبق من أثرها إلاّ في ذاكرة الزمن باهت ذكرى وضئيل آثار تحدِّث أن:

قطّ بالصبغة الآرية لم يصطبغ من الفروع السامية فرع فقد ظلّت الفروع السامية قاطبة ودون استثناء لها في تفكيرها الإلهية هذا اللون من التفكير البابلي الأول بل وبه تمسكت والأجيال تسير وتصوغ بعضها بعضاً إلى حلقات خلالها كانت آشور تمتد تدريجياً من جبالها نحو سوريا والأناضول وأرمينيا وإيران، وتدريجياً تراخت عن الرافدين القبضة الحورية وتمكنت منه القبضة الآشورية فما طلع الألف الأول ق.م إلا ولون الرافدين محض آشوري ليطالعنا:

الدين الآشوري

التفكير الديني في اللاهوت الآشوري

من أحاديرها، جافة صلبة خشنة تحدّرت آشور فامتدّت تنشر سطوتها في كل اتجاه، تسلب باسم الغزو وتسطو باسم الفتح وتنشر على العالم الراهب سطوتها الرهيبة..

رأت آشور أمامها رقعة الدنيا فسيحة ممتدة ورأت نفسها في هذه الدنيا الفسيحة الممتدة تقف منتصرة بعد خذلان فامتدت يدها تسجل تفكيرها في الفنين الصامت والناطق... في الصامت نرى عقائد الدين تصويراً ونحتاً مسجلة وفي الناطق نسمع مِنْ الألواح الصلصالية رواية الدين في الإمبراطورية الآشورية.

أجل... سادت آشور الشرق القديم في هذه اللمحة الزمنية... ولكن... لآشور المدينة لن يرتفع ويوطّد كاملاً شأنها السياسي ما لم يرتفع كاملاً شأن الرب «آشور»... لن ترسخ لآشور مكانة سياسية بين الرافدين ما لم يرسخ في قلب الرافدين «آشور».. أو بعبارة أصحّ وأوضح، ما لم يحتل مكانة «مردوق»، «آشور».

للإمبراطورية الآشورية رب، عرفته منذ القدم بل منذ عهد يغرب عن بالها باسم «آشور» أو باللهجة السامية «عاشور»، المؤُله على حسب الطريقة القَبلية من تأليه رئيس القبيلة، ومَنْ منه استمدت اسم عاصمة إمبراطوريتها عاشور أو آشور..

ومن حول الرب «آشور» التفّت آشور تصوغ له أناشيد الوحدانية وترسلها على موج الرافدين أنغاماً تتغنّى مكررة في وعي الزمن نفس النغم القديم ولكن بصيغة جديدة!

من حول «آشور» راح اللاهوت الآشوري، مستغلاً العقيدة البابلية التي طالعتنا في التفكير

الديني في اللاهوت البابلي، يطبع «آشور» **بصبغة الخلق** فيرفعه بذلك إلى مقام الألوهة ومرتبة الإله..

على القاعدة البابلية جرى القلم الآشوري بلغات خمس يسجل لـ «آشور» ما قد سجّلته من قبل بابل لـ «مردوق» ـ وكما قديماً طلع اللاهوت البابلي يعلن محو الفروق بين «مردوق» كرب و«إيل» كإله خالق طلع اللاهوت الآشوري يعلن أن: لا فروق بين «آشور» و«مردوق» فإن إذا كان «مردوق» هو «الرب الإله» و«الإله الخالق» فإن «الرب الإله» و«الإله الخالق» هو أيضاً نفس من تعرفه آشور تحت اسم «آشور» ومن ثم فواحد «مردوق» و«آشور»!..

لتردد إذن الأرجاء، حرة في غير اعتراض، اسم الإله كما تعرفه الإمبراطورية القائمة ـ لتجلجل آفاق الرافدين باسم «آشور» ولتصغ له الحمد والتسابيح فإنما: هكذا! هو «آشور»: «الرب الإله» «الخالق»!

بل ولتتر النصوص المقدسة تلو النصوص تتلو آيات وحدانيته في محارب آشور معلنة أنه: أحد ليس له كفواً أحد وأنه الصمد: «لم يلد ولم يولد ولم يك له صاحبة ولا ولد!»

أجل... الدين الآشوري نفس الدين البابلي فالدين البابلي كان بمثابة المرجع لم يعتره تغيّر في مهب التاريخ وعصف هبوب بعد هبوب كما إليه نعود مستعرضين ليطالعنا:

الدين البابلي في بلاده في مهب الأحداث

من صفائح القبور في العهد الآشوري الحديث عامة، وخاصة من قبر «آشور ـ ناصر بال» الثاني، ومن تلك المكتبة، مكتبة «آشور بانيبال»، أو «سردنا بولس» الإغريق التي نشرت المعاول الأثرية ما كانت تحتويه من صحف صلصالية فنشرت عهود سومير وعقاد وبابل حتى هذا العهد تنتشر القوائم التي إليها كان في كل مراحله يستند في قيامه الدين، فأنفاس الزمن عبر هذه الألواح تحدث عن:

القصص الدينية في الدين البابلي

لقصة بعد قصة روت الألواح وتروي... قصص كانت في العهود الأولى أكثر شيوعاً في الشرق القديم... قصص تبدأ بتلك القصة التي بها طلعت بابل فأخضعت أور:

قصة التكوين[1]

من مبنع الخيال استمدت اليد اللاهوتية الوحي فطلعت على الدنيا بقصة التكوين...

(١) Baby Lanian Beligion, By King.

جاءت هذه القصة مفسّرة أن المنشأ إنما (الماء) وأن: من هذا الماء الأزلي نشأ الإله ونشأت الأرباب تصلها حلقات من الصلة وتربط فيما بينها سلسلة من القرابة.

ولكن... حدث أن استأثرت الأرباب بالقوة عن «تيامات» الأم العالمية، و«عيسو» الأب العالمي ـ فندما على إنسالهما وأرادا إبادتهم فأنسلا وحوشاً فظيعة المنظر وأرسلاها في أثر الأرباب بل إن «تيامات» نفسها قد تشكّلت في صورة صلّ وفزعت الأرباب إلاّ مردوق! مردوق وحده اضطلع في حرب مع ما قد جاءت به تلك المياه من زواحف، وقوياً كان فقد عصفت قوته الخيرة بقوى الشر! ثم تحول متلفتاً في أنحاء الوجود فرآه خلاء إلا من الماء... رأى الأرض ماء منبجساً، والسماء ماءً متجمداً، فاجتمعت لديه فكرة أوحت بها طبيعته الخيّرة ولتنفيذها أسرع فشطر «تيامات» إلى شطرين.. أرسل إلى أعلى شطراً ليفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد فانتشر «إنشار» أو السماء... وعلى الأرض ألقى بالشطر الآخر فجعله للأرض غطاءً ودرءاً للماء الأسفل من الانبجاس فكان «كيثار» أو الأرض.

ثم تحوّل ينتظم الوجود فبدأ بالسماء... إن مردوق هو الذي حدّد لكل نجم مكانه ومردوق الذي خلق القمر والشمس والأرباب الخمسة!. كلا ليس مردوق بنجم ولا هو رب فمردوق هو الذي أجرى في الفلك الأفلاك وأنشأ الأيام، والفصول والأعوام، ففي يديه، يدي مردوق «رب بابل» مفرغ أمر الخلق!

أجل... مردوق هو نفسه الخفي المستوي في السماء على عرش... وهو لئن يكن لبابل رباً فليس ذلك إلا لأن بابل كانت المدينة التي اختارها غداة تنظيمه ملك السماء والأرض فقد هبط «الرب الإله» من السماء إلى الأرض في هذا المكان.. هنا بين هذه الأنهر الجواري في آشور وكوش وهنا في بابل على ضفاف الفرات تعهد هذه البقاع بالنظام فغرس أشجارها وأنشأ هذه الجنة قبل أن يعود إلى مقره السماوي، ويخلق من يتعهد هذه الجنة التي فيها قد غرس «شجرة الحياة».

أجل... فكّر الرب الإله أن يجعل في الأرض خليفة... خليفة عنه في الأرض ليعمل في هذه الجنّة التي أنشأها... وجَبَل الرب الإله تراباً من الأرض، وعلى صورته صوّر صورة، ونفخ في أنفها نسمة حياة فصارت الصورة نفساً حية وصار الشبه المصور رجلاً؛ «آدم»[1].

وأخذ الرب الإله «آدم» ووضعه في هذه الجنة ليعملها ويحفظها.. ورأى الرب الإله «آدم»

(١) Baby Lanian Beligion.

«آدم» اسم علم على الرجل.

وحده فأوجد له على صورته (أناث) يسكن إليها وبها يستأنس... وإلى «آدم» أنست أنثاه... وعمرت بهما الأرض ونشأت القرى والمدن.. وتداول خلفاء الخليفة الأول الخلافة عن الرب الإله.

تلك هي في سفر الصلصال قصة التكوين.. قصة الأمس وأسطورة اليوم!

ولكن... كاليوم لم تك القصة بالأمس.. لم تك إلاّ من قصص الدين قصة دينية ناولها جيل لجيل وتقديس وإيمان وتصديق السلف آمن وصدق وقدّس الخلف مؤمناً بأن الكلمة المقدسة قد قالت: إن من الماء المنشأ الأول وإن السماء من جلد الماء وإن اللّه قد جبل من الطين على صورته في الأرض خليفة!

وبالعقيدة سارت الأيام يكوّن الاعتقاد بها ركناً من أركان دين لا يغرب بغروب حكم سياسي ولا يتأثر بالعواصف التي أقبلت وظلّت، قبل أن تقوم من كبوتها بابل مرة أخرى، تدوي فوق الرافدين قرون طوال بل إن العواصف التي أقبلت زادت العقيدة في تيار التاريخ عبر الهبوب الحيثي والكوشي والحكم الحوري رسوخاً على رسوخ في العقلية البابلية... فلقد تحدّرت هذه القصة عبر الأجيال، يؤكد تكرارها وتسييجها بسياج القدسية في النفس السامية عقيدة أن السماء سقف وأن المبدأ الأول الماء وأن من الماء فاضت الحياة متشكلة في صور شتّى قبل أن يخلق الإنسان... قبل أن يجبل «أيلو ـ ربو» أو الرب الإله تراباً من الأرض وينفث فيه نسمة الحياة فيصير نفساً حيّة!

بين القصص المقدّسة احتلت هذه القصة مكاناً مكيناً من القلب الإنساني فجرت عبر الدهور التاريخية كلّها على الصحف منه اليد تسجل في ترديد أن من الطين الصلصالي، من صلصال كالفخار خُلق الإنسان!

وعبر الألواح الصلصالية يسترسل الزمن يحدث أن إلى جانب هذه القصة قصة أخرى شأنها نفس الشأن من ناحية الأهمية الدينية.. تلك هي:

قصة الطوفان[١]

كرّر القلم المسماري تسجيله هذه القصة المرة بعد المرة..

ولكن...! في كل مرة اختلف البطل عن البطل واختلفت منه الأسماء باختلاف العهود والبيئة ومكان القصة... فلقد تناقلت طويلاً الأفواه هذه القصة الشائعة قبل أن تطالعنا مسفرة في عهد «عمي صدوق» ١٩٧٧ ـ ١٩٥٦ ق.م. ثالث حفيد لحمورابي، على

(١) Baby Lanian Beligion, By King.

صحف احتفرتها المعاول الأثرية في «سيبارة» تحدثنا أن: رأى الإله شر الإنسان فحزن أنه خلق إنساناً وقال سأمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي له قد خلقت! وبهائم الأرض وطيور السماء!

غضب الإله على الكائنات وأراد أن يمحوها عن وجه الأرض إلا: «كسيثوروس»؟ الذي وجد نعمة في عيني الرب الإله فتجلّى له قائلاً: اصنع لنفسك فلْكاً لأني آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه خذ معك من البهائم والطير، من كل زوجين وارتقب فورة الماء...

وصدع «كسيثوروس» بالأمر وانحسرت عنه الأعوام للسفينة بان... وأتى الطوفان وآوى «كسيثوروس» بأهله وبأزواج من كل بهيمة وطير وطفت بهم السفينة الغَمْر حتى سكن الطوفان ولكن ليتثبّت كسيثوروس مما إذا كان الطوفان قد انتهى، أطلق طيراً فعاد إليه مبتلاً، فعاود إطلاقه حتى عاد إليه للمرة الثالثة وقدماه مملوئتان بطين، وحين ذاك خرج ومن معه على جبل «آرارات» حيث رست السفينة واستقرّ به وبمن معه الفلك المشحون!

هكذا... جرى الدين البابلي بقصة للطوفان بيد أن القصة لا تنتهي هنا وإنما تسترسل وعن «كسيثوروس» تحدث بعقيدة مطوية في الدين البابلي وهي: «عقيدة الصعود إلى السماء».

إن القصة، إذ تسترسل وتحدث، تحدث: أن كسيثوروس قد ارتفع جسداً إلى السماء![1].

إلى السماء ارتفع كسيثوروس ففاز بالخلود وأما الباقون فهم الذين سجلوا تعاليمه، وبهم عمرت الدنيا وبابل من جديد.

ولكن...! تستطرد القصة فتقصّ قائلة: بيد أن النسل الجديد طلع متكبّراً جاحداً حقه على الإله وكان من نتيجة هذا الحقد أن قام يبتني برجاً في بابل ليصعد عليه إلى السماء غير أن في أثناء هذا الصعود أرسل الإله عليه صاعقة حالت بينه وبين مبتغاه وليس هذا فحسب بل إنها أصابته بما هو أوقع من ذلك وهو بلبلة ألسنته حتى لا يفهم بعضهم بعضاً.. هذه البلبلة هي التي سببت اختلاف اللغات! تلك هي القصة البابلية في صورتها الأولى قبل أن يتناول الزمن بالتغيير منها الأسماء...

أجل.. تغير البطل وتغير الاسم ولكن الجوهر من القصة لم يتغير فمن هذه المكتبة مكتبة

---

(١) Baby Lanian Beligion.

«آشور بانيبال» تطالعنا قصة من ثنايا الديوان الشعري المنقسم إلى اثني عشر جزءاً، الجزء الحادي عشر من السلسلة الشعرية يحدث أن:

كان هناك في مدينة شوريباك، على شاطىء الفُرات، رجل عاقل اسمه «أوتا ـ نابشتيم» أحبّه الإله فتجلّى له في الرؤيا واختار له اسماً جديداً فأسماه «أثراخاسيس» محذراً بأن الغضب الإلهي سيغمر العالم بطوفان، ناصحاً إياه بصنع سفينة كبيرة يركب فيها وأسرته ويشحن فيها الحيوان والطير والحبوب..

وبالأمر ائتمر «نابشتيم».. واصطنع الفلك وركبه ولم يكد يركبه حتى فار التنور.. وكما تنتهي القصة الأولى تنتهي هذه القصة من رسو السفينة واستقرارها على جبل. ولكن... هذه المرة ليس «أرارات» وإنما «نصير»! قصة مُحتم الإيمان بها. إيمان يحتم الإيمان بقصة أخرى: قصة عشتار هذه قصة أخرى مهمة في الدين البابلي فهي فيه تكوّن مذهب «عشتار» التي بدأت أهميتها بتوحيدها بـ «نانا» في «أوروك» وكان من جراء هذا التوحيد أن أضحت طبيعتها الرقيقة، كربّة الحب، متّصلة برب قديم نعرفه باسم «تاموز».. ومن ثم تجري القصة تحدّث:

إن «عشتار» قد تزوجت «تاموز» زواجاً عقبه قَتْل تاموز.. وحزنت عشتار واشتد حزنها حتى بلغ حداً أبت تحت رزئه إلاّ النزول إلى «ماتالاري» عالم الموتى لترى «تاموز» هناك وأقرّها على ذلك الإله لما كانت لها عليه من تأثير.. وغابت عشتار عن الأرض فتعطّلت كل اختصاصاتها على الأرض.. ماتت الرغبة الغريزية ووقفت الحياة في كل صورها، البشرية والحيوانية، عن تأدية الوظيفة الطبيعية... انقطع النسل وساءت الأحوال الأرضية بل وتبعتها السماوية فإن الضحايا والقرابين قد انقطعت عن السماء.. ولم تستطع السماء السكوت على هذه الأحوال الرديئة فأرسلت أمراً إلى العالم السفلي بإخلاء سبيل عشتار... وأذعن للأمر وعادت إلى الأرض عشتار ومعها عاد حياً «تاموز» **فقد بعث** من جديد «تاموز»!

شغلت هذه القصّة الملخص فيها «المذهب العشتاري» ناحية مهمة في الدين البابلي وكانت أساساً لهذا المذهب الذي يطالعنا باسم:

«المذهب العشتاري» في كل عام يُحْتَفل بوفاة تاموز ثم **ببعثه** وعودته من عالم الموتى إلى عالم الأحياء!.. في كل عام كان الكهنوت العشتاري بهذه الذكرى يَحْتَفل ومن حوله العقلية الجماعية أفواجاً تحتفل عن عقيدة وإيمان فإعلان **موت الرب** تعقبه مناحة، ونواح لا يهدأ حتى يُعْلَن **بعث الرّب!**

تقليد، كوّن في المذهب العشتاري الجاري في مجرى الدين البابلي: **عقيدة موت الرب وبعثه**

قصة بعد قصة من العهد البابلي إلينا بها هذه المكتبة الآشورية تُلْقَى فعلى الألواح المنتشرة منتشر الكثير من القصص ومن بين هذه القصص: **قصة الإلقاء في اليمِّ.**

من «عقَّاد»، من الألف الثالث ق.م، تأتي هذه القصة تحدِّث عن طفولة «شارجاني شار علي» أن سرجون الأول الذي إلى عهد قريب كان وجوده كشخصية تاريخية فيها شكوك حتى أثبتت المعاول الأثرية، حديثاً، له وجود كشخصية حفّت بها وعلقت بحياتها الأساطير فإن كثيراً من السجلات التي اكتشفت حديثاً في نيبور تُسجِّل وجودها بهذا الاسم وقهرها «سومير» وإقامتها للعنصر السامي سيادة عاشت ردحاً وعرفتها دنيا الشرق القديم باسم عقاد...

على دنيا الشرق القديم تركت هذه الشخصية أثرها فحاكت مخيِّلة الأجيال من حولها الغريب من القصص وأحاطت حياتها بالغريب من الأساطير التي بدأت تتخذ محوراً طفولة رأس عقاد... فبين السجلات التي يُملكنا إياها التاريخ نمتلك سجلاً ضمته «مكتبة آشور بانيبال» عليه جرى القلم المسماري يروي عن طفولة هذه الشخصية قصة تحدِّث:

أن أم «شارجاني شار علي» قد قذفته في النهر بعد أن أودعته سلة من خوص... وبالوليد جرى اليَّم وتقاذفته التيارات حتى رآه «عكّى» فأنقذه واتخذه ولداً... ورأته عشتار فأولته رعاية خاصة حتى اشتد عضده وقوي ساعده ثم ما لبث أن منحته حكم البلاد.

أسطورة! أجل، أسطورة اليوم ولكن من قصص دين الأمس كانت بالأمس!

هذه هي قصة الإلقاء في اليم التي تجيء إلينا من ذلك الماضي البعيد عن شخصية عاشت في الألف الثالث ق.م لتطالعنا كيف تنمو من حول بعض الشخصيات التي تركت أثرها على التاريخ المبالغ فيه من القصص واللاَّمنطقي من الأساطير!.

من قصص هذا الدين يأتي إلينا الكثير المنتشر على الألواح الصلصالية المنتثرة والذي تقودنا طبيعته إلى السؤال الطبيعي أكان في كل مراحله أو في بعضها وضعياً أم كان له أنبياؤه، عرف بهم الرافدان صفة النبوة؟

سؤال يلج بنا في نطاق هذا الدين:

مشكلة النبوة

للعقل الإنساني احتفرت المعاول الأثرية في العنصر السامي أصلاً لفكرة النبوة التي تطالعنا تحت لقب «نابو»...

تحت هذا اللقب تبرز واضحة من ثنايا غموض الماضي وإبهام فكرة النبوّة، بل إن عن هذه الفكرة يذهب بعض الغموض ما قد أزاحت عنه المعاول الأثرية من أسماء أحيطت بالتقديس إحاطة أبت بها المخيلة البشرية إلا أن ترقى بمن قدّست إلى السماء؟... سَهَّل لها الأمر اعتقادها بالدواب المجنّحة... هذا الاعتقاد الذي تركته مرسوماً فيما قد تركت من آثار أطلال قصر خراساباد[1] ومن الضريح الذي أقامه في نينوي «سِنْ ـ خرب»... فإذا كان كسيثوروس» قد رُفع إلى السماء وفيها قد خُلّد، فإن هناك منْ إلى الأرض عاد بعد رقي إلى السماء..!

أجل.. إن «إيتانا» قد رقى إلى السماء وأمام العرش الإلهي هَوَى ساجداً!. وإن «آدابا» أسْري إلى السماء، وبعد اختيار بتقديم وعاءين له مُسِحَ بالزيت وخُلعَت عليه بردُةَ!

الصعود والرقي إلى السماء عقيدة، توارثها «المؤمنون» كحقيقة لا تشوبها شائبة فقد ولّد العقيدة الاعتقاد أن السماء سقف مبني لعرش الإله!..

كلا، لا يتسرّبن إلى الذهن أن النصوص واضحة القول بأن الدين البابليّ اعتبر هذه الشخصيات أنبياء أو رسلاً ـ ما زالت الحقيقة بحجب الماضي محتجبة عما إذا كانوا أنبياء بالمعنى المدرك من كلمة «نبوة»... فعن «الرسالة» تطالعنا مبهمة غامضة الفكرة كفكرة تأتي في خضم الامتداد الآشوري إلى الشمال عندما تغير المقرّ الإمبراطوري من «آشور» إلى «كالح» ومن «كالح» إلى «خراساباد» فإلى «نينوى» التي ظلّت عاصمة للسيادة حتى سقوطها بقيام الإمبراطورية البابلية الأخيرة وتسنم الكهنوت البابلي مكانته العلوية ومكانه المسلوب ليطالعنا في ومضات الغروب:

الدين البابلي في العهد البابلي الأخير

عادت بابل وومضت في أفق الوادي ومضات مدنية فيها من مشعل الماضي النور! وبعودة بابل قوية، قوياً عاد لها لاهوت ـ عاد الكهنوت المردوقي فعاد الإله السماوي يعبد تحت اسم «مردوق»!

وبعودة «مردوق» تلألأت عبادة «عشتار» وعبادة «أم الإله» سيدة السماء! وفي ومضات الغروب تطالعنا المعتقدات والعقائد القديمة أقوى منها في أضواء الشروق وأشد منها جلاء...

كلا.. لم يبهت الزمن من الدين ألواناً ـ نفس اللون في أضواء الغروب نفسه في أضواء

(١) في اللوفر.

الشروق فـ «مردوق» بل بالأحرى الكهنوت المردوقي ما زال حياً، قوياً منتعشاً، تطالعنا آثاره عبر الأجيال بالسجل الحامل اسم «الحكمة»... في هذا الكتاب المودعة فيه الحكمة البابلية حكمها تجري النصوص الأخلاقية في ومضات الغروب هاتفة بالإنسان:

«لا تقدم لخصمك شراً.. أحسن لمن أساء إليك».

وتسترسل: «إن مخالفة الإله جلاّبة الرضاء.. إن الصلاة تنقذ من الآثام...» ثم تسترسل وبلون تأملي تصطبغ النصوص فتتناجى: «كم بين هذا العدد العظيم من الناس يُوْجَد أناس يعرفون أنفسهم حق المعرفة... ومَن مِن بينهم لم يضلّ؟

ومَنْ منهم لم يأت بإثم؟ ومن ذا الذي يعرف طريق الإله؟ ثم تنثني النصوص، وفي صورة صلاة استغفارية، من منبع الروحِ تجري للإله تناجي:

«إنني سأعبدك ولن ألمس الشرّ!... فاغفر لي الذنوب التي قد ارتكبتها عن علم وعن غير علم منذ طليعة الحياة إلى هذا اليوم واطرد عني الذنب»!

في هذه النصوص تبرز بابل في هذه الفترة التاريخية من لحظات الغروب كما قد كانت منذ الشروق!...

ولكن.. كبابل القديمة ليست بابل الجديدة فلتوهج الضوء وميض يدلّ على أنه الغروب!

أجل... إن السحب المقتّمة بدأت تتجمّع في أفق الشمال حيث الجنس الآري بعنصره الإيراني متربص يحدج سانح الفرص، بل وظاهر التوثب يتوثب والأيام من «نبوخادنزار» الثاني إلى نبونيدس» الأول تسبر... وامتدّ المد الفارسي وانتشر العنصر الآري تابع الدين الزرادتشي...

وبين الرافدين اغبر وجه الزمان!... عن مدنها إلى مدن السيادة الساطعة بدأ الوجه الإنساني يتحول متحولاً إلى «إكباتانا» و«سوسا»... وبهذا التحول بدأت تغيض «لارسا» وبدأت تتهاوى «نيبور»، وإلى أطلال بدأت تتحول عاصمة الجنوب «أور»... إن «أور» حتى هذا العهد ما زالت مدينة قائمة فيها تقوم من الدور الفارسية دور بيد أن في آفاقها يتجاوب ريح الغروب كأن الزمن الذي افتتحت بده بفورة الفرات ومدّه بين الرافدين رواية قد كفّت عن التسطير فقد جفّ المداد!

عن هنا قد تحوّل كل شيء! كل شيء حتى الفرات، علامة على أن الرواية التي قد افتتحت بمدّه، بجزره قد اختتمت منها الفصول!

جفّت «جنات عدن» وبجفافها بدأ من عليها يجفونها.. عن الجدب بدأت عصا الترحال تضرب بعيداً وشيئاً هُجرت الديار فبدأت الأبنية تتداعى وبدأت تتكوّن الأنقاض.. بدأت المدينة المقدسة الضامة (مكة) أو (بيت الإله) تستحيل أطلالاً...

ولكن... عن هذا الدين وعن هذه المعتقدات لا تجفّ الفكرة يجفّ ذلك الفرع من الفرات ويمحو أثرها الهبوب الفارسي فالمقدوني.. فمرور الزمن على أضفة الرافدين ينساب هامساً:

لئن كان قد جفّ الفرات فجفّ المداد وتراخت يد الزمن عن الاسترسال فطوي سِفْر الدين بين غلاف غير رقيق من الرمال فإن هنا في طيّ الأطلال. في صدور تلال «جنات عدن» منتشرة في تاريخ الدين للعقل الساميّ أولى الصفحات.. سطور، سطرها قبل أن يذوب في خضم التيار العالي ويشعّ فيه من تفكيره الديني تفكير فللمعاول الأثرية هنا رنين، أصداؤه تتجاوب مردّدة رواية دين يقوم على الاعتقاد بألوهة إله مستو في السماء على عرش!.. إله على الجبال يتجلّى وللمختار ملكاً بيت ببنائه يأمره! إله مكانه السماء وله فيها بيت على غرار بيته في «أور» القائمة في قمته «مكة».

الفصل الثالث

الدين عند العبريين

الدين في هذا الشعب الذي بدأ ينمو كفرع من دوحة تفرعت منها في سحر الإنسانية الفروع غداة هبوطها من جبال «أُور أرتو» وانسيابها من أعالي الدجلة إلى وادي الفرات، رواية!.. فبينما كان الجنس الأصفر أوسومير يخضّب من الرافدين الجنوب، وعلى الألواح الصلصالية يجري القلم السامري يحدّث الأجيال أحداث الأجيال، كانت فروع هذه الدوحة تمتد في كل اتجاه، ورهوط تنمو إلى أفخاذ وعمائر ينمّيها الزمن إلى قبائل تنتشر مشتقة من اسم أبيها لها اسماً... فعلى هضبة إيران تنتشر من عيلام؛ «عيلام»، وفي أعالي الدجلة تنتشر من آشور؛ آشور، ومن أرم تمتد نحو الجنوب الغربي في نزح وتفرع مستمر فروع «أرم»... وبين الرافدين انتشرت هذه الفروع قبائل يتسلسل النسب بينها حلقات يحدِّث أن إلى أرفخشذ منها النسب يعود، وأن أرفخشذ، وأرم، وعيلام، وآشور، أولاد سام ابن نوح..

أجل... بينما كان الجنس الأصفر يجري من أواسط آسيا مخضّباً من الرافدين الجنوب، كانت من جبال «أُور أرتو» تنمو هذه الفروع وإلى سام في نسبتها تعود... بينما تهبط من نفس الدوحة فروع أخرى تمتد وتنتشر قبائل فناحية عيلام ينتشر كوش.. و«مصرايم» يضرب في الأرض ويمتد امتداد «كنعان» نحو الجنوب الغربي بأولاده اليابسي والأرفادي، والعموري والصحاري والسيني، والحثي، والحماتي، وصيدون، والحويّ، والبرجاشي، غامراً وادي الأردن واليرموك وغامرة حلقاته سلاسل لبنان.. وكلها يجري بينها النسب مُحدثاً بأن كوش ومصرايم وكنعان؛ أبناء حام وأن حام بن نوح...

هذه هي كنعان التي تفرّقت قبائل وقطنت من الأرض أرضاً طلعت فيها على التاريخ كنعان وأرض كنعان، وطلع بينها، ليحتل أرضها العبريون..

في هذا الشعب، المرتبط تاريخه بتاريخ الشعوب المتاخمة، مصر والكلدان، والكادح في سياسته نحو سيادة يُشارف بها مشارف السيادتين المتاخمتين. يطالعنا للدين تاريخ تاريخه نفس تاريخ هذا الشعب، رواية ترويها أنفاس «الكتاب المقدّس» القائم عليه هذا الدين؛ «العهد القديم»...

إن هذا الدين الذي يُمثل مُحْتجب الأسس في بناء أديان قائمة في الحاضر وعليه تقوم صروحها، له الأهمية في التاريخ الدينيّ والتاريخ الفكريّ لما قد صاحب الاعتقاد عنه أنه بين الأديان، «المنزّلة» دين منزّل. ومن ثم حرّي بالفكر لا ثمة شك وأهميته هذه الأهمية ألا يقنع بالوقوف من وراء أغلفة الأزمان يراه على لوحة الأجيال بريشة الشروح وألوان التأويل، راضياً بشرح من شرح، آخذاً بتأويل من أوّل.

كلا! ولا كما تطوّر من بعد وغلفه من الفلسفات الغلاف... كلا! وإنما كما هو! كما هو أصلاً وماهية.. وكما كان في تربة الماضي السحيق له نتناول نحلّل منه العناصر فنعلم منه التكوين ومن ثم فاقترابنا من:

العناصر المكوّنة للدين العبري

إلى الماضي تطوي بنا صفحات «العهد القديم» الحاضر، وإلى زمن زمنه حوالي فجر الألف الثاني ق.م تقودنا وتهدينا للتاريخ أضواء..

إلى أرض كنعان حين بدأ الارتحال «السوري ـ العراقي» من الرافدين نعود. فعلى هذه الفترة الزمنية من القرن الرابع والعشرين ق.م إلى القرن التاسع عشر ق.م تلقي المعاول الأثرية أضواءها فينحسر وادي الأورنتس عامراً بالقبائل الرُحلّ، وتظهر ضفة الأردن قد خضّبها اللون من الارتحال ـ تنحسر الأماكن حاملة أسماء[١] القبائل بعد أسماء الأنهر والجبال فنرى الأماكن التي قطنت خلال الألف الرابع كلها سامية فعمورية وموآب في الجنوب وأرم في الشمال، وكلها تنطوي تحت اسم واحد: كنعان.

وكما تسير بنا الأيام نرى مدناً تنشأ على غرار ما قد ترك المرتحلة بين الرافدين من مدن ونرى كما عرف العرف وجرت العادة أنه إذا ما طاب لمرتحل المكان واعتزم فيه الاستقرار كان إعلان هذا العزم إقامة محراب لمن حمله معه من معبود... ومن حول المحراب أو «البيت» ينيخ المرتحل وتنصرف عنه الأيام وبه تسير لتنشره أباً لقبيلة يقف فيها هو الكاهن وفيها هو القاضي وبالتالي الملك لمدينة نشأت ببناء «البيت» ـ من أسماء هذه المدن المشتقة مما

(١) Archeology of Palestine, By A. Albright.

بنى للألوهة والربوبة من بيوت، ما زال يرنّ في المسمع البشري:

«بيت شماس»

«بيت لحم»

«بيت أناث»

«بيت إيل»!

ولكن... كما تسير الأيام حول نهاية هذه الفترة من الزمن نرى فلسطين قد أصبحت أكثر استقراراً، وأما الأردن فظلّ سمته الارتحال، وعليه في بداوة تمرح البدو الرُحّل ما تأتي بعد الأدلّة من موآب. وكما بذلك يتنفس، عبر الأواني والسجلاّت والتماثيل، صدر «بيت مرسيم» كما يتنفس هذا الصدر ويعلن أن «بيت مرسيم»، هذه البقعة الواقعة بجوار مصر، كان عليها في هذا العهد يمتدّ ظلال العرش المصري، بل إن سجلات الأسرة الثانية عشرة تساعدنا على تكوين فكرة عن إلى أي مدى كان الظل المصري ممتداً على هذه القبائل وهذا نراه فيما تطرحه الآثار نفسها ففيها اللون المصري وفيها ما يشهد بأن البلاط المصري قد بلغ الصلة الكاملة بهذه البقاع في مغيب القرن العشرين ق.م ـ وعلى هدي المعاول الأثرية نفسها نرى أن غرب فلسطين وجزءاً من سوريا كانا تحت ضغط القوة المصرية، وعلى هذا الهدي تستطيع يدنا أن تجري فتحدّد أشعة من النيل تقْبل مخترقة شمال دمشق إلى أواسط فينيقيا حيث تتلاقى بأشعة بابلية مصدرها سومير.

هذا العهد الذي فيه تتلاقى أشعة النيل والرافدين على فلسطين إنما هو الذي يستجيب للعهد الذي عاش فيه آباء إسرائيل...

إلى هذا العهد تطوى بنا صفحات «العهد القديم» الحاضر فينتشر عصر شاهد بناء «مكة» على صفحة أور وإبطال القرابين من البشر والاستعاضة عنها بالكباش، وشاهد في وادي النيل تجديد بيت «السيد الشهيد» واحتفار البئر المقدسة في فناء «البيت العتيق»، إلى هذا العصر يعود الفكر ومن الرافدين إلى أرض كنعان يقتفي أثر فلول مرتحلة يوحد بين مختلف أهدافها هدف واحد يتلخص في الملك والتملك وامتلاك ناصية «أرض اللبن والعسل».

ولكن... ليتبع الفكر من بين المرتحلة فرداً واحداً ارتحل من أُور الكلدان.. الفرد العائد بأصله إلى أرفخشذ بن سام بن نوح أب العبريين وأرومة إسرائيل، من كان عهد ذلك، حتى الارتحال، اسمه:

«إبرام»! إن إبراهيم مَنْ إليه إسرائيل الرجل بأبوته يعود ومَن إليه إسرائيل الشعب بأبوتها

تعود، ليس عنّا الآن بقصي ولا علينا بغريب فإلينا يأتي عبر صفحات «العهد القديم» وعليه تترامى أضواء العصر وتنيره للتاريخ أضواء فمن ثنايا حجب الماضي يطلع إبراهيم علينا كلدانياً أورياً عاصر عصر النهضة السامرية، وفي أعقاب هذه النهضة نراه يضرب عصا الترحال من شاطىء الفرات إلى سفوح ومعتليات كنعان نازحاً إلى أرض اغتراب يسوقه إليها أمل إثراء وإنسال.

من أور إلى حاران هبط إبراهيم، بأبيه تارح وابن أخيه لوط وبزوج هي في نفس الآن له أخت، ضارباً في الأرض مواطن الرزق.. وهناك سارت بإبراهيم الأيام لتبلغ به يوماً وجد فيه نفسه قد بلغ منشود الثراء فله الآن المقتنيات وله من النفوس إماء وعبيد... يوماً آن فيه عن حاران الارتحال إلى أرض.. كنعان!

وهبط إبراهيم بمن معه وبما يملك وعلى كاهله من العمر قدر غير قليل من السنين، كنعان.. مجتازاً من أماكنها «شكيم» إلى «بلوطة مورة» حيث حطّ، ردحاً، الترحال ومنها تلفت يستعرض أرض كنعان فرأى أن الأرض أرض حقاً باللبن وبالعسل تفيض!

وهنا يطالعنا «العهد القديم» بما نفهم منه أن إبراهيم قد طلع على من حوله قائلاً: إن اللّه قد تجلّى لي وقال: «لنسلك أعطي هذه الأرض»!

وعزم إبراهيم على الاستقرار في هذه الأرض فقام وبنى مذبحاً للربّ.. ثم بدأ يطوف بين بقاع هذه الأرض التي بدأ يجري الحديث عنها بين من حوله همساً أنها لنسل إبراهيم، «أرض موعودة»!

وعلى هدي التاريخ الأثري وتحت أضوائه المنعكسة أشعتها على «العهد القديم» والسفرين الأولين من الأسفار الخمسة الموسوية يبرز إبراهيم! فكما نُتابع سطور «العهد القديم» نرى إبراهيم على التاريخ قد بدأ يخطو فمن هناك إلى الجبل شرقي «بيت إيل» ينصب خيمة علامة على اختيار المكان مكان إقامة، إذا ما منه ضرب عصا التسيار فإليه سيعود ومن ثم نراه يرتحل ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب، يهبط مصر يُصاحبه في هذا الهبوط لوط، وبعد غيبة فيها يعود إلى هذه الأرض ثرياً، ثراء سببه كانت حظوة «ساراي» لدى الملك المصري! وثرياً عاد إبراهيم إلى «بيت إيل»، إلى المكان الذي نصب فيه خيمته، إلى مكان المذبح الذي أقامه، وهناك.. دعى باسم الربّ!

ثم، كما يسير الحديث في «العهد القديم» نفهم أن مثله أيضاً قد أثرى لوطاً فاحش الثراء فله مثله الغنم والبقر والرجال والخيام، وأن أملاكهما كثرت فلم تعد الأرض تحتملهما معاً فافترقا واعتزل كلاهما في ثرائه من كان له في أيام الحاجة صاحباً.

ويستأنف، العهد القديم، الحديث فيحدثنا:

أن: ورفع لوط عينه ورأى كل دائرة الأردن ورنّ بين جنبيه من نفسه صوت بنفسه هتف: إن هذه الدائرة من الأرض كجنة الرّب وكأرض مصر!

واختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل شرقاً وسكن سدُّوم، مرتحلاً عن إبراهيم الساكن أرض كنعان.

ورأى إبراهيم اعتزال لوط عنه واختياره كل دائرة الأردن... لوط الذي نراه تماماً، كما تصوره بوضوح سطور الإصحاح التاسع عشر من «سفر التكوين». وهنا... يحدثنا «العهد القديم»! إن الرب قال لإبراهيم ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه، جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً لأن جميع هذه الأرض الذي أنت ترى، لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد... قم وامش في الأرض، طولها وعرضها، لأني لك أعطيها!

أجل... هذا ما به قد طلع إبراهيم يقول لمن حوله وردّد مَنْ حوله منه القول ـ ويستأنف «العهد القديم» الحديث ويحدثنا: أن قد نقل «إبرام» خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا العموري التي في حبرون.. وبهذا ندرك تمام الإدراك أن بهذا الاستقرار في حبرون بدأ تاريخ هذا الشعب وبدأ:

تكوّن آل إسرائيل بين القبائل العبرية

في حبرون بَنَى إبرام مذبحاً للرب وقطع عهد محالفة مع العموريين، أهّله إليه ما لديه الآن من نفر وجند وغلمان متمرنين وعددهم غير قليل، فإبرام الآن قد أصبح مرموق المكانة ومعروفها بين آباء القبائل، وآباء القبائل هم كهنتها وملوكها... غدا إبراهيم مخطوب الودّ بينها فهذا «مَلْكي صادق» ملك شاليم يحتفي بإبرام فيُخرج خبزاً وخمراً ونفسه كان، كما تذهب نصوص «العهد القديم»، كاهناً للإله العليّ، هاتفاً بإبراهيم بنداء يعطينا فكرة عن العقيدة الدينية عند تلك القبائل في هذا العهد:

«مبارك إبرام من اللّه العليّ ملك السموات والأرض».

«الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين»

بين هذه القبائل وفي أرض كنعان وله الآن من الدنيا ثراء الدنيا، قام إبرام وقام حافراً الآبار، مقدّماً القرابين من اللحم، فطالعاً على الوجه الملتفت والدنيا المواتية بنداء ذهبت به الأرجاء الكنعانية تدويّ:

إن الرب قد قطع مع إبرام ميثاقاً قائلاً:

«لنسلك أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

«الإصحاح الخامس عشر من «سفر التكوين»

لقد كان الحديث عن هذه الأرض فيمن حوله همساً أما الآن فقد أصبح جهارة أن أرض كنعان، الأرض التي باللبن وبالعسل تفيض، أرض موعودة لإبراهيم ولنسل إبراهيم.

ولكن.. ليس لإبرام نسل و«ساراي» حتى الآن لم تأت إليه بوريث.. بيد أن في بيت إبراهيم كان الطابع الكلداني ما زال الطابع فإبراهيم كلداني ولتقاليد الكلدان يتبع فإذا الزوج الشرعية لم تأت له بولد فالعادة قد جرت أن تهب الزوج لزوجها أمتها ليستولدها نيابة عنها! وإبرام الآن قد تجاوز من العمر الثمانين.. لهذا السبب وهبته ساراي «هاجر» أمة أتت بها من مصر أتت، وأتت هاجر بإسماعيل!

لقد سمع «إيل» بعد طويل نداء فهذا «إسماع ـ إيل»! وهذا إسماعيل ينمو وبه تسير الأيام، وإبرام يزداد ثراءً على ثراء.. كل ما حوله يشير بأن ستكون به نفس ظاهرة كنعان ـ في وسط جمهور من الأمم تعود بنسبتها إلى أب واحد هو كنعان سيكون إبرام، ككنعان، أباً لجمهور من الأمم..

وهنا يستأنف «العهد القديم» الحديث بما نفهم منه أن إبرام قد طلع وقد تجاوز الآن التسعين من العمر يقول إن الرب له تجلّى وقال:

إني سأجعلك أباً لجمهور من الأمم.. ملوك منك يخرجون.. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً وأُعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً!

وبعد أن يطالعنا «العهد القديم» بالعهد... يطلع علينا إبرام وقد تغيّر اسمه إلى إبراهيم إشعاراً بأنه سيصبح أباً لجمهور من الأمم ـ فإليه قد أهدت سارة ابناً شرعياً: إسحاق!

ابن من سارة ليس كابن من هاجر فالجارية لا تُهدِي وإنما تُستَوْلد فتلد أما إذا أتت السيدة بولد فهذا لزوجها إهداء تغدو به لابنها المكانة الأولى وهذا تقليد عرفته الكلدان ومنه طبعها الطابع، ونعرفه في هذا الصدد من سطور «العهد القديم» التي تجري تحدث أن بابن سارة قد سرّ إبراهيم سروراً، وعن هذا السرور تتكشّف الأيام بأصوات من حول إبراهيم تُردّد:

إن اللّه لإبراهيم قد قال:

«إن إسماعيل قد سمحت لك فيه ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي من سارة..».

وتجري الأيام وبالأحداث تحدّث أن سارة قالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني إسحاق...

ويفهم من سياق الحديث أن هذا الكلام قد قبح في عين إبراهيم.. ولكن... يسير «العهد القديم» فيقول: إن أمام هذا الكلام قال اللّه لإبرام: لا يقبحن في عينك هذا الكلام! في كل ما تقوله سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق سيقوم لك نسل!

وابن الجارية؟ أما ابن الجارية فأيضاً لأنه منك نسل سأجعله أمة... إلى الحديث يذهب «العهد القديم» ليحدث:

إن إبراهيم بكّر صباحاً وصرف الجارية وابنها الذي قد تجاوز من العمر ثلاثة عشر عاماً، فمضت به إلى حيث تاها في بريّة بئر سبع...

ولنترك الآن إسماعيل في برية بئر سبع ونعود إلى إبراهيم ونرافقه والأيام به تسير فتزيده على ثراءٍ ثراءً وعلى بأس بأساً فالآن رؤساء القبائل أو بالأحرى ملوكها، كأبي مالك وكفيلول، يخافانه ويسألانه حمى الجوار...

إن الأيام بإبراهيم قد سارت فأسرّته من سارة بإسحاق من غدا له الآن وحيداً وصبياً لديه عزيزاً.. عزّ حتى كاد يقدّمه ذبيحاً للإله لو لم يفتد بكبش الفداء!

أجل... على هذا المنوال انصرفت الأيام بإبراهيم وفي أرض كنعان يعيش بعد أن عاش من العمر طويله في أور...

والآن... الآن آن لنا أن نتساءل: أي دين لإبراهيم كان الدّين؟

لا يغرّبن عن الفكر أن السؤال خطير ولكن يسأل الفكر هذا السؤال وله الحق المطلق في أن يسأله إذا أراد الإيمان الحق واتقاء مواطن الزلل..

ليس من مجيب حقيق الإجابة إلا ذلك المصدر الوحيد، ذلك المرجع الصحيح، مرجع المراجع قاطبة في التحدث عن إبراهيم ـ لذلك السجلّ الأول الذي سجّل لإبراهيم حياة وتاريخاً، الكتاب المقدس للدين العبري أو «العهد القديم».

ولكن... تنشر اليد الصفحات وتعود تَطْوي لتنشر فينتشر لها ما كان في طيّات الصفحات مطوياً، ويأتي إليها من هذا المرجع الصحيح الجواب الصريح:

إن لم يجىء إبراهيم بدين جديد يقف بين الأديان حنيفاً!

في الإصحاح الرابع عشر من «سفر التكوين» نرى أن معرفة «اللّه العلي مالك السموات والأرض» كانت في عصر إبراهيم معرفة العصر.. نرى هذه الحقيقة كما نتّبع سير إبراهيم

في أرض كنعان حتى تقف بنا السطور عند تلك الحادثة التي تتلخص في سطو قبليّ على ماشية ابن أخيه لوط، واسترداد إبراهيم المال المغتصب، وابتهاجه بانتصاره فـ «ملْكي صادق» ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً للّه العلي وباركه وقال: «مبارك إبرام من اللّه العلي مالك السموات والأرض».

الإصحاح الخامس عشر من «سفر التكوين»

هذا ملكي صادق، ملك شاليم أو أكثر إيضاحاً أورشليم، كاهن ورأس الكهنوت الكنعاني[1] يقول القول وعلى حد هذا التعبير ويدين بدين اللّه العلي مالك السموات والأرض وبذلك يمثل روح العصر ـ وهذا إبراهيم نراه في ترديد لروح العصر أيضاً يقول:

«رفعت يدي إلى الرب الإله العلي ملك السموات والأرض».

الإصحاح الرابع عشر من «سفر التكوين»

لا يذكر «العهد القديم» إلاّ أن إبراهيم آمن بالألوهة المعترف بها في عصره.. ألوهة الرب الإله ملك السموات والأرض، وتبعاً لذلك يسترسل «العهد القديم» فلا يذكر لإبراهيم ديناً جديداً به جاء أو به انفرد أو به كان خاصاً ـ كل ما يطالعنا في هذا الصحيح من المراجع العبرية في صدد إبراهيم، ألوهة هي ألوهة العصر ودين هو دين العصر ومن ثم فلا نكرّر «للعهد القديم» السؤال وإنما إلى ناحية أخرى نتجه لنستعرض فيها من خلال «العهد القديم» التفكير الديني عند أب التوراة، مستعرضين هذا التفكير منذ أطواره الأولى ـ منذ اللحظة التي هبط فيها إبراهيم من أرض الوطن «أور» أرضاً غريبة فيها أحسّ بالاغتراب ـ أرضاً، كما قد رأينا من قبل، تعمّرها قبائل من الأمم وكل رأس فيها فملك وكلها تعود إلى أب واحد؛ كنعان... فنسمعه يقول إن الرب الإله قد حدّثه وقال:

«أجعلك أباً لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً، وملوكاً منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً!».

الإصحاح السابع عشر من «سفر التكوين»

يتساءل الفكر عن «العهد الإلهي لإبراهيم»؟

أيُّ العهود هذا العهد وأي الصُور منه الصورة؟

(١) Introduction to the Bible, By S.Cook.

سؤال، لا يجيبه بصراحة إلا هذا «الكتاب المقدّس»... وهذا الكتاب المقدس بصراحة يجيب بأن الإله لإبراهيم قد أوضح قائلاً:

«هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يختّن منكم كل ذكرا! فتختتنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم... فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً!».

الإصحاح السابع عشر من «سفر التكوين»

ويزيد «الكتاب المقدّس» إيضاحه إيضاحاً أن:

«وأما الذكر الأغلف الذي يُختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها، إنه قد نكث عهدي!».

الإصحاح السابع عشر من «سفر التكوين»

أجل... ذا هو «العهد» عهد الإله إبراهيم عهد يقوم على: الختان! عهد، يقوم على علامة في اللحم وفي ذلك الموضع من الجسم... عملية أتاها إبراهيم وأجراها على من في كنفه والحياة به تسير، كما يشير نفس الإصحاح، إلى مغربها فقد طلع بالنداء وله من العمر تسع وتسعون عاماً..

«وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته!».

الإصحاح السابع عشر من «سفر التكوين»

«ثم أخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكور من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلّمه اللّه!..».

الإصحاح السابع عشر من «سفر التكوين»

كلا! لم يجيء إبراهيم بدين جديد ولا بمذهب جديد في دين قديم بإقامته هذه الصورة من «العهود».. فالعهد إنما عهد الالتزام به امتلاك إبراهيم ونسل إبراهيم أرض كنعان...

انصرفت الأيام وفي أرض كنعان إبراهيم يعيش متنقلاً بين بئر سبع وحبرون حتى بلغ إسحاق مبلغ الرجال وورث كل مال أبيه. وهنا تبدأ حياة هذه الأسرة تتخذ لوناً آخر فلإسحاق يُولد: عيسو أو أدوم: ويعقوب... وبيعقوب يطالعنا: طلوع اسم إسرائيل على التاريخ.

أجل.. تبدأ حياة هذه الأسرة تتخذ لوناً جديداً فإبراهيم قد ثوى بعد عمر مراحله كانت أحلام أبوة وامتلاك أرض كنعان وإسحاق قد قام يبدأ عمراً تقتطع مراحله لون هذه الأحلام

تزيدها في عينه سهولة ما قد ورث من مال فنراه ينتجع من الأرض «رحو ـ بوت» بمعنى أن الرب قد أرحب له المكان ويقيم مذبحاً فيه علامة على الاستقرار ويتبع أباه في حفر الآبار فيحفر فيه بئراً.

وظلّت في هذا المكان تطوف في مخيلته الأحلام! أحلام لم يستطع لها إبراهيم تحقيقاً ولا استطاع لها هو أيضاً تحقيقاً في نهاية مراحل حياته إذ نراه يبارك يعقوب بصيغة لا يتجاوز معناها ذلك الحلم بامتلاك أرض كنعان:

«فليعطك اللّه... ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل».

الإصحاح السابع والعشرون من «سفر التكوين»

حديث «العهد القديم» عن رحلات إبراهيم حديث «العهد القديم» عن رحلات يعقوب وبناء إبراهيم في «بيت إيل» بيتاً بنى يعقوب لإيل بيتاً جديداً دعاه «إيل ـ بيت إيل» ونصب فيه حجراً، الحجر الذي إليه منه كان مستند الرأس وفي جانبيه يطوف الحلم بملوك منه سيخرجون وأن له ستُعْطَى الأرض التي وعد بإعطائها اللّه لإبراهيم جده ولإسحاق أبيه، ومن ثم فاستبداله اسمه يعقوب باسم معناه المدافع عن «إيل» فاسمه قد غدا:

إسرائيل

أجل... إن اسم ابن إسحاق قد تحوّل الآن من يعقوب إلى إسرائيل.. وكما تسير بإسرائيل الأيام تأتي إليه بأبناء اثني عشر... منهم نما اثنا عشر فرعاً، ستنتشر كما انتشرت، من بعد، فروعاً وكما سنراها بعد قرون تطلع قبائل باسم:

شعب إسرائيل

أما الآن فيسترسل «العهد القديم» فيحدث عن قحط أصاب الأردن حدا بيعقوب أو «إسرائيل» أن يغادرها ليسكن ببنيه، صغارهم وكبارهم، التخوم الشرقية من مصر.. ومن بعد ليهبطوا مصراً ويغيبوا فيها لقرون من الزمن تاركين وراءهم أبناء عيسو أو أدوم في أرض أدوم إلى جانب الأمراء الحوريّين من بني سعير الحوري في جبل سعير..

فإلى سفوح جبل سعير من أرض أدوم كان قد جاء عيسو بأولاده من أمام يعقوب لأن، كما يذكر «العهد القديم»، كلاهما كان غنياً جداً فلم تحتملهما الأرض معاً، فإذا كان يعقوب قد اختار الأردن فقد ذهب عيسو وسكن في جبل سعير الحوريّ من التخوم الشرقية لمصر حيث هناك ينتشر بنو سعير، الأمراء الحوريون من تُكوّن أسباطهم قبائل بجوارها قطن أدوم بأبنائه... وهؤلاء، كما يذكر «العهد القديم»، هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم

قبل أن يقوم ملك لبني إسرائيل... وأولئك هم الذين أصبحت أرضهم تعرف، في أرض سعير، بأدوم.

أجل... هجر ذلك القحط المهاجم الأردن يعقوب بأبنائه مرتحلاً إلى مصر في عهد يقترب من نهاية الأسرة الثانية عشرة فيها، وفي مصر استقر تاركاً وراءه في حبرون من أرض كنعان العبريين قبائل في عهدٍ أقتمت فيه مصر، الآفاق وأقبل غبار الهكسوس ولقرون غيّب النيل هذا الغبار الذي فيه نفسه غابت أسباط إسرائيل الأخرى حتى إذا ما انجلى هذا الغبار بإشراق الإمبراطورية المصرية انجلى في نفس الآن عن أسباط إسرائيل الاثني عشر وقد أنماهم مرور نيف وأربعة قرون من الزمن قبائل وبيوتاً يحمل كل بيت منهم اسم البيت الذي إليه بنسبه يعود من إسرائيل... ومن هذه البيوت كان بيت لآوي ومن بيت لآوي كان، في عهد تأبى الأضواء التاريخية إلا أن تجعله عهد رع موسى الثاني، فرداً يحمل اسم:

موسى! اسم، عرفناه لأباطرة عصر الإمبراطورية المصرية به تسمى الأسمياء، ومن هؤلاء كان وليد بيت لآوي في مصر الطالع على التاريخ الديني، باسمه المصري إسرائيلياً، شخصية يرتبط الدين الإسرائيلي بها كل الارتباط فإن الدين في إسرائيل مرتبط كل الارتباط بشخصية موسى ولن نفهم الدين العبري كما هو أصلاً إلاّ في مستعرض وعبر تاريخ هذه الشخصية نفسها التي نراها في عصر تتلاقى فيه أضواء مصر وآشور على سفح سيناء..

أجل... لن نفهم تمام الفهم الدين العبري ما لم نفهم تمام الفهم حقيقة تلك الشخصية التي بهذا الدين قد جاءت... هذه الشخصية التي تطلع على التاريخ كفرد أحاطها المحيط المصريّ في عهد «رع موسى الثاني» وكعضو من بيت لآوي نراها عبر الزمن عابرة باسم: موسى!

عَبْر أسفار «العهد القديم» يقتفي الفكر «موسى» عبر الزمن، فيراه.. يرى مذلة قومه وعيشهم عيشة العبودية بينما بين ضلوع كل فرد منهم ساكن ذلك الحلم الحالم بأرض سيعيش فيها سيداً.. أرض فيها اللبن والعسل أنهر، وفيها له مِلك ومُلك وفيها عنه ستُلقى للعبودية أثقال...

أجل... في مصر عاشت إسرائيل تحت وطأة العبودية، في الطين واللبن عملت وفي كل عمل في الحقل... خدمت إسرائيل مصر عمّالاً وبُناة، ولكن شيئاً واحداً كانت نفسيتها المضطربة به تضطرم ـ أمل أزكته الشدّة وألهبه منها الشعور بالحرمان والعبودية، فتحولت إلى عقيدة راسخة فكرة في صدرها كانت مطوية يعود منها التاريخ إلى عهد ذلك الأب القبليّ الذي تحدّرت منه فروعها «إبراهيم» باذر فكرة (الأرض الموعودة)!..

إلى عقيدة راسخة تحوّلت هذه الفكرة فكرة «الأرض الموعودة» فقد رسّختها ألوان الحياة الإسرائيلية في الذهن الإسرائيلي فغدت الأمل الذي يُغذّي اشتعاله نفساً أرهقها العمل ونفسية تتوق إلى عزة واستقرار وحياة فيها من ألوان السيادات للسيادة لون...

أجل.. في النفس الإسرائيلية رسّخت عقيدة: «الأرض الموعودة»! وبين جوانح كل فرد هاجع هذا الحلم كعقيدة تؤججها الذكرى وتهيجها الذكريات، وكل إليها ملتهب يتوثب فإنها عقيدة أجيال في طوايا نفسيته قد عقدتها الأجيال! وتلهّف لتحقيقها جيل بعد جيل تلهّف الجيل وتلهّف موسى.. موسى الذي تدفعه العصبية إلى قتل مصريّ ومن القصاص يخشى فيفرّ إلى.. إلى تلك «الأرض الموعودة»..

إلى ناحية في «الأرض الموعودة» فيها أبناء العمومة من أبناء إسحاق فرّ موسى.. وفي حمى الحماة من أبناء العم يهدأ الجأش ويطيب الجوار...

إلى تلك الأرض فرّ موسى وفي «مدين»، وفي بيت يثرون كاهن مدين، انحسرت عن موسى سنوات أسلمته إلى شيخوخة في ظلال حوريب، جبل صهيون..

سنون طويلة لعمر طويل انحسرت عن موسى في أدوم، أرض أبناء إسحاق بن إبراهيم، حيث نعرف لوناً إلهياً محوره «إيل ـ شدّاي الرب الذي توارثه عن الآباء الأبناء وإليهم منه حبّب له صفات ـ أحبّت فيه المنطقة الجبلية إلهاً جبلياً طبيعته طبيعة أهل الجبال ففيه الشدة والقوة، ومثل رجالها هو «رجل حرب» وعبدته، إلهاً بين البرق والرعد على الجبال يتجلّى عبر الدماء المراقة والروائح المتصاعدة.. وهناك.. هناك في أدوم انقضى أربعون عاماً وموسى في بيت «كاهن مدين» صهراً يعيش.. يعيش في أرض على بقعة فيها في أرض «المرْيَا» حيث يقول القوم إن اسم المكان: «يهوه يرأى».

أي مكان هذا المكان؟؟ إنه مكان حوله يتناقل عن الآباء الأبناء أن هنا، على هذا الموضع من الجبل، كاد إبراهيم يضحّي قرباناً بإسحاق لو لم يفتد الربّ إسحاق بكبش ويتنادى إبراهيم أن الحيّ يرى ويسمي المكان «يهوه يرأى»!.

في هذه الناحية من الأرض بلغ موسى شيخوخة في غضونها إلى قومه في مصر عاد في عهد زال فيه الحكم القديم ورفّ عهد جديد بمنفتاح نسي فيه استحقاق القصاص.. إليهم تدفعه صور على الجبين تطوف وأماني تعصف بين الضلوع، فيجمع إليه منهم الشيوخ، الرؤساء الاثني عشر وللمسامع المنْصِتَة في شغف لأنباء وموطن الأجداد، إبراهيم وإسحاق ويعقوب أو إسرائيل، في تلعثم انطلق اللسان المُوسَوي يحدّث:

أن، بينما كان يرعى غنم يثرون، تجلّى على الجبل، جبل حوريب أو سيناء، مَن ناداه:

موسى! «أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب».

الإصحاح الثالث من «سفر الخروج»

وأن المُكلّم قد واصل الكلام قائلاً:

«إني قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم، إني علمت أوجاعهم فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً.. فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر!».

الإصحاح الثالث من «سفر الخروج»

وأن، بين وميض البرق وقصف الرعد وعصف العواصف، من وسط اللهب المتأجج إليه صدر الأمر أن:

«اذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم: الرب إله آبائكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظهر لي قائلاً: إني قد افتقدتكم وما صنع بكم في مصر فقلت أصعدكم من مذلّة مصر إلى أرض الكنعانيين... إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً».

الإصحاح الثالث من «سفر الخروج»

ويستمر موسى محدّثاً أنه قال للإله:

«هأنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم؟».

الإصحاح الثالث من «سفر الخروج»

فأتاه الجواب: «أهيه الذي أهيه..! هكذا تقول لبني إسرائيل: أهيه أرسلني إليكم»!

الإصحاح الثالث من «سفر الخروج»

إن الاسم اسم جديد به يقبل موسى على قبائل إسرائيل ولها يقول إنها له خاصة.. اسم جديد رنّ في مسمع إسرائيل وهي إلى موسى بشيوخها تصغي... فتسعى إلى الذي قد آب بعد فراق طويل يهزّها بكلِم خضّبته القدسية إلى تحقيق ذلك الحلم الطويل!

اسم جديد لوقعه إيقاع ولرنته رنين، له تهش نفس إسرائيل وله تطرب فالفهم منها يدرك، أن كما لكل من سائر الشعوب المعاصرة إله خاص به يميّز لديه اسم به خاص، لإسرائيل إلهاً خاصاً بها.. فإذا كان «آمن» لمصر إلهاً، وإذا كان «مردوق» لبابل إلهاً وإذا كان «آشور» لآشور إلهاً فإن: أهيه لإسرائيل: إله!

أهيه؟! أهيه اسم على إسرائيل كل الجدة جديد لم يطرق لإسرائيل سمعاً من قبل، وإليها لم يأت إلا بهذا الذي إليها يأتي يعدها إيفاء الوعد، الوعد الذي قطعه الإله لإبراهيم قائلاً:

«جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد...».

الإصحاح الثالث عشر من «سفر التكوين»

أجل... إن «أهيه» قد تذكّر الوعد وسيفيه الآن فحتى الآن ونسل إبراهيم قبائل مشتّتة بين الشعوب، وهؤلاء هم تحت وطأة الاستعباد في مصر يئنون رغم أنهم على «العهد» الذي فرضه عليهم إبراهيم يقيمون ولكن هذا موسى يعود قائلاً إن الإله يقول إني:

«قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدي ـ لذلك قل لبني إسرائيل:

«أنا الرب وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم.. وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً... وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وأعطيكم إياها ميراثاً»!

الإصحاح السادس عشر من «سفر الخروج»

مستفسرة إلى موسى التفتت بشيوخها إسرائيل أمام حديث يذكر أن الإله قد تذكّر.. تذكّر الإله إبراهيم بعد هذه القرون الطويلة والآن يريد رعاية إسرائيل وهكذا يأتيها الجواب أن هكذا تكلّم وهكذا قال: «أنا الرب!».

«وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء وأما اسمي «يهوه» فلم أعرف عندهم!».

الإصحاح السادس من «سفر الخروج»

هكذا يبدأ في تاريخ الدين تاريخ أهيه...

وهكذا يبدأ في تاريخ التفكير الإلهيّ «أهيه» إله لإسرائيل يتّخذها شعباً ويكون لها إلهاً ـ بوعده يفي لها فيعطيها أرض كنعان حيث تطلّع فيها بين الشعوب السائدة شعباً سيداً وبين الشعوب طراً، «الشعب المختار!..».

أجل... بالمحلّية بدأ تاريخ أهيه.. إله، به إلى قومه جاء موسى عندما إليهم عاد ليعدهم باسمه إيفاء الوعد، ويمتلك، باسمه، منهم العنان وباسمه يقودهم من موطن عبوديتهم بادئاً بهم أول مرحلة من مراحل ترحالهم الطويل عبر صحراء سيناء إلى «الأرض الموعودة» معرفاً لهم أن: «الرب رجل الحرب..!

من مثلك بين الآلهة يا رب؟!».

الإصحاح الخامس عشر من «سفر الخروج»

بهذا التعريف.. يُعرِّف موسى إله إسرائيل.. يُعرِّفه للشعب العبري وهو يسير مقترباً بهم من أرض معقودة فيها الألوهة لـ «حداد» إله العاصفة ورجل الحرب!.

وبينما تترامى ظلال «حداد» على فلسطين وسوريا وتترامى ألوهة إله آخر في أدوم، تلك المنطقة الجبلية المتجلّي فيها الإله على الجبال تحت اسم «إيل شداي» يقف أهيه.. إلهاً خاصاً بإسرائيل فإنه: **«إله العبرانيين»**.

الإصحاح التاسع من «سفر الخروج»

بأهيه نُفثت في النفس الكسيرة روح العزة فهبّت!

قوية هبّت إسرائيل فهي شعب له إله كالشعوب الأخرى وهي لديه «الشعب المختار»... هو شعب أهيه الذي سيقوده تحت قيادة موسى إلى الأرض التي قد وعدها لإبراهيم فالآن قد تذكّر الرّب وعده!

سيقوده الرب تحت إمرة موسى إلى أرض كنعان حيث باستيلائه عليها يغدو بين السيادتين المتاخمتين، مصر والكلدان، سيداً!

وبأهيه، قاد لقومه موسى... بأهيه جمع موسى الطوائف المشتّتة وجعلها شعباً أسلم له في بادىء الأمر القياد...

أجل.. بأهيه وبأمر أهيه، أخضع موسى من إسرائيل الرقاب، وعنت له حتى قادها إلى سفح سيناء... ولكن...

هناك تبدّل الأمر فهذا الشعب، الذي به في سفح سيناء أناخ لا بدّ له من فترة استعداد للحرب تجمع فيها العدة وينظم فيها العدد لمهاجمة أرض كنعان، إنما إليه قد دبّ دبيب التذمّر! هذا الشعب إنما شعب، روحه البداوة، حياته الفوضى وقانونه اللاقانون!

إن إسرائيل شعب مكانته في درجات الاجتماع الدرجة الفطرية، وحياته صورة من إملاء العاطفة... لا تؤلفه إلا وحدة الجنس ووحدة الأرومة فلا دين له بين أفراده يوحّد ولا شريعة له على قوانينها يسير، وليس لديه إلا مجموعة تقاليد وعقائد في تيّار الأمم تذوب منها الأصول!

إن إسرائيل شعب طبيعته العناد وطبيعته المشاكسة، ولم يك إلا استجابة لحنين نغم قديم حينما أسلم لموسى في مصر من أمره العنان حتى سيناء حيث بدأت تنقضي الأيام عنه

مُسْتَعجلاً القائد القيادة فإن هذا الشعب الفطري الذي قد ألهبته فكرة «الأرض الموعودة» قد بدأت نفس فطريته إلى اليأس تقوده فالأيام تنصرف رتيبة والأمل القريب يتباعد حتى ليبدو في بعيد الأفق سراباً!

إلى هذا الشعب الشّاك المتمرّد اليائس نرى موسى في صحراء سيناء هابطاً بين البرق والرعد ودوّي البوق من أعالي سيناء بشريعة ومنذ هذه اللحظة بدأ في هذا الشعب وله دين!

دين تقوم أسسه على:

الشريعة.. إن الشريعة العبرية، كأية شريعة أخرى، لا نستطيع جلياً فهمها ما لم نعد إلى المنبع الذي منه قد تدفقت... ومن ثم فإلى الوراء قليلاً إذا أردنا التعرّف على أصول هذه الشريعة يجب أن نعود فنطوي أياماً في ظلال سيناء مضت إلى يوم يذكره «العهد القديم» أن:

«في الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر في ذلك اليوم جاءوا إلى برية سيناء... وهناك نزل إسرائيل مقابل الجبل وأما موسى فصعد إلى الله».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر الخروج»

في ذلك اليوم جاء يثرون كاهن مَدْيَن مَنْ عنده كان قد أقام موسى سنين في ظل «جبل الرب» وربطتهما «صفورة» برابطة النسب، يستطلع الأمر وينادي:

«أنا حموك يثرون آتي إليك وامرأتك وأبناها معها فخرج موسى لاستقبال حميه وسجد وقبّله وسأل كل واحد صاحبه عن سلامته ثم دخل الخيمة»..

الإصحاح التاسع عشر من «سفر الخروج»

وحدث في الغد: «أن موسى جلس ليقضي للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء، فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال: ما هذا الأمر الذي أنت صانع للشعب؟ ما بالك جالس وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى المساء؟ فقال موسى لحميه: إن الشعب يأتي إليّ ليسأل الله ـ إذا كانت لهم دعوى يأتون إليّ فأقضي بين الرجل وصاحبه وأعرّفهم فرائض الله وشرائعه...

فقال حمو موسى له ليس جيداً الأمر الذي أنت صانع».

الإصحاح الثامن عشر من «سفر الخروج»

أجل.. جلس موسى قاضياً يقضي للشعب في دعاويه.. إليه يُقبل الشعب يستشيره كيفية تصريف الأمور فلا يدري بعد هذا الشعب الفطريّ أي عمل لغضب الرب سبب، وأي

الأعمال لمرضاته جلاّب.. لا يدري! فليس له من بعد شريعة يعرف في لائحة أحكامها وقوانينها فرائضها وتكاليفها... لهذا قال موسى ليثرون:

«ليس جيداً الأمر الذي أنت صانع، إنك تكلّ! أنت وهذا الشعب الذي معك جميعاً الآن الأمر أعظم منك ـ لا تستطيع أن تصنعه وحدك الآن اسمع لصوتي فأنصحك فليكن اللّه معك: كن أنت للشعب أمام اللّه، وقدم أنت الدعاوى إلى اللّه، وعلّمهم الفرائض والشرائع».

الإصحاح الثامن عشر من «سفر الخروج»

وأصغى موسى لصوت كاهن مدين ناصحاً:

«إن فعلت هذا الأمر وأوصاك اللّه تستطيع القيام».

الإصحاح الثامن عشر من «سفر الخروج»

وقام موسى ليتحدث عنه من بعد «العهد القديم» بأن: «فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال!».

الإصحاح الثامن عشر من «سفر الخروج»

بعد ذلك... طلع موسى على الشعب بالشريعة وشُرعت بين الشرائع للعبريين شريعة أسست:

مملكة كهنة وأمّة مقدّسة

شُرعت الشريعة العبرية في باكر حياة هذا الدين فقد كان «اليوم» هو ذلك اليوم الذي كان عهد هذا الشعب فيه بالخروج من مصر غير بعيد «فاليوم» كان يوماً من أيام الشهر الثالث من الخروج من مصر حيث في اتّباع لموسى، قادهم موسى حتى سفح سيناء حيث بهم أناخ في رحاب الجبل الذي حدّثهم عنه أن له فيه قد تراءى ناراً الرّب!

هذه هي الفترة الخطيرة في نشأة الدين العبريّ التي سنتناولها بعد صفحات ـ أما الآن فنتابع هذا الشعب وهو يشاهد لأول مرة جبل سيناء، الجبل الذي نزل عليه ربّ تربطه وإيّاه رابطة عهد علامة في اللحم فإلى هذا الرب الذي عنه موسى يُحدّث هذا الشعب أنه إليه قد أرسله لإخراجه من أرض مصر، بدأ يلحّ بهذا الشعب شوق لا يطفئه إلا الرؤية!..

وصعد موسى الجبل وهبط يقول لهذا الشعب:

إن الرّب سينزل أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء ليؤمنوا بصدق موسى فيما قال وأن ذلك سيكون بعد ثلاثة أيام. وأن عليهم الاستعداد، خلال هذه الأيام المحددة، لملاقاة الرب نازلاً من السماء إلى قمة سيناء ـ عليهم أن يغسلوا ثيابهم ويتهيئوا، وألاّ يقتربوا

من الجبل خلال هذه الأيام الاستعدادية الثلاثة، ومن يقترب فقتلاً يقتل ورجماً يرجم!

واستعدّت إسرائيل وغسلت ثيابها وكان الكل:

«مستعدين لليوم الثالث لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر الخروج»

هذا اليوم الثالث أخطر يوم في تاريخ نشأة هذا الدين، فقد حدث فيه أخطر حَدَث يقوم عليه حجر الأساس في الدين العبري ومملكة إسرائيل... حدث أن هبّت إسرائيل صباح هذا اليوم الثالث مرتعدة الفرائص مذعورة على صوت بوق أخذ دويه يزداد شِدة معلناً بدء نزول الرّب على الجبل!

«فارتعد كل الشعب الذي في المحلة».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر الخروج»

ولكن!... «أخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة اللّه! فوقفوا في أسفل الجبل».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر الخروج»

أجل... فزعاً، مرتعد الفرائص أحاط هذا الشعب بعضه ببعض ففي أعلى الجبل، انطلاق البوق من محتجب مصدر، انطلق دخان! أعلى جبل سيناء كان يدخن وسبابة موسى إليه للشعب تشير: لا تخف فإنه:

«يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر الخروج»

بالنار؟ إن الرب يتراءى لإسرائيل كما من قبل قد حدثها موسى أن له قد تراءى... كما نزل الرّب لموسى نزل لإسرائيل بالنار:

«وصعد دخانه كدخان الأتون!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر الخروج»

مشهد كهذا أفزع هذا الشعب!! في روعه ألقى ارتياعاً دويّ بوق وانطلاق دخان من محتجب المصدر!

وأمام دخان متكاثف ينطلق وبوق متزايد الدويّ يُدوّي فزع الشعب إلى موسى! خلع الخوف منه القلب فلم يعد يلوي على شيء فدوّي البوق قد أخذ:

«يزداد اشتداداً جداً وموسى يتكلم واللّه يجيبه بصوت!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر الخروج»

ثم.. «ثم تكلّم اللّه بجميع هذه الكلمات قائلاً: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ لأني أنا الرب إلهك إله غيُّور أفتقد ذنوب الآباء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبّي وحافظي وصاياي، لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يُبرىء من نطق باسمه باطلاً، اذكر يوم السبت لتقدّسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرّب إلهك، لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السبت وقدّسه! أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لاتقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك!

وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن، ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد، وقالوا لموسى: تكلّم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا اللّه لئلا نموت! فقال موسى للشعب لا تخافوا لأن اللّه إنما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا! فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان اللّه!

فقال الرّب لموسى: هكذا تقول لبني إسرائيل أنتم رأيتم أنني من السماء تكلّمت معكم، لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب، مذبحاً من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك وبقرك، في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذكراً آتي إليك وأباركك، وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتة، إذا رفعت عليها أزميلك تدنسها، ولا تصعد بدرج إلى مذبحي كي لا تنكشف عورتك عليه.

الإصحاح العشرون من «سفر الخروج»

ثم... «صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل وعادوا يقولون للشعب إنهم قد: «رأوا إله إسرائيل»!

«رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفّاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل».

الإصحاح الرابع والعشرون من «سفر الخروج»

تصرح هذه النصوص في «الكتاب المقدس» للدين العبري أن أشراف إسرائيل، وليس الشعب الذي رأى النار فقط، رأوا إله إسرائيل رأي العين رأوا رجليه ورأوا يده!

إن أشراف إسرائيل قد عادوا مقتنعين يروون للشعب ما ستروبه الأجيال عن إله إسرائيل من بعد.. رواية يروي بها السلف للخلف أنه رأى رأي العين إله إسرائيل!

هذه الرواية تُبيّن لنا ناحية مهمة في مشكلة الصفات التي تدلف بنا إلى:

«مشكلة الصلة بين «أهيه» وشعبه»

ألوهة أهيه ألوهة، كما ينيرها ويسجّلها «العهد القديم»، ألوهة لها البشرى من الصورة بل والعنصر الجنسي لها عنصر الرجل... عن إله صورته هذه الصورة يحق لنا أن نتساءل:

أية صلة كانت بين أهيه وشعبه؟

سؤال يتساءله الفكر والفكر بين سطور «الكتاب المقدّس» لهذا الدين جائل ومشكلة الصلة أعمق مشاكل الألوهية إطلاقاً... وإلى الفكر يأتي الجواب من نفس السطور بأن بسيطة كل البساطة وخالية من الإشكال مشكلة الصلة في الدين العبري فهذا الشعب الذي لم يتعرّض فيه العقل لمشكلة ما من مشاكل التفكير الإلهي إنما قد أخذ العقيدة من لسان موسى كما هي وكما رسمها له موسى!.. ونبدأ نتلمّس الخيط الحائك لهذه الصلة، صلة أهيه بإسرائيل من خلال «العهد القديم» حين يقبل موسى على الشعب ويقول إن له قيل»:

«كلّم بني إسرائيل أن يأخذوا لي تقدمة ـ من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتي وهذه هي التقدمة التي تأخذونها منهم: ذهب وفضة ونحاس، واسما نجوني وأرجواني وقرمز وبوص، وشعر معزى وجلود كباش محمّرة تخس، وخشب سنط، وزيت للمنارة وأطياب لذهب المسحة وللجوز العطر، وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة فيصنعون لي مقدساً.

لأسكن في وسطهم!

الإصحاح الخامس والعشرون من «سفر الخروج»

وأن أهيه قد تابع الكلام واضعاً شروط السكن في وسطهم، فللسكن في وسطهم شروط قال لموسى الرّب أن تكون:

«بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنياته، هكذا تصنعون:

«فيصنعون تابوتاً من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف وتغشيه بذهب نقي، من داخل وخارج تغشيه، وتضع عليه إكليلاً من ذهب حواليه وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع على جانبه الواحد حلقتان وعلى جانبه الثاني حلقتان... وتضع في التابوت الشهادة التي أعطيك! وتصنع غطاء من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف. وتصنع كرُوبين من ذهب. صَنعة خراطة تصنعهما على طرفي الغطاء. فاصنع كروباً واحداً على الطرف من هنا وكروباً آخر على الطرف من هناك. من الغطاء تضعون الكربين على طرفيه ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى الآخر. نحو الغطاء يكون وجها الكروبين وتجعل الغطاء على التابوت من فوق.. وأنا أجتمع به هناك.

وأتكلم معك من فوق الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل».

الإصحاح الخامس والعشرون من «سفر الخروج»

هذا ما كان يمليه إله إسرائيل آمراً كل «من يحثّه قلبه» على تقدمة المال إلى موسى.. ليقيم موسى لإلههم مسكناً فيسكن في وسطهم، يكون لهم به كل ما يشتهون لهم أن يكون ـ يكون لهم إله في وسطهم ساكن يحسون وجوده ويتنسمون قربه وإلى باب مسكنه تحمل القرابين لتضع عن الكواهل ثقل الكواهل بيد من يمثل بين إسرائيل إلهها الحلقة الواصلة، موسى الذي تابع الكلام أن إليه الرب تكلم قائلاً:

«وقرب إليك هارون أخاك وبنيه معه من بين بني إسرائيل ليكهن لي!

هارون، ناداب، وأبيهو، إلعاذر وإيثامار، بني هارون واصنع ثياباً مقدّسة لهارون أخيك، للمجد والبهاء».

الإصحاح الثامن والعشرون من «سفر الخروج»

وهكذا يطالعنا:

«قيام الكهنوت العبري»

في هذه النصوص عقد يعقد ورابطة تقام، وخطير النتائج من ثنايا سطورها الأخيرة إلينا تأتي... فهذا عقد يعقد بين هارون وأهيه ورابطة إلى أهيه بشدّة تشدّ هارون، فالقول يعلن

ارتباط هارون بأهيه رسمياً ورسمياً يغدو هارون الكاهن الأكبر لأهيه ويسترسل موسى يقول إن أهيه كلمه شارحاً له الملابس الكهنوتية التي يجب أن يرتديها الكهنوت العبري القائم باسم أهيه وعلى رأس هذا الكهنوت هارون، وأن بعد ذلك كلّمه قائلاً: وهذا ما تصنعه لهم لتقديسهم ليكهنوا لي خذ ثوراً واحداً ابن بقر، وكبشين صحيحين وخبز فطير، وأقراص فطير ملتوتة بزيت، ورقاق فطير مدهونة بزيت من دقيق حنطة تصنعها وتجعلها في سلة واحدة وتقدّمها في السلة مع الثور والكبشين..

وتُقدّم هارون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع وتغسلهم بماء وتأخذ الثياب وتلبس هارون القميص وجبّة الرداء والرداء والصدرة... وتضع العمامة على رأسه وتجعل الإكليل المقدّس على العمامة وتأخذ دهن المسحة وتسكبه على رأسه وتمسحه وتقدّم بنيه وتلبسهم أقمصة وتمنطقهم بمناطق، هارون وبنيه، وتشدّ لهم قلانس فيكون لهم كهنوت فريضة أبدية..!

وتقدّم الثور إلى قدّام خيمة الاجتماع فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الثور فتذبح الثور أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع وتأخذ من دم الثور وتجعله على قرون المذبح بإصبعك.

وسائر الدم تصبّه إلى أسفل المذبح وتأخذ كل الشحم الذي يغشى الجوف، وزيادة الكبد والكليتين والشحم الذي عليهما، وتوقدهما على المذبح وأما لحم الثور وجلده وفرثه فتحرقها بنار خارج المحلة هو: ذبيحة خطيئة!».

الإصحاح التاسع والعشرون من «سفر الخروج»

ثم يستطرد أهيه بلسان، موسى، لموسى: مُكلّماً «وتأخذ الكبش الواحد، فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش فتذبح الكبش وتأخذ دمه وترشّه على المذبح من كل ناحية.

وتقطع الكبش إلى قطع، وتغسل جوفه وأكارعه وتجعلها على قطعه وعلى رأسه، وتوقد كل الكبش على المذبح هو محرقة للرّب!

رائحة سرور! وقود هو للرب!

وتأخذ الكبش الثاني، فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش فتذبح الكبش وتأخذ من دمه وتجعل على شحمة أذن هارون وعلى شحم آذان بنيه اليمنى، وعلى أبيهم أيديهم اليمنى وعلى أبيهم أرجلهم اليمنى، وترش الدم على المذبح من كل ناحية! وتأخذ من الدم الذي على المذبح ومن دهن المسحة وتنضح على هارون وثيابه!

وعلى بنيه وثياب بنيه معه، فيتقدّس هو وثيابه وبنوه وثياب بنيه معه!

ثم تأخذ من الكبش الشحم والإلية والشحم الذي يغشى الجوف وزيادة الكبد والكليتين، والشحم الذي عليهما، والساق اليمنى فإنه كبش مليء! ورغيفاً واحداً من الخبز وقرصاً واحداً من الخبز بزيت ورقاقة واحدة من سلة الفطير التي أمام الرب وتضع الجميع في يدي هارون وفي أيدي بنيه وتُردّدها ترديداً أمام الرب ثم تأخذها من أيديهم وتوقدها على المذبح فوق المحرقة رائحة سرور أمام الرّب! وقود هو للرّب!

ثم تأخذ القصّ من كبش المليء الذي لهارون وتردّده ترديداً أمام الرب فيكون لك نصيباً... والذي رفع من كبش المليء مما لهارون ولبنيه فيكونان لهارون وبنيه فريضة أبدية من بني إسرائيل...

وأما كبش المليء فتأخذه وتطبخ لحمه في مكان مقدّس فيأكل هارون وبنوه لحم الكبش والخبز الذي في السلة عند باب خيمة الاجتماع... وتصنع لهارون وبنيه هكذا بحسب كل ما أنا أمرتك، سبعة أيام تملأ أيديهم، وتقدم ثور خطيئة كل يوم لأجل الكفّارة وتطهّر المذبح بتكفيرك عليه وتمسحه لتقديسه سبعة أيام تكفّر على المذبح وتقدّسه فيكون المذبح قدس الأقداس كل ما في المذبح يكون مقدّساً!

الإصحاح التاسع والعشرون من «سفر الخروج»

هذه هي مراسم الكهانة... بتقديم الثور والكبشين وسلة الفطير الملتوت بالزيت!

دُثّر هارون بالجبّة وعُمّم بالعِمامة علامة على قيام كهنوت في إسرائيل وقيامه كاهناً أكبر، ومن الدم الموضوع في الطسوت ملأ موسى راحتيه علامة على عهد يقام بين إله إسرائيل وشعبه القابل هذه الشريعة الفارضة عليه هذه الطقوس...

وهكذا، نرى قيام كهنوت من بيت لآوي على رأسه هارون يكهن لشعب «مقدّس» قام فَبَنى المذبح كما قال موسى!

ومن أمام المذبح الآن يقف موسى يخاطب إسرائيل أن الرب لها يقول:

وهذا ما تقدّمه على المذبح: خروفان حوليان كل يوم دائماً!

الخروف الواحد تقدّمه صباحاً، والخروف الثاني تقدمه في العشية، وعشر من دقيق ملتوت بربع الهين من زيت الرضّ وسكيب ربع الهين من الخمر للخروف الواحد ـ والخروف الثاني تقدّمه في العشية مثل تقدمة الصباح وسكيبة تصنع له رائحة سرور وقود للرب!

محققة دائمة في أجيالكم عند باب خيمة الاجتماع أمام الرّب حيث أجتمع بكم لأكلمكم».

الإصحاح التاسع والعشرون من «سفر الخروج»

ويسترسل موسى بأن الرّب له يقول أن: «واجتمع هناك ببني إسرائيل فيقدّس بمجدي، وأقدّس خيمة الاجتماع والمذبح، وهارون وبنوه أقدسهم لكي يكهنوا لي، وأسكن في وسط بني إسرائيل وأكون لهم إلهاً. فيعلمون أني أنا الرب إلههم الذي أخرجهم من أرض مصر لأسكن في وسطهم!».

الإصحاح التاسع والعشرون من «سفر الخروج»

ويسترسل: «وأنت تأخذ لك أفخر الأطياب!».

مُرّاً قاطراً خمسمائة شاقل وقرفة عطرة نصف ذلك... وقصب الذريرة مائتين وخمسين وسليخة خمسمائة بشاكل القدس ومن زيت الزيت هيناً ـ وتصنع دهناً مقدّساً للمسحة! عطر عطارة صنعة العطّار!..

وتسمح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل آنيتها، والمنارة وآنيتها ومذبح البخور.. وتقدّمها فتكون قدس أقداس كل ما مسّها يكون مقدّساً!

وتمسح هارون وبنيه وتقدّمهم ليكهنوا لي! وتكلم بني إسرائيل قائلاً: يكون هذا لي دهناً مقدّساً للمسحة في أجيالكم! وخذ لك أعطاراً!

ميعة، وأظفاراً، وقنة عطرة ولباناً نقياً، تكون أجزاء متساوية فتصنعها بخوراً عطراً صنعة العطّار!

مملّحاً. قفياً، مقدّساً ـ وتسحق منه ناعماً وتجعل منه قدام الشهادة في خيمة الاجتماع حيث اجتمع لك!

الإصحاح الثلاثون من «سفر الخروج»

بدأت القبضة الموسوية تتمكن من العنق العبريّ..

ولكن..! في هذه الفترة الزمنية تطالعنا هزّة الارتياب وانحراف إسرائيل عن إسرائيل، فمن ثنايا «العهد القديم» يطالعنا شك عاصف أحاط بقلب إسرائيل واتخذ صورة حنين لاعج إلى ما قد تركت في مصر من ألوان عبادة شعبية اتخذت لها مظهراً صورة عجل...

هذا الحنين اللاعج إلى ما قد تركت إسرائيل في مصر يتحدث عنه «العهد القديم» في

الإصحاح الثاني والثلاثين من «سفر الخروج»، وكأن لم تقنع رؤوس الشعب هذه النار المترائية من قمة الجبل والتي يقول عنها موسى إن فيها اللّه!.

أجل... إنه كما تطوي اليد موسى في سيناء ليهبط بعد ذلك:

«بلوحي حجر مكتوبين بأصبع اللّه» يذكر «العهد القديم» أن:

«ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى، الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه!

فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتم وأتوني بها ـ فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون ـ فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً ـ فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال: غداً عيد للرّب!

فبّكروا في الغد وأصعدوا مُحرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

أجل... قدّم الشعب ذبائح سلامة لا لأهيه إسرائيل وإنما لمن صوّره هارون على شبه عجل...

وهبط، ومعه يشوع ابن نون، موسى:

«ولوحا الشهادة في يده، لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هناك كانا مكتوبين واللّوحان هما صنعة اللّه والكتابة كتابة اللّه منقوشة على اللوحين وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه فقال لموسى: صوت قتال في المحلة ـ فقال: ليس صوت صياح النصرة، ولا صوت صياح الكسرة بل صوت غناء أنا سامع!

وكان عندما اقترب من المحلة أنه أبصر العجل والرقص!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

أبصر موسى عجلاً مسبوكاً من الذهب، حوله يمرح راقصاً الشعب مرجعاً صوت هارون بأنه الرّب: «فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يده وكسرهما في أسفل الجبل!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

وارتجّ الشعب ومن موسى فزع، فزع ولكنه إليه وأقبل على الآخر كلاهما للآخر

يستوضح الأمر؟ فأشار موسى إلى القطع المتناثرة أنهما كانا: «لوحي الشهادة لوحي حجر مكتوبين بإصبع اللّه!».

الإصحاح الحادي والثلاثون من «سفر الخروج»

ويستفيض موسى أنه بينما كان في أعلى الجبال يكلم اللّه قال له اللّه:

«اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته في أرض مصر! زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به...

فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم! فتضرّع موسى أمام الرّب إلهه وقال: لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض؟!

ارجع عن حمو غضبك واندم على الشرّ بشعبك!

اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ـ عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم: أكثر نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد.

فندم الرّب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

لو استطعنا تصوّر هذه اللحظة من التاريخ الموسوي لانحسرت لنا جليّة في ضوء التحليل النفسيّ الشخصية الموسوية وأدركنا ماهية الدين وأحطنا بتاريخ الدين في إسرائيل لارتباط هذا الدين بالشخصية الموسوية... ولهذا فإنه كلما يزداد اقترابنا من هذه الشخصية، وتعرّفنا إليها تحت أضواء التاريخ السياسي للعصر كلما ازددنا بهذا الدين معرفة وإحاطة وإلماماً. ولهذا نقترب من موسى وهو في أسفل الجبل فنراه حامياً منه الغضب، فيكسر لوحين هبط بهما ليقول للشعب، والعهد عهد سجلاته ألواح، إنهما لوحان ولكن... لا كالألواح!

أجل... إن الألواح لم تك بالشيء الجديد فالزمن زمن صحفه ألواح وشرائعه وقوانينه وأحكامه وعقائده على الألواح تحفر وتُسطر، ومتاحف الحاضر مترعة بهذه الألواح، وإنما الجديد فيهما ما قد جاء به موسى من أن هذين اللوحين هما «صنعة اللّه» والكتابة «كتابة اللّه»... وعن هذه الكتابة يقول موسى إنها مكتوبة «بإصبع اللّه»... كسر موسى اللوحين المكتوبين بإصبع اللّه، فقد أنساه الغضب القدسية التي بهما تحفّ ـ أنساه كل شيء مشهد

هارون المنحرف عن العقيدة إلى صورة عجل يقول عنه إنه الرّب!

كسر موسى اللوحين:

«ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

أما إلى هارون فخلا موسى خلا خلوة تلمح فيها السياسة الموسوية وحنكة موسى عبر حديث يذكره «العهد القديم» بأن:

«وقال موسى لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطيئة عظيمة؟».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

وعبر جواب هارون، نرى شخصية هارون وموقفه أمام موسى، حين تسترسل النصوص مسجّلة أن: «فقال هارون: لا يحم غضب سيدي! أنت تعرف الشعب إنه في شر، فقالوا لي اصنع... فقلت لهم: من له ذهب فلينزعه ويعطني فطرحته في النار فخرج هذا العجل!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

وطُوِيَت من عمر التاريخ الموسوي ليلة.

«وكان في الغد أن قال موسى للشعب: أنتم قد أخطأتم خطية عظيمة فأصعد الآن إلى الرب لعلّي أكفّر خطيئتكم».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

وصعد... وهبط... هبط موسى يقول إن قد دارت مكالمة بينه وبين الرّب في أعلى الجبل وأن الرّب له قال:

«قل لبني إسرائيل لا أصعد في وسطك لأنك شعب صلب الرقبة!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر الخروج»

ويستفيض سفر الخروج في الوصف:

«وأخذ موسى الخيمة ونصبها له خارج المحلّة بعيداً عن المحلة ودعاها خيمة الاجتماع، فكان كل من يطلب الرّب يخرج إلى خيمة الاجتماع».

الإصحاح الثالث والثلاثون من «سفر الخروج»

ففيها: «يتكلم الرّب مع موسى».

الإصحاح الثالث والثلاثون من «سفر الخروج»

وفيها: «ويكلم الرّب موسى وجهاً لوجه كما يكلّم الرجل صاحبه».

الإصحاح الثالث والثلاثون من «سفر الخروج»

وجهاً لوجه، وكما يُكلم الرجل صاحبه يكلم موسى الرّب!

أجل... في ذلك الغد: «أخذ موسى الخيمة ونصبها خارج المحلّة ودعاها «خيمة الاجتماع» فكان كل من يطلب الرّب يخرج إلى خيمة الاجتماع... وكان عامود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة ويتكلّم الرّب مع موسى».

الإصحاح الثالث والثلاثون من «سفر الخروج»

إلى هذه «الخيمة» إذا ما أراد موسى الرّب أو أراد الرّب موسى ينزل الرّب إلى موسى في عامود سحاب...

وهكذا انقضت الأيام حتى «اليوم» الذي فيه طلع موسى وقال ان.. قال الرّب لي: «انحت لك لوحين من حجر مثل الأوّلين... واصعد في الصباح إلى جبل سيناء وقفْ عندي هناك على رأس الجبل، ولا يصعد أحد معك، وأيضاً لا يُر أحد في كل الجبل»...

الإصحاح الرابع والثلاثون من «سفر الخروج»

ويسترسل: «فنحت لوحين من حجر كالأوّلين وبكر موسى في الصباح وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرّب وأخذ في يده لوحي حجر».

وبعد غيبة أربعين يوماً هبط موسى من الجبل حاملاً لوحي الحجارة إلى شعب ينتظر، نحوه يتدافع فدفعهما إليه: ديناً!!

ديناً وصاياه ما عليهما في أعلى الجبل قد حفر، واللسان الموسويّ في أسفل الجبل يقرأ:

«الوصايا» «احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فخاً في وسطك، بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أصنامهم، وتقطعون سواريهم، فإنك: لا تسجد لإله آخر، لأن الرّب اسمه غيّور، إله غيُّور هو!

احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتهم، ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك، فتزني بناتهم وراء آلهتهنّ ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن! لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة!

تحفظ عيد الفطير، سبعة أيام تأكل فطيراً كما أمرتك في وقت شهر أبيب لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر ـ لي كلّ فاتح رحم وكل ما يوجد ذكراً من مواشيك بكراً من ثور وشاة وأما بكر الحمار فتفديه بشاة وإن لم تفده، تكسر عنقه!

كل بكر بنيك تفديه!

ولا يظهروا أمامي فارغين!

ستة أيام تعمل وأما اليوم السابع فتستريح، في الفلاحة وفي الحصاد تستريح وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة وعيد الجمع في آخر السنة ثلاث مرات في السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرّب إله إسرائيل فإني أطرد الأمم من قدامك، وأوسع تخومك ـ ولا يشتهي أحد أرضك حين تصمد لتظهر أمام الرّب إلهك ثلاث مرات في السنة!

لا تذبح على ضمير دم ذبيحتي، ولا تبت إلى الغد ذبيحة عيد الفصح، أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرّب إلهك لا تطبخ جدياً بلبن أمه!».

الإصحاح الرابع والثلاثون من «سفر الخروج»

هذان اللوحان إنما يحملان عهداً... عهد من الرب بأنه بها آت إلى أرض كنعان... فإننا كلما نسير وراء مواد هذه الوصايا تطالعنا في جوهرها سياستها الجوهرية فنراها سياسة تقرب بين أواصر إسرائيل وتربط أفرادها في وحدة وإخاء بينما تعزل عن نفسها غيرها من الأمم سياسة كان لها أخطر الأثر في حاضر إسرائيل وفي أجيال من بعد، تلك هي سياسة الاعتزال! فاتباعاً لما جاء في نصوص هذه الوصايا من مواد اتخذت إسرائيل السياسة الاعتزالية ـ اعتزلت الأمم فبدأتها بالمعاداة والعداء ـ وبسبب تلك المادة التي حرمت زواج أصحاب دين بأصحاب دين مغاير، بسبب هذه المادة التي حملها عن ذلك العهد حتى العهد عهود، ضربت إسرائيل من حول نفسها نطاقاً من ورائه وقفت تنظر إلى الأمم شذراً فبادلتها الأمم نفس النظرة... إنها حالة نفسية من «علم النفس» يأتينا عنها الجواب، فنراها في ضوء هذا العلم عقدة نفسية! الحالة حالة تصيب كالفرد، الشعوب بعد طويل شعور بمضض وضيم وحق إنساني مهضوم! إحساس عميق بجرح قد أصاب الأعماق! جرح تأبى الكرامة البشرية والعزة النفسية أن تبدو له بوادر فتحاول محوه بالنقيض... تبدأ ظواهر هذه الحالة بمظهر انطواء نفسي، فتمرد داخلي على الحالة الخارجية، أسفر صورة صوره التحدّي والاستعلاء... هذه هي الحالة النفسية التي جعلت إسرائيل، بعد شعورها بالذلّ والاستعباد، لا ترى حقيقة نفسها وإنما تتحدّى الشعوب كل الشعوب «دنسة» إلا إسرائيل فشعب «مقدّس»!

بيد أن إلى جانب هذه الظاهرة النفسية، ظاهرة أخرى سياسية مظهرها الدراية بالطبيعة البشرية المتقلبة ـ مظهر هذه الظاهرة السياسية ما قد جاء في «الوصايا» عن طريق هذا «العهد» المانح هذه الجماعة حملها، فيما جاءت به هذه «الوصايا» من فرائض والتزامات ـ فثلاث مرات في السنة يجب أن يظهر جميع الذكور أمام الرّب، ثلاث مرات في السنة سيجري على ذكور إسرائيل الاختبار فيعرف من قد تجاوز ومن عن مرسوم الطريق قد حاد!

ثم يجب ألا يظهروا فارغين.. طلب مطلبه معرفة النوايا وما تضمره الضمائر فعلى كل فرد في إسرائيل أن يسوق إلى خيمة الاجتماع، إلى حيث موسى، كل فاتح رحم فإن الرّب يطلب لنفسه كل ذكر من المواشي إلا بكر الحمار... بكر الحمار فيُفتدى بشاة، كما في اتباع لنصوص «العهد القديم» يجب ألا يذبح على خمير بدم ذبيحة الرّب ولا يطبخ جدي بلبن أمه... لو فعل غير ذلك لعد الفاعل منحرفاً عمّا قد جاء على لوحي الشهادة، هذان اللوحان اللذان ترى موسى يودعهما الآن «التابوت» وبذلك يطالعنا.

إيداع «العهد» «التابوت» وحمل إسرائيل «تابوت العهد»

نصبت «الخيمة» وصنع «التابوت» وأُودع «العهد» التابوت وتأهبت أكتاف اللاويين لحمل «تابوت العهد» للسير في مقدمة الشعب المتحفز للوثوب الزاحف بقيادة موسى متجهاً إلى الأرض الموعودة... قوياً يتأهب فقد ملأت الطمأنينة منه القلب وعمّرت الثقة منه النفس... بهذه الروح المطمئنة إلى أن في يدها عهداً من الرب يعدها أنه طارد من أمامها الأمم بدأت في سفح سيناء تعد العدّة وتعد العدد وتتأهب إسرائيل لمهاجمة أرض كنعان.

أجل... من حول «خيمة الاجتماع» بدأ الاستعداد الجدّي للحرب فبهذه الخيمة ومن حول هذه الخيمة ضمّت إسرائيل، باللوحين، وحدة دينية لدين وصاياه هبط بها من أعالي سيناء موسى، أحكامه وقوانينه من أعالي سيناء وسفح سيناء، ومن خيمة الاجتماع طلعت، فطلعت بها لإسرائيل بين الشرائع شريعة!

أجل... منذ ذلك «اليوم» الذي دخن منه الجبل ودوى البوق وقال موسى لشعب حوله التفّ مرتاعاً إن أهيه يتكلّم من السماء... بدأ في تاريخ الشرائع لهذا الشعب شريعة وفي سجل الأديان بدأت تُسطر يد الزمن لهذا الشعب ديناً...

إن الشريعة، كما يحمل مدلول الكلمة، هي: الأحكام الدينية للأحوال الشخصية والمدنية والجنائية وهي التي تنظم احتفالات العبادة وشعائرها وطقوسها وهي التي تعيّن الأعياد ومن ثم ففي الشريعة تأتي المشاكل الدينية قاطبة من نظرية الخير والشر إلى مشكلة الجريمة

والعقاب وهذه تؤدي إلى مشكلة النفس أو الخلود كما ينتهي المطاف بنا بها إلى استعراض القانون الأخلاقي والقيم الأخلاقية.

ولكن... الشريعة الموسوية أو بالأحرى الإسرائيلية، شريعة ليست كما بين الرافدين أو على ضفاف النيل أوامر بشرية وقوانين وضعية وإنما كلها أوامر تنسب إلى الإله تعرّف أن قد «تكلم بها الرب» عندما كان موسى معه في أعلى الجبل. وأن على إسرائيل العمل بها والرضوخ لأحكامها ولما أتت به من قوانين!

في هذه الشريعة المستغرقة الجزء الأكبر من العهد القديم أو «الكتاب المقدّس» الذي أضحى عليه اسمها علماً فنعرفه الآن باسم:

«التوراة»، تجول منا الأعين ويجول في البيئة والأجواء، التي نشأت فيها، منا التفكير...

تبدأ الشريعة في التوراة بالإصحاح الحادي والعشرين من «سفر الخروج» يقول موسى إن الرب أملى الأحكام «وهذه هي الأحكام التي تضع أمامهم».

الإصحاح الحادي والعشرون من «سفر الخروج»

تقودنا هذه الأحكام التي تبدأ بها الشريعة في هذا الإصحاح المشار إليه إلى «مشكلة الجريمة والعقاب»، لنقرأ: «من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً.

ولكن!... الذي لم يتعمد بل أوقع اللّه في يده، فأنا أجعل لك مكاناً يهرب إليه!».

الإصحاح الحادي والعشرون من «سفر الخروج»

وتؤيد هذه الأحكام مبدأ الثأر وتعضد روح الانتقام بقانون «المثل بالمثل».

فإن: «إن حصلت أذيّة تعطي نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن».

الإصحاح الحادي والعشرون من «سفر الخروج»

أجل... كشريعة الرافدين شريعة سيناء والشريعة الموسوية كالشريعة الحمورابية في قانون المثل بالمثل بل وكمثلها في كثير من المواد ومن التشاريع... مثلها بهذا التوفير الذي تفرضه للوالدين ـ ومثلها فيما تفرضه من التعويض المضاعف ـ ومثلها القتل فيها لمن أتين بفاحشة عقاب ـ ومثلها في إطلاق أسر العبد أو الأمة عوضاً عن إيذاء ـ ومثلها في أن القسم لديها كان أحرم المحرّمات.. ومثلها في مراعاة الجوار واللاجور وعدم اضطهاد الغرباء ـ بلى مثل الشريعة الشريعة، ولكن! بين الشريعة الحمورابية والشريعة الموسوية فارق... شريعة «حمورابي» شريعة مشرّعة مرفوعة من الأرض إلى السماء أما الشريعة الموسوية فشريعة، بنصّ الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج، إلى الأرض هابطة من السماء!

وتطالعنا الشريعة الهابطة من السماء والمنزّلة بأحكامها الشارعة التقدمات لإله يهبط إلى «خيمة الاجتماع» من آن لآن.

بتشاريع بها يطالعنا:

الطقوس في الدين العبري

إلى إسرائيل يطلع موسى منتظماً التقدمات فيقول إن الرّب دعاه وكلّمه من خيمة الاجتماع قائلاً:

«إذا قرّب إنسان منكم قرباناً للرّب من البهائم فمن البقر والغنم تقربون قرابينكم، إن كان قربانه محرقة من البقر فذكراً صحيحاً يقرّبه، إلى باب خيمة الاجتماع يقدّمه للرّضا عنه أمام الرّب! ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عليه للتفكير عنه!

ويذبح العجل أمام الرّب! ويقرب بنو هارون الكهنة الدم، ويرشّون الدم مستديراً على المذبح الذي لدى باب خيمة الاجتماع، ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطعها ـ ويجعل بنو هارون الكاهن، ناراً على المذبح ويرتبون حطباً على النار ويرتب بنو هارون، الكهنة، القطع من الرأس والشحم فوق الحطب الذي على النار التي على المذبح».

الإصحاح الأول من «سفر اللاويين»

وأحشاء القربان وأكارعه؟

«وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء

ويوقد الكاهن الجميع على المذبح».

فإنها: محرقة وقود رائحة الرّب!».

الإصحاح الأول من «سفر اللاويين»

وإذا كان قد قدم قربان الرضا والتكفير قربان الغنم؟

«إن كان قربانه من الغنم، الضأن أو الماعز، محرقة، فذكراً صحيحاً يقرّبه! يذبحه على جانب المذبح إلى الشمال أمام الرّب ويرشّ بنو هارون، الكهنة، دمه على المذبح مستديراً ويقطعه إلى قطعه مع رأسه وشحمه ويرتبهن الكاهن فوق الحطب الذي على النار التي على المذبح وأما الأحشاء والأكارع فيغسلها بماء ويقرّب الكاهن الجميع ويوقد على المذبح، إنه محرقة وقود رائحة سرور للرّب!».

الإصحاح الأول من «سفر اللاويين»

وإذا كان لا قبل له بتقديم الغنم فقدم الطير.

«إن كان قربانه للرب من الطير محرقة، يقرّب قربانه من اليمام أو من أفراخ الحمام ـ يقدمه الكاهن إلى المذبح ويحز رأسه ويوقد على المذبح ويعصر دمه على حائط المذبح!

الإصحاح الأول من «سفر اللاويين

ثم؟ ثم... «وينزع حوصلته بفرثها ويطرحها إلى جانب المذبح شرقاً إلى مكان الرماد، ويشقّه بين جناحيه، لا يفصله! ويوقده الكاهن على المذبح فوق الحطب الذي على النار إنه محرقة وقود رائحة سرور للرّب!».

الإصحاح الأول من «سفر اللاويين»

هذا ما يريده الرّب إله إسرائيل أن يكون عليه قربان التكفير والرضا.. ويريد الرّب أيضاً قربان التقدمة... يريد الرّب قربان التقدمة أن يكون، كما كلّم الرّب موسى في «خيمة الاجتماع»، أن:

«وإذا قرّب أحد قربان تقدمة للرّب يكون قربانه من دقيق!».

الإصحاح الثاني من «سفر اللاويين»

من دقيق فحسب؟

كلا...! بل: «يسكب عليها زيتاً ويجعل عليها لباناً ويأتي بها إلى بني هارون الكهنة ويقبض منها ملء قبضته من دقيقها وزيتها مع كل لبانها ويوقد الكاهن تذكارها على المذبح».

الإصحاح الثاني من «سفراللاويين»

والباقي؟ و«الباقي من التقدمة هو لهارون وبنيه! قدس أقداس من وقائد الرب!».

الإصحاح الثاني من «سفر اللاويين»

وإذا جاء المقدّم بتقدمة من الدقيق المخبوز؟

«وإذا قرّبت قرباناً تقدمة مخبوزة في تنّور، تكون أقراصاً من دقيق فطيراً ملتوتة بزيت، ورقاقاً فطيراً مدهونة بزيت!».

الإصحاح الثاني من «سفر اللاويين»

أو يمكن تقديم قربان تقدمة من الطواجن؟

أجل... «إن كان قربانك تقدمة من طاجن فمن دقيق بزيت تعمله فتأتي بالتقدمة التي

تصطنع من هذه إلى الرّب وتقدّمها إلى الكاهن فيدنو بها إلى المذبح ويأخذ الكاهن من التقدمة تذكارها، ويوقد على المذبح وقود رائحة سرور للرب، والباقي من التقدمة هو لهارون وبنيه!

قدس أقداس من وقائد الرّب!».

الإصحاح الثاني من «سفر اللاويين»

ولكن... كل قربان من تقادمك بالملح تملحه! ولا تخل تقدمتك من ملح! عهد إلهك على جميع قرابينك تقرب ملحاً!

الإصحاح الثاني من «سفر اللاويين»

الملح؟ لا تتساءل إسرائيل عهد ذاك تساؤلنا الآن فالملح عنصر نعرفه في عهدها قاصراً على طعام الملوك والكهنة!

وإلى جانب قرابين الرضا والتكفير والتقدمة، على إسرائيل قرابين أخرى تسوقها إلى باب «خيمة الاجتماع» ومن هذه القرابين، قربان السلام..

«وإن كان قربانه ذبيحة سلامة، فإن قرّب من البقر ذكراً أو أنثى فصحيحاً يقرّبه أمام الرّب!

يضع يده على رأس قربانه ويذبحه لدى باب خيمة الاجتماع، ويرشّ بنو هارون الكهنة، الدم على المذبح مستديراً!

ويقرّب من ذبيحة السلامة وقوداً للرّب: الشحم الذي يغشى الأحشاء، وسائر الشحم الذي على الأحشاء، والكليتين والشحم الذي عليهما الذي على الخاصرتين ـ وزيادة الكبد مع الكليتين ينزعها ـ ويوقدها بنو هارون على المذبح على المحرقة التي فوق الحطب الذي على النار، وقود رائحة سرور للرب!

الإصحاح الثالث من «سفر اللاويين»

أما إذا كانت ذبيحة السلامة من الغنم قرباناً، فسواء: «ذكراً أو أنثى فصحيحاً يقرّبه!

إن قرّب قربانه من الضأن يقدّمه أمام الرّب ـ يضع يده على رأس قربانه ويذبحه قدّام خيمة الاجتماع ويرش بنو هارون دمه على المذبح مستديراً!

ويقرّب من ذبيحة السلامة شحمها وقوداً للرّب، الإلية صحيحة من عند العصعص ينزعها، والشحم الذي يغشى الأحشاء وسائر الشحم الذي على الأحشاء... ويوقدها الكاهن على المذبح، طعام وقود للرّب!».

الإصحاح الثالث من «سفر اللاويين»

أما إذا كان قربان السلامة من الماعز فكذلك: «يقدّمه أمام الرّب، يضع يده على رأسه ويذبحه قدّام خيمة الاجتماع» وكذلك: «يرشّ بنو هارون دمه على المذبح مستديراً» وكذلك:

«يقرّب منه قربانه وقوداً للرّب: الشحم الذي يغشى الأحشاء وسائر الشحم الذي على الأحشاء، والكليتين والشحم الذي عليهما الذي على الخاصرتين... ويوقدهن الكاهن على المذبح طعام وقود لرائحة سرور! كل الشحم للرّب!

الإصحاح الثالث من «سفر اللاويين»

كل الشحم للرّب.. واللحم؟

ستجيب النصوص العبرية من بعد هذه الصفحة بقليل لمن يذهب اللحم أما الآن فنتابع صفحة فصفحة سرد القرابين.. فما قد تقدّم من قرابين كان للرضا والتكفير وللسلامة، كما تقدّم قربان التقدمة ـ أما الآن فإلى جانب هذه القرابين الواجب على من في داخل حظيرة إسرائيل أداؤها، واجبات أخرى عنها ولم تقدم هذه التقدمات وهذا يشمل أيضاً أعضاء هيئة الكهنوت، فمثلاً:

«إن كان الكاهن الممسوح يخطىء لإثم الشعوب، يقرّب عن خطيته التي أخطأ ثوراً ابن بقر صحيحاً للرّب ذبيحة خطيئة!

يقدّم الثور إلى باب خيمة الاجتماع أمام الرّب ويضع يده على رأس الثور ويذبح الثور أمام الرّب، ويأخذ الكاهن الممسوح من دم الثور ويدخل به إلى خيمة الاجتماع، ويغمس الكاهن إصبعه في الدم وينضح من الدم سبع مرات أمام الرّب لدى حجاب القدس!

ويجعل الكاهن من الدم على قرون مذبح البخور العطر الذي في خيمة الاجتماع أمام الرّب، وسائر دم الثور يصبّه إلى أسفل مذبح المحرقة الذي لدى باب خيمة الاجتماع».

الإصحاح الخامس من «سفر اللاويين»

وإذا سمت جماعة إسرائيل وأثمت وعرفت بعد ذلك الخطيئة التي أخطأتها: إن فعلت: «يقرّب المجمع ثوراً ابن بقر ذبيحة خطية!».

الإصحاح الرابع من «سفر اللاويين»

وهكذا تسير النصوص العبرية تفرض على المؤمنين التقدمات فإذا انحرف رئيس من رؤساء إسرائيل وعن الشريعة مال وعرف أنه عنها مال فعاد إليها، فقربانه تيس من الماعز، وإذا أخطأ أحد العوام فقربانه عنز من الماعز صحيح..

وإلى جانب هذه الفرائض، فرائض أخرى يؤديها كل من أخطأ ومن لم يخطىء!

لكن... رضاء الرّب رهين تقدمة الضحايا إلى الكهنوت وسياقتها إلى موسى حتى تسوقنا القرابين إلى: قربان كبش الفداء الفرديّ.

فلقد:

«كلم الرّب موسى قائلاً: إذا خان أحد خيانة وأخطأ سهواً في أقداس الرّب، يأتي إلى الرّب بذبيحة لإثمه كبشاً صحيحاً من الغنم بتقويمك من شواقل فضة على شاقل القدس، ذبيحة إثم. ويعوّض عما أخطأ به من القدس ويزيد عليه خمسة!».

الإصحاح الخامس من «سفر اللاويين»

لمن يدفعه؟ «يدفعه إلى الكاهن، فيكفّر الكاهن عنه بكبش الإثم فيصفح عنه».

الإصحاح الخامس من «سفر اللاويين»

للمخيلة أن تتصوّر يوماً من أيام إسرائيل في سفح سيناء... يوم ينقضي بين أنعام تساق وتذبح ودم يرشّ وشحم يندلع لهباً في إيقاد ـ يوم لا ينقضي على الكهنوت الرسميّ الذي يقف بباب «خيمة الاجتماع» إلاّ في انتظار وفود الوفود وإقبال الأفراد بقرابينها ـ عبثاً ترهف الأذن وبينها تطوّف لاستماع ورد من الأوراد الدينية أو من الأناشيد نشيد قدسيّ أو تسبيحة من صلاة ـ فلا يرى إلا عمله القاصر على الاهتمام بأمر القرابين! ينقضي اليوم وهو عنه بالقرابين في شاغل فمهمة الكهنوت الرسميّ في دين إسرائيل أمام كل قربان مهمة عن الأخرى تختلف، فقد وضعت للقرابين شرائع طقوسها يؤديها اللاويون وعلى رأسهم هارون كما تطالعنا بذلك:

«الطقوس الكهنوتية»

ليرشد الكهنوت إلى عمله أرشد موسى هارون:

«تلك شريعة المحرقة والتقدمة وذبيحة الخطية وذبيحة الإثم وذبيحة الملء وذبيحة السلام التي أمر الرّب بها موسى في جبل سيناء».

الإصحاح السابع من «سفر اللاويين»

أجل... هذه هي من فرائض الشريعة فرائض ومن ألوان الدين العبري ألوان فُرضت يوم: «كلّم الرّب موسى قائلاً: خذ هارون وبنيه معه والثياب ودهن المسحة وثور الخطية والكبشين وسلّ الفطير، واجمع كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع ـ ففعل موسى كما أمره الرّب ـ فاجتمعت الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع ـ ثم قال موسى للجماعة: هذا

ما أمر الرّب أن يفعل!».

الإصحاح الثامن من «سفر اللاويين»

ولتساؤل الجماعة كان الجواب هذا المشهد الذي انبثقت به في التاريخ الديني «فكرة المسيح». فقدّم موسى هارون وبنيه وغسّلهم بماء!».

ثم «ألبسه الجبّة وجعل عليه الرداء... ووضع العمامة على رأسه ووضع على العمامة إلى جهة وجهه صفيحة الذهب الإكليل المقدّس كما أمر الرّب موسى، ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن.. وصبّ من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه!».

الإصحاح الثامن من «سفر اللاويين»

أجل... مسح هارون بدهن المسحة، هذا الدهن الذي تناوله من يد موسى الموسويون عبر عهودهم التاريخية دهناً لمسح «الملوك»...

بالمسحة، مسح موسى نفسه وهارون فبنيه من بعد في يوم انقضائه كان بدء عهد جديد لإسرائيل.. ففي هذا اليوم تلفّتت الجماعة لترى موسى يدهن بدهن المسحة هارون ومن نفسه تفوح رائحة عطرة أخرى وقف هي على موسى صنعها يوم قال له الرّب خذ لك أعطاراً وميعة وأظفراً واصنعها بخوراً عطراً صنعة العطّار واجعل منه قدام الشهادة في خيمة الاجتماع حيث أجتمع بك... وقف هذه المسحة على موسى فإن الرب بلسان موسى لإسرائيل قال: لا تصنعوا لأنفسكم!

«كل من صنع مثله ليشمّه يقطع من شعبه».

الإصحاح الثلاثون من «سفر الخروج»

في هذا اليوم وموسى يغسّل هارون بالماء ويعمّمه بالعمامة وبدهن المسحة يمسحه كاهناً، تعلم إسرائيل أن تاريخاً لها رسمياً في سجل الكهنوت قد بدأ فهذه كهانة فيها تقوم بمسيح ترى ظلاً عليها قد بدأ يمتدّ..

وفي هذا اليوم عرفت إسرائيل أن بين الشرائع قد قامت لها شريعة فرضت عليها من فرائضها فرائض موادها كان ما تقدّم ذكره من طقوس القرابين... بل إلى جانب هذه القرابين فرائض أخرى من القرابين بها اتجه إليها موسى يحدّثها بعد أن ينتهي هذا المشهد بعد أن كفّر موسى عن هذه الجماعة الخاطئة بهذا الثور الذي أحضر إلى باب خيمة الاجتماع ولنا أن نعود إلى هذا المشهد ونتابعه من حيث انقضّت يد موسى من تغسيل هارون وبنيه وتطهيرهم بالماء ومسحهم بالمسحة ثم:

«قدّم ثور الخطيئة ووضع هارون وبنوه أياديهم على رأس ثور الخطية، فذبحه وأخذ موسى الدم وجعله على قرون المذبح مستديراً، بإصبعه!.

الإصحاح الثامن من «سفر اللاويين»

ثم؟ ثم ماذا فعل موسى بعد أن ذبح الثور وجعل الدم على المذبح مستديراً «ثم قدّم كبش المحرقة فوضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش فذبحه ورشّ موسى الدم على المذبح مستديراً؟

وقطّع الكبش إلى قطعه، وأوقد موسى الرأس والقطع والشحم وأما الأحشاء والأكارع فغسلها بماء وأوقد موسى كل الكبش على المذبح ـ إنه محرقة لرائحة سرور وقود هو للرّب! كما أمر الرّب موسى»

الإصحاح الثامن من «سفر اللاويين»

ثم؟ «ثم قدّم الكبش الثاني، كبش الملء، فوضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش فذبحه وأخذ موسى من دمه وجعل على شحمة أذن هارون اليمنى، أبيهم على إبهام يده اليمنى، وعلى إبهام رجله اليمنى!

ثم قدّم موسى بني هارون وجعل من الدم على شحم آذانهم اليمنى وعلى أبيهم أيديهم اليمنى وعلى أبيهم أرجلهم اليمنى!

ثم رشّ موسى الدم على المذبح مستديراً ثم أخذ الشحم الإلية وكل الشحم الذي على الأحشاء وزيادة الكبد والكليتين وشحمهما والساق اليمنى ومن سلّ الفطير الذي أمام الرّب أخذ قرصاً واحداً فطيراً وقرصاً واحداً من الخبز بزيت، ورقاقة واحدة ووضعها على الشحم وعلى الساق اليمنى وجعل الجميع على كفّي هارون وكفوف بنيه وردّدها ترديداً أمام الرّب... وأوقدها على المذبح فوق المحرقة، إنها قربان ملءٍ لرائحة سرور وقود هي للرّب»

الإصحاح الثامن من «سفر اللاويين»

ثم؟ «ثم أخذ موسى من دهن المسحة ومن الدم الذي على المذبح ونضح على هارون وعلى ثيابه وعلى بنيه وعلى ثياب بنيه معه».

الإصحاح الثامن من «سفر اللاويين»

ثم؟ «ثم قال موسى لهارون وبنيه: اطبخوا اللّحم لدى باب خيمة الاجتماع وهناك تأكلونه والخبز الذي في سلّ قربان الملء، كما أمرت قائلاً: «هارون وبنوه يأكلونه!» والباقي من اللحم؟

«والباقي من اللحم والخبز تحرقونه بالنار ومن لدن باب خيمة الاجتماع لا تخرجوا سبعة أيام إلى يوم كمال أيام ملئكم لأنه سبعة أيام يملأ أيديكم ولدى باب خيمة الاجتماع تقيمون نهاراً وليلاً سبعة أيام... فعمل هارون وبنوه كل ما أمر به الرّب على يد موسى!».

الإصحاح الثامن من «سفر اللاويين»

وماذا حدث من شعائر الرّب في اليوم الثامن؟ «في اليوم الثامن دعا موسى هارون وبنيه وشيوخ إسرائيل وقال لهارون: خذ لك عجلاً ابن بقر لذبيحة خطية وكبشاً لمحرقة، صحيحين، وقدّمهما أمام الرّب وكلّم بني إسرائيل قائلاً: خذوا تيساً من المعز لذبيحة خطية وعجلاً وخروفاً حوليين صحيحين لمحرقة ـ وثوراً وكبشاً لذبيحة سلامة للذبح أمام الرّب ـ وتقدمة ملتوتة بزيت».

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

لماذا؟ «لأن الرّب اليوم يتراءى لكم!».

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

إن الرّب يتراءى اليوم ولذلك: «فأخذوا ما أمر به موسى إلى قدام خيمة الاجتماع، وتقدّم كل الجماعة ووقفوا أمام الرّب، فقال موسى: هذا ما أمر به الرّب تعلمونه فيتراءى لكم مجد الرّب! ثم قال موسى لهارون: فقدم إلى المذبح واعمل ذبيحة خطيتك ومحرقتك وكفِّر عن نفسك وعن الشعب، واعمل قربان الشعب وكفِّر عنهم كما أمر الرّب!».

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

هذه الصورة يكمل تصورها هذه السطور الجارية تحدث أن:

«فتقدم هارون إلى المذبح وذبح عجل الخطية الذي له وقدّم بنو هارون إليه الدم فغمس إصبعه في الدم وجعل على قرون المذبح ثم صبّ الدم إلى أسفل المذبح».

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

والشحم والكليتين وزيادة الكبد؟ «أوقدها على المذبح كما أمر الرّب موسى!».

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

ثم؟ «ثم ذبح المحرقة فناوله بنو هارون الدم فرشّه على المذبح مستديراً»!

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

ثم؟ «ثم ناولوه المحرقة بقطعها والرأس فأوقدها على المذبح» ثم «غسل الأحشاء والأكارع وأوقدها فوق المحرقة على المذبح ثم «قدّم قربان الشعب، ثم «ثم رفع هارون يده نحو الشعب وباركهم».

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

ذبح هارون عجلاً فكفّر عن خطيئته وأراق دم كبش لخطيئة شعب من حول «خيمة الاجتماع» ينتظر اليوم ترائيّ الرّب..

أجل.. بارك هارون الشعب برفع يده المخضّبة بدماء الضحايا ثم: «انحدر من عمل ذبيحة الخطية والمحرقة وذبيحة السلامة، ودخل موسى وهارون إلى خيمة الاجتماع».

بعد ذلك تراءى مجد الرّب لكل الشعب بأن: «خرجت نار من عند الرّب وأحرقت على المذبح المحرقة والشحم»!

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

وما رأى الشعب اندلاع هذه النار حتى: «هتفوا وسقطوا على وجوههم!».

الإصحاح التاسع من «سفر اللاويين»

ولكن...! تفجّر النار قد أتى بحدث داخل «الخيمة»! في «الخيمة» من أبناء هارون الأربع ابنان كاهنان، في داخل الخيمة تفجّرت النار فأصابت ناداب وأبيهو وأحرقتهما فماتا..

كلا...! لا يسألن سائل موسى فإن موسى، للمتحفّز إلى السؤال، يشرح أنهما قد: «قرّبا أمام الرّب ناراً غريبة! فخرجت نار من عند الرّب وأكلتهما فماتا!».

الإصحاح العاشر من «سفر اللاويين»

يسائل هارون موسى: أو الأمر الأمر؟ فيجيب موسى هارون أن: هكذا فإن: «هذا ما نكلم به الرّب!... فصمت هارون...».

الإصحاح العاشر من «سفر اللاويين»

هذه «النار» تكشف لنا ركناً من الأركان التي قام عليها الدين الموسوي كماتا ـ بما إلى جانب من النفسية الموسوية هذه النفسية الشديدة الجبارة التي يطلع علينا بها موسى حين دعا:

«ميشائيل والصافان ابني عزئيل عم هارون وقال لهما: تقدّما ارفعا أخويكما من قدّام القدس إلى خارج المحلة... وقال موسى لهارون وإلعازار وإيثامار ابنيه لا تكشفوا رؤوسكم

ولا تشقوا ثيابكم لئلا تموتوا ويسخط عليّ كل الجماعة! وأما أخوتكم، كل بيت إسرائيل فيبكون على الحريق الذي أحرقه الرّب!».

الإصحاح العاشر من «سفر اللاويين»

أما أنتم! أنت يا هارون ويا إلعازار ويا إيثامار، فإن: «من باب خيمة الاجتماع لن تخرجوا!».

الإصحاح العاشر من «سفر اللاويين»

أجل... ظلّ هارون وابناه الباقيان داخل الخيمة، وحالت جدرانها بينه وبين الجماعة لفترة بعدها بدأت تتابع في الشعب الشرائع، مستهلة بشرائع الطعام، والوضع، والبرص، والسيل، وكل يقوم على التقدمات للكاهن فيكفر عنه أمام الرّب...

هذا الشعور بل هذا الإحساس بأن الضحايا تضمن الكفارة قد أتى للكهنوت الإسرائيلي بدخل كبير فإسرائيل كلها، طبقاً لهذه الشرائع، تسعى إلى باب «خيمة الاجتماع» بخيراتها وحريّ بإسرائيل أن تسعى هذا السعي ما دامت تقدماتها تلقي عن كاهلها ثقل هذا الشعور! هذه من الشرائع الموسوية:

شريعة سيناء

ولكن قفت شريعة سيناء شرائع أخرى أتت بعد طوال أيام انقضت في سفح سيناء كونتها مناسبات الأيام وأحداث الظروف في عدة مواقف مختلفة تطالعنا والأيام بالأيام تسير...

أجل...! الآن قد انقضى عام ومن العام الثاني شهران للخروج من مصر وإسرائيل في سفح سيناء تقيم وتقيم فيه من أمور دينها الأحكام والشرائع والفروض، يزيدها انصرام الأيام حنيناً إلى إنجاز الوعد، ولكن هذه الفترة التي انقضت عنها في سيناء كانت فترة ضرورية للتهيؤ للحرب فترة ما اكتملت حتى: «كلّم الرّب موسى في بريّة سيناء في خيمة الاجتماع في أول الشهر الثاني في السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً: احصوا كل جماعة بني إسرائيل.. من ابن عشرين سنة فصاعداً، كل خارج للحرب!».

الإصحاح الأول من «سفر العدد»

لم تك إسرائيل بالحفنة الصغيرة من الناس الآن وإنما كما يذكر «سفر العدد» كان اللاويون فيها فقط نيفاً وثمانية آلاف... ومن ثم بكليتها اتجهت إسرائيل وفي وسطها مسكن الرّب يحف باللاويين ويحمل «تابوت العهد» من اللاويين الرؤوس، وبنو هارون يضربون بالبوق! اتجهت إسرائيل بقبائلها الاثنتي عشرة ناحية «الأرض الموعودة» وبدأت إليها

الارتحال وعند الارتحال اقترب موسى من التابوت وقال له: «قم يا رب!».

الإصحاح العاشر من «سفر العدد»

للوقوف على حقيقة الدين العبريّ يتعيّن علينا اتباع موسى لأن الدين العبري لم يُكوّن ديناً دفعة واحدة وإنما تكوّن عبر التاريخ الموسويّ ـ هذا التاريخ الذي استغرق حوالي الأربعين عاماً من هذا الارتحال في سيناء فلقد ارتحلت إسرائيل وسارت وتابوت عهد الرّب بينها راحل ـ سارت، وجرداء تسلّمها إلى جرداء، جرداء تجرّدت إلاّ من وحشة توحي بالفزع إلى استعادة الماضي والعودة إلى ما قد خلت به الخوالي من الأيام.

كلا...! ليس إلى سيناء وأيام سيناء بل إلى مصر وأيام مصر ففي أيام عبوديتها لم تقاس إسرائيل الشظف الذي تقاسيه الآن، كشعب مختار ومقدّس!

على صفحة الإصحاح الحادي عشر من «سفر العدد» ينتشر لون هذا الشقاء فعن نطاق الهمس كادت شكوى إسرائيل تنطلق.. وهكذا تسير الأيام حتى اليوم الذي نرى فيه الإدراك الشعبي ثائراً على موسى وهارون حتى: «قال كل الجماعة أن يُرجما بالحجارة!».

الإصحاح الرابع عشر من «سفر العدد»

في غضون هذه الفترة الزمنية، فترة التذمر والتجسس والتمرّد، جاءت «شريعة البقرة» فقد طلع موسى في محلة إسرائيل يوماً يقول: «إن الرّب يأمركم أن تذبحوا بقرة حمراء لا شية فيها» وإن:

«هذه فريضة الشريعة التي أمر بها الرّب قائلاً: كلم بني إسرائيل أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لا عيب فيها ولم يعلّ عليه نير فتعطونها لإلعازار الكاهن فتخرج إلى المحلة وتذبح قدامه ويأخذ إلعازار الكاهن من دمها بإصبعه وينضح من دمها إلى جهة وجه خيمة الاجتماع سبع مرّات، وتحرق البقرة أمام عينيه! يحرق جلدها ولحمها ودمها مع فرثها، ويأخذ الكاهن خشب أرز وزوفاً وقرمزاً ويطرحهنّ في وسط حريق البقرة، ثم يغسل الكاهن ثيابه ويرحض جسده بماء وبعد ذلك يدخل المحلة، ويكون الكاهن نجساً إلى السماء!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر العدد»

هذه هي «البقرة» التي تستدير حول قصتها أطول صورة من سِوَر القرآن.. بيد أن لماذا فُرضت هذه الشريعة، وأي شيء كان المقصد من وراء ذبح هذه البقرة الحمراء؟

نفهم ذلك عندما نفهم العملية التي تتلو ذبحها وإحراقها حتى الرماد، فعند ذلك: «يجمع رجل طاهر رماد البقرة ويضعه خارج المحلّة في مكان طاهر، فتكون لجماعة بني

إسرائيل في حفظ: ماء نجاسة!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر العدد»

لتطهير النجس يؤخذ من رمادها ومن الماء المذاب فيه هذا الرماد عليه يرش فيطهر فإن الشريعة الجديدة بهذا تقول وإلى هذا تذهب، فلديها أن: «من مسّ ميتاً ميتة إنسان ما يكون نجساً سبعة أيام يتطهّر به في اليوم الثالث وفي اليوم السابع يكون طاهراً».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر العدد»

وإن لم يتطهر في اليوم الثالث؟ «إن لم يتطهر في اليوم اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهراً!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر العدد»

بلى: «كل من مسّ ميتاً ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجّس مسكن الرب!

فتقطع تلك النفس من إسرائيل لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر العدد»

أجل... أجل... وهذه هي الشريعة: «إذا مات إنسان في خيمة فكلّ من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيام».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر العدد»

كيف يتطهر النجس فيطهر؟

«يأخذون للنجس من غبار حريق ذبيحة الخطية ويجعل عليه ماء حياً في إناء، ويأخذ رجل طاهر زوفاً ويغمسها في الماء وينغسه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هناك... ينضح الطاهر على النجس في اليوم الثالث واليوم السابع ويطهره في اليوم السابع فيغسل ثيابه ويرحض بماء فيكون طاهراً في المساء... الإنسان الذي يتنجس ولا يتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نجس مقدّس الرّب، ماء النجاسة لم يرش عليه، إنه نجس!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر العدد»

هذه هي البقرة.. بل بالأحرى تلك هي شريعة البقرة. ولكن... من وراء هذه الشريعة نلمح شيئاً آخر في إسرائيل الجديدة جديداً نلمح بروز إلعازار ككاهن يؤدي أمامه هذا الطقس من الطقوس، وكل طقس من الطقوس من قبل كان يؤدى أمام هارون، كأن هارون

قد بدأت تطويه موجة طاوية لتنشر على الدنيا مكانه إلعازار من مكانته من موسى وإسرائيل قد أضحت مكينة بل إن الواقع ما قد كان، فالآن يطالعنا حدث جديد فإنّ: الرّب يأمر بموت هارون!

أجل... الآن وقد مرت أربعون سنة منذ الارتحال من مصر، وإسرائيل قد عرفت من حول سيناء كل البقاع، لا تستقر في مكان حتى تنزع عنه إلى آخر حتى بلغت الآن جبل هور في طرف أرض أدوم حيث بجوار أدوم لاقت إسرائيل من أدوم ما عنه نفسها تتحدث في الإصحاح العشرين من سفر العدد ـ حيث دبّ الملل إلى القلب الإسرائيلي من أمل ظلّ أربعين سنة من حول أرض كنعان يمتدّ ويعود بعد مدّ جزراً.

الآن في هذه الفترة الغامضة بعض الشيء من تاريخ إسرائيل نرى مشهداً آخر من مشاهد رواية الدين العبري في التاريخ الموسوي ـ نرى موسى وإلعازار ومعهما هارون يصعدون إلى أعلى الجبل ثم ينحدر موسى وإلعازار وعلى الأخير ثياب هارون، بدون هارون. لقد مات هارون في أعلى الجبل. فلقد: «فعل موسى كما أمر الرّب».

الإصحاح العشرون من «سفر العدد»

هكذا قال الرّب، فإن الرّب قد كلم موسى قائلاً: «يُضمُّ هارون إلى قومه لأنه لا يدخل الأرض التي أعطيت لبني إسرائيل... خذ هارون وإلعازار ابنه واصعد بهما إلى جبل هور، واخلع عن هارون ثيابه وألبس إلعازار ابنه إياها، فيضمّ هارون ويموت هناك!».

الإصحاح العشرون من «سفر العدد»

«وفعل موسى كما أمر الرّب! وصعدوا إلى جبل هور... ثم انحدر موسى وإلعازار عن الجبل فلما رأى كل الجماعة أن هارون قد مات بكى جميع بيت إسرائيل على هارون».

الإصحاح العشرون من «سفر العدد»

سريعاً بعد هذا الحدث ارتحل موسى وإلعازار بإسرائيل المتبرمة الساخطة وأنساها تبرمّها وسخطها امتلاك يدها لأول مرة من الأرض الموعودة، أرض العمّوريين، وعن هذا الامتلاك يتحدّث الإصحاح الحادي والعشرون من سفر العدد تحدث الإصحاح الذي يليه عن ارتحال إسرائيل ونزولها في غربات موآب، من عبر أرض أريحا، وفي موآب عهد ذاك يعبد رباً «بعل فاغور» وكان وبالاق بن صفور ملكاً، وفي موآب بلعام بن يعور، كليم اللّه ونبياً. وبلغت إسرائيل شطيم من موآب وفي أرضها أقامت فيقوم موسى ذلك القيام الذي تطالعنا به:

الوصايا والأحكام والقوانين الموسوية في عربات موآب عبر أرض أريحا

و«كليم اللّه» يكتب «التوراة».

تعطينا هذه القوانين فكرة عن المستوى العقلي لإسرائيل بوضوح تام أي.. مستوى كان هذا المستوى وما الدرجة الاجتماعية التي كانت لها بين الشعوب في مقدمة هذه القوانين: قانون الحرب.

«إذا خرجت للحرب على عدوّك ورأيت خيلاً ومراكب وقوماً أكثر منك فلا تخف منهم لأن معك الرّب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر... حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك! وإن لم تسالمك... فحاصرها وإذا دفعها الرّب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرّب إلهك!

هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرّب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما!... كما أمرك الرّب إلهك».

الإصحاح العشرون من «سفر التثنية»

وبين هذه القوانين الواردة في سفر التثنية قوانين أخرى تزيدنا إلماماً ومعرفة بالمستوى العقلي لهذا الشعب منها ذلك التشريع الشرعي الوارد في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التثنية: «إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي! أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة... والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل!».

الإصحاح الخامس والعشرون من «سفر التثنية»

وإذا أبى الرجل أن يتخذ من امرأة أخيه له زوجاً؟ «إن لم يرض الرجل!

تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول: قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسماً في إسرائيل لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخ الزوج! فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه فإن أصرّ وقال: لا أرضى أن أتخذها! تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول: هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه!

فيدعى اسمه في إسرائيل: بيت مخلوع النعل!»

الإصحاح الخامس والعشرون من «سفر التثنية»

وأيضاً يلقي نفس الإصحاح ضوءاً ينير لنا نواحيَ من إسرائيل حسبنا أن نقرأها كما هي في سفرها المقدّس كما جاءت من نفس الإصحاح؟ «إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضاً رجل وأخوه وتقدّمت امرأة أحدهما لكي تخلص رجلها من يد ضاربه ومدّت يدها وأمسكت بعورته فاقطع يدها».

الإصحاح الخامس والعشرون من «سفر التثنية»

في الدين العبري والقانون الأخلاقي ملموس، ولكن... محض فطريّ، فمن مواد هذه الشريعة التشريع الوارد في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التثنية من إيفاء الكيل والميزان والإصحاح الثالث والعشرين من السفر المشار إليه الخاص بالقرض ففيه الربا يتأرجح بين التحريم والتحليل يقول: «لا تقرض أخاك بربا.. للأجنبي تقرض بربا».

وفي القوانين العبرية حثّ على الكرم والعدل فكلاهما صفة طبيعية غريزية فطرية في الشجرة التي امتدت منها إسرائيل... فصيحتها للعدالة تصبح:

«لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من إخوتك أو من الغرباء الذين في أرضك!... واذكر أنك كنت عبداً في مصر».

الإصحاح الرابع والعشرون من «سفر التثنية»

من شريعة إسرائيل هذه بعض القوانين وهي تنطوي كلها في صورة قانون وضعته الشفاه الموسوية في عربات موآب لكي يطبق في الأرض التي نحوها في زحف تتحفّز إسرائيل.

هذه، بعد شريعة سيناء: «شريعة موآب...!» شريعة ما فاء بها موسى حتى: «كتب موسى هذه التوراة وسلّمها للكهنة بني آوى حاملي تابوت عهد الرّب، ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلاً... في عيد المظال حينما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الرّب إلهك في المكان الذي يختاره، تقرأ هذه التوراة!

أمام كل إسرائيل في مسامعهم اجْمَعْ الشعب، الرجال والنساء والأطفال والغريب الذي في أبوابك لكي يسمعوا ويتعلموا أن يتقوا الرّب إلهكم ويحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة!».

الإصحاح الحادي والثلاثون من «سفر التثنية»

هذه هي التوراة... أجل.. هذه هي التوراة التي أصبح اسمها من بعد علماً على الأسفار

الخمسة الموسوية. ثم: «نطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد.. انصتي أيتها السموات فأتكلّم ولتسمع الأرض أقوال فمي يهطل كالمطر تعليمي، ويقطر كالندى كلامي، كالكل على الكلأ وكالوابل على العشب إني باسم الرّب أنادي أعطوا عظمة لإلهنا!

هو الصخر الكامل صنيعه أن جميع سبله عدل، إله أمانة لا جور فيه صديق وعادل هو... أفسد له الذين ليسوا أولاده عيبهم، جيل أعوج ملتوٍ!

الرّب تكافئون بهذا يا شعباً غبياً غير حكيم؟... اذكر أيام القدم... اسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك: حين قسّم العلي للأمم، حين فرّق بني آدم، نصب تخوم لشعوب حسب عدد بني إسرائيل أن قسّم الرّب هو شعبه يعقوب حبل نصيبه وجده في أرض قفر وفي خلاء مستوحش خرب، أحاط به ولاحظه وصانه كحدقة عينه!

الرّب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي - أركبه على مرتفعات الأرض فأكل ثمار الصحراء وأرضعه عسلاً من حجر وزيتاً من صوّان الصخر وزبدة بقر ولبن غنم مع شحم خراف وكباش أولاد باشان، وتيوس مع دسم لب الحنطة، ودم العنب شربته خمراً فسمِن يشورون ورفَس! سمنت وغلظت واكتسبت شحماً، فرفض الإله الذي عمله وعِيي عن صخرة خلاصه أغاروه بالأجانب وأغاظوه بالأرجاس!

ذبحوا لأوثان ليست اللّه، لآلهة لم يعرفوها أحداث قد جاءت من قريب لم يرهبها آباؤكم الصخر الذي ولدك تركته ونسيت الله الذي أبدأك، فرأى الرّب ورذل من الغيظ بنيه وبناته وقال: أحجب وجهي عنهم وانظر ماذا تكون آخرتهم إنهم جيل متقلّب، أولاد لا أمان فيهم!

هم أغاروني بما ليس إلهاً! أغاظوني بأباطيلهم! فأنا أغيرهم بما ليس شعباً، بأمة غبية أغيظهم! إنه قد اشتعلت نار بغضبي فتتقدم إلى الهاوية السفلى وتأكل الأرض وغلتها حرق أسس الجبال! أجمع عليهم شروراً وأنفذ سهامي فيهم!... قلت أبددهم إلى الزوايا وأبطل من الناس ذكرهم لو لم أخف من إغاظة العدو من أن ينكر أضدادهم من أن يقولوا يدنا ارتفعت وليس الرّب فعل كل هذه! إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم «لو عقلوا لفطنوا».

الإصحاح ٣٠ و٣١، و٣٢ من «سفر التثنية»

أجل... لو عقلوا لفطنوا... ثم يسترسل: «أليس ذلك مكنوزاً عندي مختوماً عليه في خزائني، لي النقمة والجزاء؟ في وقت تذل أقدامهم، إن يوم هلاكهم قريب والمهيّئات لهم

مسرعة لأن الرب يدين شعبه وعلى عبيده يشفق، حين يرى أن اليد قد مضت ولم يبق محجوز ولا مطلق يقول: أين آلهتهم الصخرة التي التجأوا إليها التي كانت تأكل شحم ذبائحهم وتشرب خمر سكائبهم؟ لتقم وتساعدكم وتكن عليكم حماية!

انظروا الآن: أنا أنا هو وليس إله معي! أنا ميت وأحيي... إني أرفع إلى السماء يدي وأقول حي أنا إلى الأبد! إذا سننت سيفي البارق وأمسكت بالقضاء يدي أردّ نقمة على أضدادي وأجازي مبغضي أسكر سهامي بدم، ويأكل سيفي لحماً بدم القتلى والسبايا ومن رؤوس قواد العدوّ؛

تهللوا أيها الأمم شعبه لأنه ينتقم بدم عبيده، ويردّ نقمة على أضداده ويصفح عن أرضه عن شعبه!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر التثنية»

النشيد نشيد غير محتاجة منه النصوص إلى إيضاح وتوضيح بكلماته نطق موسى:

«في مسامع الشعب هو ويشوع بن نون، ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع إسرائيل بكل هذه الكلمات قال لهم وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التي أنا أشهد عليكم بها اليوم لكي توصوا بها أولادكم ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة لأنها ليست أمراً باطلاً!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر التثنية»

في ذلك اليوم: في السنة الأربعين من الشهر الحادي عشر في الشهر الأول كما يقول سفر التثنية... في ذلك اليوم الذي فيه إلى نفسه خلا موسى ومن خيمة الاجتماع طلع يجمع إليه بطبقاتها إسرائيل يشرع لها الشريعة ويناول الكهنوت مسطور التوراة... ذلك اليوم جاء انقضاؤه بغد فيه غاب موسى!

واتجهت العين الإسرائيلية إلى حيث اليد اللاهوتية العبرية تشير إلى قمة جبل نبو ـ إلى حيث صعد موسى يستشرف أرض كنعان، تتمتم منها الشفاه: إن... هناك موسى! كلا لن يعود موسى! وإن يشوع بن نون، من قد قبضت قبضته الأمر، بعد موسى يقول إن: «كلّم الرّب موسى اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذي في أرض موآب... وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيتها لبني إسرائيل ملكاً ومت في الجبل الذي تصعد إليه».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر التثنية»

بنفس الطريقة التي بهم ضم هارون في جبل هور إلى آبائه، ضم إلى آبائه في جبل نبو

موسى.. تماماً: «كما مات هارون في جبل هور».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر التثنية»

للشعب المتسائل تجيب الشفاه اللاهوتية من سفر التثنية.. للرّب قولاً «لأنكما خنتماني!».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر التثنية»

أجل... هارون، كما يقول الرّب، للرّب قد خان! ولكن!... إن الرب له يقول إنه كهارون، للرّب قد خان!

متى؟... للسؤال يجيب الرّب: «في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية صين إذا لم تقدِّساني، في وسط بني إسرائيل».

الإصحاح الثاني والثلاثون من «سفر التثنية»

طوى «نبو» موسى كما طوى «هور» هارون وغيبة هارون في هور غاب في ذلك موسى... طويت الحياة الموسوية.

ولكن... هذه الحياة قد تركت أعمق الأثر في أعماق هذا الشعب! خضبت نواحيه الاجتماعية والأخلاقية وتحكمت في نواحيه العملية والفكرية وتأثرت سياسته بآرائها السياسية، وتجلّى مدى هذا التأثير فيه غداة تناولت يدا يشوع بن نون منه العنان وحقق له حلماً بعثه موسى، على جبين إبراهيم وإسحاق ويعقوب قد طاف إلى مشارق أرض كنعان حمل يشوع إسرائيل، يجمع إلى يده منها الأعنة دين كوّن في نيف وأربعين سنة في بادية سيناء، يشوع، من عنه صحب الاعتقاد العبري أن لأمره وقف كما وقفت الشمس القمر في وادي عجلون كما بذلك يطالعنا سادس أسفار «العهد القديم» الحامل اسمه حين قال: «يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي إيلون».

الإصحاح العاشر من «سفر يشوع»

أجل... الإيمان العبري لا يخالجه شك بأن يشوع قال هذا القول فوقف القمر وأيضاً: «وقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل»!

الإصحاح العاشر من «سفر يشوع»

وبهذا الإيمان اجتاز يشوع بن نون بإسرائيل إلى ما وراء أرض الأريحا فنراه ينتهز الجزر الكنعاني الذي تنحسر المعاول الأثرية عنه فتنحسر عن آثار الغزو التدميري يهتف بنا أن من هنا، من جهة الصحراء العربية ومن ناحية الشرق امتدّت الموجة التدميرية فدمّرت لآشيش

وامتدّت إلى شمال البحر الميت فدمّرت جريكو وانحرفت فهوت ببيت إيل حوالي القرن الثالث عشر ق.م بيشوع امتد هذا المدّ الذي أحرق بالنار المدن الواحدة تلو الأخرى فبلغ بإسرائيل أرض اللبن والعسل في غضون قرن حول نهايته بدأت إسرائيل تستقر على تلال ضفة الأردن وأوديته!

لتبدأ عهود تتابعت فتتابعت بأحداثها الحوادث ليطالعنا:

الدين العبري عبر العهود السياسية لإسرائيل

استهلّت إسرائيل من عهودها عهداً بذلك اللون السياسي الذي بدأ به عهد «القضاة» وتبعه عهد «الملوك» تحت ضوء التاريخ وعبر الأجيال نسير وفي يدنا العهد القديم نقلّب أسفاره فنطوي مراحل تاريخ إسرائيل في التاريخ مرحلة مرحلة...

نستهلّ هذه المراحل على هدي المعاول الأثرية التي ترينا أن في مطلع القرن الثاني عشر ق.م قد بدأت إسرائيل تستقر وتخضب البقاع وامتدّت تريد أغنى بقعة فيها، ناحية كنعان!

ولكن... لتحدّ قدومها طوائف من البحر آتية، بحضارتها النامية قد اجتاحت هذه المنطقة وسرعان ما امتزجت بكنعان التي غزتها... فإن الشاطىء ليس في يد كنعان الآن وإنما في يد هذه القبائل الإيجية التي نسميها «الفلسطينيون» مَنْ مِنْ مدنهم المحصنة كغزة وعسقلان يقاومون الغزو الإسرائيلي ـ إن إسرائيل لم تظفر من الوعد الموسوي إلاّ بالاستيلاء على مشارف الأرض الموعودة، وحياتها على هذه المعتليات تنصرف بها الأيام إلى مناوشات بين القبائل الجبلية كالموآبيين والمديانيين وتحملها الأيام إلى القرن الحادي عشر ق.م. فتمتد تحاول غزو فلسطين وتمتدّ فلسطين تكيل لها نفس الكيل! وإذا كانت آثار المقاومة في غزة وعسقلان واضحة تحت المعاول الأثرية فإن هذه المعاول نفسها في المدن اليهودية توضح أن حوالي هذا القرن قهرت فلسطين إسرائيل واستولت على «تابوت العهد» وإلى عبودية ذكرتها بعبودية مصر من قبل، اضطرّت إسرائيل...

أين أهيه، رب إسرائيل! أين أهيه وهذا تابوت العهد، وحيث يوجد تابوت العهد يوجد أهيه، في فلسطين رهين أسرا!؟ وأين الوعد الذي أقسم بنفسه رب إسرائيل أن ينجزه لإسرائيل؟ بين قوم أقوياء يعتقدون أن قواهم مستمدّة من قوى إلهتهم وجدت إسرائيل نفسها تعيش من حول بيت إيل، وأورشليم مفككة الروابط منشقة على نفسها، لا تربطها من الروابط إلاّ رابطة العقيدة القوميّة، وأما نظامها فحتى هذا العهد نظام قبلي ينتظمه اللانتظام، حياتها حياة البدو الرحل، وحكّامها قضاة طابعهم محض كهنوتيّ!

أجل... إسرائيل، في هذا العهد، كما تروي المعاول الأثرية قاطنة خيام ومنتجع نجوع، وعهدها عهد فطرة.

ولكن رغم هذه البداوة الغالبة على طبيعتها فإلى ما تراه لغيرها من الأمم تصبو فتصبو إلى إقامة ملكية وملك باسم أهيه!

إسرائيل تريد ملكاً يرفعها من مقام العبودية، إلى مقام السيادة... وأخيراً طلبت إلى صموئيل الكاهن الأكبر أن يجعل لها ملكاً ـ وأرغمت إرادة صموئيل على الخضوع لإرادة إسرائيل، ونادى إليه شاول يمسحه بالزيت المقدّس قائلاً، «إياي أرسل الأب لمسحك ملكاً على شعبه!».

الإصحاح الخامس عشر من «سفر صموئيل الأول»

وهكذا قام، حول سنة ١٠٢٠ ق.م، أول ملك لإسرائيل ـ شاول بالزيت المقدس مسيحاً!! وهكذا تطالعنا في تاريخ الدين العبريّ!

نموّ فكرة المسيح

وبالملكية بلغ الحلم التحقيق فمنتعشاً أطاح شاول في بدء حكمه بالنير الفلسطيني ولكن للنير الكهنوتي وجد نفسه أسيراً وغداة كفت مسامعه عن الإنصات إلى الصوت الكهنوتي، أنصتت إسرائيل إلى الصوت يدويّ بأن الرب يقول: «ندمت على أني قد جعلت شاول ملكاً!».

الإصحاح الخامس عشر من «سفر صموئيل الأول»

وتراخت يد شاول ـ وعاد النير الفلسطيني في عنق إسرائيل ثقيلاً وعادت إسرائيل تطلب من جديد ملكاً يحررها من النير الثقيل ـ ومن جديد خضعت الإرادة الكهنوتية للإرادة الشعبية وإلى داود أرسل الرّب صموئيل يمسحه، كما أمر الرّب بالزيت المقدس...

بداود أشرق لإسرائيل عهد جديد به أشرقت لها الدنيا فسياسياً حنكته التجارب كان داود ـ إلى جبل صهيون نقل عاصمته، واتخذ أورشليم قاعدة الملك ضمّ إلى مدن اليهودية في الجنوب، مدن الشمال وطلعت بين المدن مدينة داود أو بيت القدس...

وعلى النير الكهنوتي انقلب داود ينتظمه إلى طوائف ويصوغه إلى حلقات تمسك يده بنهايتها ـ وتحوّل إلى فلسطين يخلع النير الثقيل ويحطمه تحطيماً حوالي سنة ٩٩٠ و٩٨٠ ق.م..

وإلى إسرائيل أعاد داود «تابوت العهد» فأعاد «أهيه» إلى إسرائيل! وفي المدينة المقدّسة أورشليم على تلال صهيون ألقى داود «الصخرة» وسارت الأيام من داود إلى سليمان..

وأقام سليمان خليفته: «البيت» وسنّ سليمان، في الصلاة الاتجاه إلى بيت المقدس فقامت القبلة وعلى عرش «داود» انصرفت الأعوام عن «الحكيم» استهلها ببناء «البيت» من حجر، كي إليه ينقل من «الخيمة» رب إسرائيل فقد أقام معاهدة مع فينيقيا فموّلته بالمال، أرسلت إليه الأرز والعاج وعلّمته التحضّر فابتنى «القصر» ومن العاج أقام على غرار العروش عرشاً.

وإلى هذا «البيت»، الذي أقامه سليمان في العام الرابع من حكمه والذي يصفه سفر «أخبار الأيام الثاني» دلف الكهنوت اللاوي حاملاً على أكتافه «تابوت العهد» وفيه ذلك الحجران اللذان هبط بهما موسى من أعالي حُوريب... دلف يضعه في «قدس الأقداس» في أظلم مكان من المعبد.

وسترسل هذا السفر فيحدث أن أثناء الاحتفال بذلك والمحرقات يسبح دخانها في المعبد كسحاب: «البيت بيت الرّب امتلأ سحاباً». وتلفت الكهنوت العبري يقول: «مجد الرّب ملأ بيت اللّه».

الإصحاح الخامس من «سفر أخبار اليوم الثاني»

وحينئذٍ قال سليمان: «قال الرّب إنه يسكن في الضباب».

الإصحاح السادس من «سفر أخبار اليوم الثاني»

وأن سليمان تلفّت كمن يخاطب الرّب: «أنا بنيت لك بيت سكني مكاناً لسكناك إلى الأبد..».

الإصحاح السادس من «سفر أخبار اليوم الثاني»

ثم التفت الملك حوله وبارك...

«وقال مبارك الرّب إله إسرائيل الذي كلّم بفمه داود أبي وأكمل بيديه قائلاً: منذ يوم أخرجت شعبي من أرض مصر لم أختر مدينة من جميع أسباط إسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك ولا اخترت رجلاً يكون رئيساً لشعبي إسرائيل... وكان في قلب داود أبي أن يبني بيتاً لاسم الرّب إله إسرائيل فقال الرّب لداود أبي من أجل أنه كان في قلبك أن تبني بيتاً لاسمي قد أحسنت... إلا أنك أنت لا تبني البيت، بل ابنك... وقد قمت أنا مكان داود أبي وجلست على كرسي إسرائيل كما تكلّم الرب!».

الإصحاح السادس من «سفر أخبار اليوم الثاني»

ثم.. خرّ سليمان راكعاً: وأمام محراب الرّب، في حضرة المجمع الإسرائيلي: «وبسط

يديه نحو السماء وقال أيها الرّب إله إسرائيل! لا إله مثلك في السماء والأرض».

الإصحاح السادس من «سفر أخبار اليوم الثاني»

بيناء «البيت» استقر العرش الداودي من تحت سليمان في إسرائيل وبين موآب في الجنوب العابدة «شموس»، وفينيقيا في الشمال العبادة «عشتروت» ملكة السماء، وآمون العابدة «مِلْكُم» أو مولوش، قام عرش داود في إسرائيل العابدة «أهيه»..

من عاج فينيقيا وذهب موآب نحت عرش داود وجلس عليه:

سليمان، كمن يعاصره من الملوك، ملكاً ـ وكالملوك، عليه الأثواب الموشّاة بالذهب ـ وكالملوك، عليه يطاف بصحاف وأكواب من ذهب الرحيق الجاري فيها الدم المُعْتَصرُ من الشعب في صورة ضرائب وجزايا.. وكالملوك، اتسع منه القلب لأكثر من موآبية وفينيقية ومصرية وآمونية وحيثية، وضمّ فراشه في آن واحد سبعمائة زوج وثلثمائة محظية.

وعن سليمان، «الحكيم» ملكاً بدأت تنصرف الأيام وتتحوّل إلى سنين نافت على ربع القرن من الزمن وقاربت النصف وغدا بينه وبين ذلك اليوم، الذي فرغ فيه من بناء البيت وأمام محرابه خَرّ راكعاً يسبّح ربّ إسرائيل، عهد طويل!

غدا اليوم غير ذلك اليوم وعن «رب إسرائيل» مال قلب حكيم إسرائيل!

بهذه الحقيقة يصطدم الفكر فكيف يمكن أن يجيء هذا الانحراف من أحكم حكماء إسرائيل؟

من «العهد القديم» تطالعنا قصة هذا الانحراف عن أهيه بعد «التجلّي والرؤية والمكالمة» فهو يُحدّث أن:

«فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين، ومِلكم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشرّ في عيني الرّب... حينئذٍ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولملوك رجس بني عمون!».

الإصحاح الحادي عشر من «سفر الملوك الأول»

أجل... بنى سليمان لعشتروت أو القمر هلالاً، ولملوش ابن الإله السماوي والبعل الذي إذا غضب فلن يَسْكِن غضبه إلاّ بتضحية الأعزّة من الأطفال وإلقائها له في هاوية من نار...

واستفزّ هذا التصرّف الكهنوت فأرسل غضبته شرراً ينفثها في الشعب العبري الذي قد أرهقه ثراء العرش فقراً وثارت حفيظة الشعب، على ساكن قصر حامت من حوله الدعايات

الدينية بالدسائس السياسية وسببت هذه الدسائس الانقسام القبليّ الذي جاء بتحزب القبائل إلى أحزاب سببت تنافر قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة، فلم يظل من هؤلاء القبائل ملتفاً حول العرش الداودي إلاّ قبيلتا بنيامين ويهوذا! كأثر لهذا الانشقاق يطالعنا:

انقسام الشعب العبري إلى إسرائيل في الشمال واليهودية في الجنوب

بهذا الانقسام الذي طلعت به في الجنوب مملكة اليهودية وفي الشمال المملكة التي أبت إلاّ حمل اسم إسرائيل، تعريفاً لها أنها هي إسرائيل الحقيقية، بدأ الدين العبري على نفسه ينقسم ذلك الانقسام الذي به تطالعنا صفحة في تاريخ الدين العبري جديدة... فإننا كما نقلب صفحات الكتاب المقدّس يأتي الفكر الجائل بين سطوره الجواب بأن هكذا بدأت تسير الأيام في الشمال إسرائيل وفي الجنوب اليهودية وفيها أورشليم، مدينة بين المدن قد اختارها «ربّ إسرائيل» ففي أورشليم المقدّسة «بيت الرّب!».

لا غرو إذ أن إلى جبل صهيون يشرئب من الشمال العنق وإن إلى اليهودية وبيت الرّب يهفو القلب العبري في إسرائيل... ولا غرو أن يخاف نتائج هذه الظاهرة بيت شاول وإلى نفسه يخلو، ابن شاول، يربعام:

«وقال يربعام في قلبه الآن ترجع المملكة إلى بيت داود، إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت الرّب في أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم، إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلوني، ويرجعوا إلى رحبعام ملك يهوذا فاستشار الملك وعمل عجليّ ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هوذا إلهتك إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحداً في بيت إيل وجعل الآخر في دان!».

الإصحاح الثاني عشر من «سفر الملوك الأول»

إلى «العجل» عادت الشمال، وبه في «دان» و«بيت إيل» بدأ عن «أهيه» الانحراف وساق الانحراف إسرائيل إلى لون من التحرّر العقيدي بها اتجه إلى الإلهة التي سبقت رب إسرائيل في ألوهية السماء ـ عن الألوهة العبرية إلى الألوهية الفينيقية اتجهت إسرائيل وتركت أهيه إلى إيل من إليه تتجه عابدة في صورة عبادتها ابنه: بعل الإيل تحرق المحرقات وتضحي الضحايا وتقرّب القرابين... ومن بعل تقترب وشفيعها في الاقتراب إليه تلك التي إليها قد انعطفت منها العاطفة؛ ومن معبدها تقترب عابدة تضيء يدها في محرابها الشموع، وتلقي في مجامرها البخور تناديها:

أناث، سيّدة السماء؛ في هذه الفترة الزمنية والزمن بنا على هذه الناحية من الأرض يقترب من المسيحية، تطالعنا المعاول الأثرية في الشمال بما به لنا تؤكد ما قد جاء في

الأسفار المتأخرة من «العهد القديم» من انصراف إسرائيل عن أهيه إلى بعل وإلى سيدة السماء ـ فمن مجيدو ومن سامريا يطالعنا انصراف إسرائيل في القرن التاسع والثامن ق.م عن أهيه.. تطالعنا إسرائيل المتأثرة بالكنعانية المتأثرة نفسها بالرعامسة تصور منها اليد «رع» ثم على العاج المطعّم بصفائح الذهب تصور «إيزيس» وعلى اللوتس تصوّر «حورس» في صورته التي تعني أنه: الكلمة!

ظاهرة تحمل في غضونها للعقل السياسي وخيم النذر، بل شراً شرره مندلع فمعنى هذا التحوّل تفرّق الشعب العبريّ، معناه إضعاف الجنوب بتلاشي الشمال ـ معناه، بعد التصدّع الذي جاء به ذلك الانشقاق، انهيار الصرح العبري الذي قد بناه موسى بأهيه!

أمام أخطر ظاهرة حامت في الأفق العبري وكادت به كشعب تطوّح وفي تيار الأمم الأخرى لعناصره تذيب، تلج بنا الأحداث السياسية في أخطر فترة من تاريخ الدين فطوائف من الساسة متفاوتة المراتب الاجتماعية والدرجات الثقافية تجمع بينها عقيدة واحدة مشتركة تلتقي عند فكرة أن هذا الخطر المحوم في الأفق العبري بالانصراف عن أهيه ودينه إنما سببه ذلك الانشقاق الذي به قد انفطرت الوحدة العبرية وانفصلت إلى جنوب وشمال... الأمر الذي ما كان ليحدث وقبضة داود تضم إسرائيل جميعاً وعرشه في وحدة يطويها!

أين ذلك الأمس من هذا اليوم؟ إن عرش داود والوحدة القومية أصبحا ذكرى ملتهبة مستعرة بين جوانب هذه الطائفة، تؤجج منها القلب وتدفعها جمعاً إلى «يوم» تعود فيه هذه «الخراف الضالة» إلى حظيرة واحدة، تحت رعاية راع حكيم، يضمها بوحدة كتلك التي كانت لها في ظل داود ويعود فيظللها من جديد عرش داود. إلى هذه الغاية، تقود تلك الوسيلة التي قديماً قد كوّنته شعباً وفصلت بينه قديماً وبين الشعوب وهي الاعتراف بأهيه إلهاً للكون!

بين وميض حلم بماض، ووميض حلم آت ظهرت هذه الطائفة من الساسة على مسرح الأحداث لتلعب أخطر الأدوار في التاريخ السياسي العبريّ، وفي التاريخ الإلهي العبريّ!

هبّت هذه الطائفة تلتف من حول هذا الشعب تنفث فيه روح الثورة والتمرّد على الحالة القائمة فطبعت نفسها بطابع غير طابع النبوّة المعروف في إسرائيل عهد ذاك طابع وإن يكن في هذا الشعب غير جديد، إلا أنه طابع تميزه عن النبوة صفة الرسالة!..

أجل.. طلعت هذه الطائفة تميّزها عن النبوة صفة الرسالة فالرسالة شيء والنبوة شيء آخر، النبوة صفة لم يخلُ منها دين من أديان الشرق القديم واعتراف الدين العبري بها

كاعتراف الدين الفينيقي فإن لـ «بعل» كما لـ «أهيه» أنبياء، وإنما الجديد أن هذه الطائفة تقف على الأسس التي حفرها «موسى» في العقلية العبرية غداة أقبل على قبائل إسرائيل يقول: كلمني الرّب وإليكم أرسلني...

ومن ثم فإذا كانت النبوّة وحياً وإيحاءً وتنزيلاً وقذفاً في القلب والبصيرة والذهن، فإن الرسالة تَجَلٍّ ورفع كلمة، وتكليف بأمر ورؤية وكلام... ومن هذه الطائفة سبّاقاً إلى الظهور عَبْر التاريخ الديني والسياسي معاً كان: إيليا إلى سامريا من الجلعاد، حيث طابع الحياة الخشونة والبساطة والطابع طابع العهد الموسوي وكأن في ركب الحياة قد تخلّف الركاب بالأحياء، هبط إيليا شخصية سياسية آثارها تحضر سامريا فجاءت إليها رادعة.

شخصية... تنتشر لنا حياتها من خلال سفري الملوك الأول والثاني، حياة بدؤها للإله كلام واختتامها الصعود إلى السماء!

أجل... بالصعود إلى السَّماء تختتم حياة إيليا ليخلفه آخر من رسل الدين العبري يطلع علينا من ثنايا سفر آخر من «العهد القديم».

في عهد كان فيه المدّ السياسي الآشوري يكتسح سامريا ويهوى بإسرائيل ارتفع، لردع اليهودية عن التمادي وراء دين غير دين أهيه، من وراء العرش صوت مستشار العرش!.. وفي أجواء اليهودية دوى الصوت من هذه الشخصية رادعاً زاجراً ولكن لا في صورتها وصفتها السياسية وإنما تحت صورة وصفة دينية محضة، صفة الرسالة وصورة الرسول فتحت هذه الصورة طلع على التاريخ الديني، حوالي ٧٧٤ ـ ٦٩٠ ق.م:

أشعياء.. في هذه المرحلة الدقيقة من الزمن طلع أشعياء على شعب اليهودية يناديه: «اسمعي أيتها السموات واصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم، ربيت بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا لي الثور يعرف قانيه والحمار صاحبه أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم! ويل للأمة الخاطئة الشعب الثقيل الإثم نسل فاعلي الشر أولاد مفسدين... لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرّب اتخمّت من محرقات كباش وشحم مسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس..».

الإصحاح الأول من «سفر أشعياء»

ويسترسل: «رأيت السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل، السرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه، وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير، وهذا نادى ذاك وقال: قدوس، قدوس، قدوس! رب الجنود مجده ملأ كل الأرض فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً، قلت ويل لي إني هلكت! لأني

إنسان تنس الشفتينِ وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عيني قد رأت الملك ربّ الجنود!».

الإصحاح السادس من «سفر أشعياء»

ويمضي أشعياء فيقصّ على اليهودية نهاية القصة، والتاريخ الديني من حوله مرهف يصغي ويسجل: «فطار إليّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من فوق المذبح ومسّ بها فمي وقال إن هذه قد مسّت شفتيك فانتزع إثمك وكفّر عن خطيتك!».

الإصحاح السادس من «سفر أشعياء»

ويمضي هذا الرسول في قصته محدثاً بعد أن رأت عيناه الرّب: «ثم سمعت صوت السيد قائلاً: من أُرسل ومن يذهب من أجلنا؟ فقلت: ها أنذا أرسلني! فقال: اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا، وابصروا إبصاراً ولا تعرفوا! غلّظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه واطمس عينيه، لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى! فقلت: إلى متى أيها السيد؟ فقال: إلى أن تصير المدن خربة بلا ساكن!».

الإصحاح السادس من «سفر أشعياء»

وإلى ناحية مصر يتجه وجه أشعياء إلى حيث يرى، كهبوب آشور على إسرائيل، هبوباً يتجمع في الأفق البعيد.. وإلى اليهودية يلتفت يقول: «هو ذا الرّب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر أشعياء»

وكما كلّم الرّب «موسى» وأرسله من قبل، يُكلم الرّب الآن أشعياء ويرسله إلى شعبه «الشرير» «الغليظ القلب» القاسي الطبيعة الخشن الطبع، ومن اختاره بين الشعوب طرّاً له شعباً!

ويسترسل أشعياء في ردعه وتخويفه لهذا الشعب بنغمة جديدة ترن في المسمع العبري فهو يتكلم منبئاً بيوم ليس من أيام الناس وإنما هو «يوم الرّب» فإن: «في ذلك اليوم... تحيا أمواتك تقوم الجثث، استيقظوا ترنموا يا سكان التراب، لأن طلت طلّ أعشاب!».

الإصحاح السادس والعشرون من «سفر أشعياء»

أيها الثائرون: «استيقظوا»...

الإصحاح السادس والعشرون من «سفر أشعياء»

إنهم يوم النشور! على الأرض سيكون يوم «أهيه» للموتى نشوراً... يوم سيساق فيه الكل

إلى صهيون حيث سيحكم الرّب ويبدأ من جديد إلى الأبد على الأرض حكم الموسويين! عن «النبأ العظيم» تساءلت أرجاء اليهودية وقد أخافها ما عنه قد جاء من تصوير... أخافها «يوم» فيه سيدوي «البوق الأعظم» وفيه «تلتف السموات كدرج» ففيه «كل جندها ينتثر» كما يتحدث الإصحاح الرابع والثلاثون من سفر أشعياء. في ذلك «اليوم»، من السماء المطوية والنجوم المتناثرة، سيعرف الناس على الأرض أن يوم «الرّب» قد حلّ فتنتشر الموتى ليحكم الرّب على الناس، بل وتحشر الوحوش، ففي ذلك اليوم «سيعاقب الجميع بسيف عظيم» وتفرغ الأرض من السؤدد إلاّ لشعب الرّب، فتحكم إسرائيل الموحّدة الأرض إلى الأبد!

ولكن... في هذه الآونة وأشعياء مستمر في تنبوءاته تبدأ آفاق اليهودية في الاقتتام فالمد المصري قد أقبل مكتسحاً يلحق بالمد الآشوري حتى الفُرات، تاركاً وراءه للمعاول الأثرية آثار «واقعة مجيدو»! بل إن آفاق اليهودية تزداد على اقتتام اقتتاماً فالمدّ البابلي قد بدأ الزحف مقبلاً بموج هديره القوي عاصف يعصف بالمسمع العبري حتى كأن «أهيه» عن شعبه قد تخلّى!

أجل... أقبل المدّ البابلي من الشمال البعيد وقبل أن تشعر به جسم اليهودية لمحته منها الرؤوس، ومن بينها تلك الشخصية التي تطالعنا ولها من الصفات الدينية أيضاً صفة الرسالة، وعلينا في هذه الفترة الزمنية تطلع باسم: أرميا.. لسنا بصدد التحدث عن حياة وتاريخ أرميا، ابن حلقيا، وذهابه إلى الفرات وعودته إلى أورشليم لنبوخذ ناصر الثاني داعياً وإنما نحن بصدد التفكير الديني الذي يطالعنا في هذا العصر من هذه الشخصية التي يحفها التاريخ الديني بالإجلال، والتي طلعت على اليهودية في مهب الهبوب السياسي لأورشليم تقول:

«فكانت كلمة الرّب إليّ قائلاً: قبلما صورتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدّستك، جعلتك نبياً للشعوب! فقلت: آه يا سيدي الرّب إني لا أعرف أن أتكلم لأني ولد، فقال الرّب: لي لا تقل إني ولد، لأنك إلى كل مَنْ أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك...

ومدّ الرّب يده ولمس فمي! وقال الرّب لي: ها قد جعلت كلامي في فمك!».

الإصحاح الأول من «سفر أرميا»

وأن الرّب له قال: «اذهب وناد في أذني أورشليم... شر يأتي».

الإصحاح الثاني من «سفر أرميا»

الشر آت؟ للمتسائل يأتي من نفس السفر الجواب فشفتا أرميا تجهران بأن الشر آت لأن

«شعب أهيه»، شعباً بل أنبياء، قد هجر أهيه إلى بعل! بينما.. بينما أهيه قد تزوج إسرائيل وأضحى لها بعلاً! أهيه، بعل إسرائيل؟!

نغمة قطّ ما رنت بها المسامع إلاّ في أرجاء فينيقيا وتعريف قط ما صادفه الفكر إلا في تعريف الدين الكنعاني في صورة تلك الطقوس الرامزة إلى هذه العقيدة، عقيدة الزواج بين الإله والشعب...

ولكن... بالنداء يطلع أرميا على الملأ العبري قائلاً: إن الرّب له أيضاً قد قال موجهاً الكلام إلى إسرائيل:

«إذا طلّق الرجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر فهل يرجع إليها بعد؟ ألا تتنجّس تلك الأرض نجاسة؟! أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين!

لكن ارجعي إليّ، يقول الرّب! ارفعي عينك إلى الهضاب وانظري أين لم تضاجعي؟ في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البريّة ونجست الأرض بزناك وبشرِّكِ... جبهة امرأة زانية كانت لك! أبيت أن تخجلي! ألست من الآن تدعينني يا أبي أليف صباي أنت؟

هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل؟ انطلقت إلى كل جبل عال... وزنت هناك! فقلت: بعد ما فعلت كل هذا ارجعي إليّ فلم ترجع! فرأت أختها الخائنة يهوذا فرأيت أنه لأجل كل الأسباب إذ زنت العاصية إسرائيل فطلّقتها وأعطيتها كتاب طلاقها!».

الإصحاح الثالث من «سفر أرميا»

ويسترسل أرميا: «لم تخف الخائنة يهوذا أختها بل مضت وزنت هي أيضاً وكان من هوان زناها أنها نجست الأرض وزنت مع الحجر ومع الشجر وفي كل هذا أيضاً لم ترجع إليّ أختها الخائنة يهوذا بكل قلبها بل بالكذب يقول الرّب، فقال الرّب لي: قد بررت نفسها العاصية إسرائيل أكثر من الخائنة يهوذا».

الإصحاح الثالث من «سفر أرميا»

«حقاً إنه كما تخون المرأة قرينها هكذا خنتموني يا بني إسرائيل، يقول الرّب!».

الإصحاح الثالث من «سفر أرميا»

غدا أهيه بعلاً لإسرائيل، وغدت إسرائيل له زوجة هو لها «بعل» وهي له «زوجة!».

بهذه الصيغة تطالعنا شفتا، أرميا، الطالع على اليهودية من أرض بنيامين في «بيت أناث» وقبل أن يكون «رسولاً» كان فرداً من الكهنوت القائم في «بيت أناث» مقرّ عبادة «سيدة السماء» الربة «بعلت» زوجة الرّب «بعل»!

أجل... في فترة زمنية أحداثها السياسية على شعب اليهودية أحداث انقلاب، يطلع أرميا والطوفان البابلي باليهودية قد أحاط يقول عن «رب إسرائيل» قولاً تنعكس فيه لربِّ إسرائيل هذه الصفات وباليهودية الفزعة ينادي: «قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا جالب على هذا الموضع شراً.. وأطعمهم لحم بنيهم ولحم بناتهم»!

الإصحاح التاسع عشر من «سفر أرميا»

هذا التهديد يحمل معنى لا يغيب عن اليهودية في ذلك العهد معنى تدرك من ورائه أن «أهيه» منها سينتقم لأن أبناء اليهودية قد أتوا شراً:

«بنوا مرتفعات للبعل ليحرقوا أولادهم بالنار... الموضع توفة.. وادي ابن هنوم!».

الإصحاح التاسع عشر من «سفر أرميا»

أجل...! في «جهنم» أحرقت اليهودية أبناءها وبناتها بالنار ضحايا «لبعل مولوش» ولذلك لن يسكن غضب أهيه إلا إذا أنزل بهذا البلد دماراً يجعلها فيه تأكل لحم الأبناء والبنات!

أجل! لقد أثارت اليهودية غضب «أهيه» بتحوّلها عنه إلى «مولوش» الرّب الذي إذا ما غضب على الآباء أنزل النقمة بالأبناء والبنات...

وعلى اليهودية لن يهدأ غضب «أهيه» إلا إذا لفحت اليهودية من غضبه اللوافح... إلا إذا قتل الآباء الأولاد من الأبناء والبنات!

لأهيه تسجّل هذه الصفة في اللاهوت العبري كما تصوّره شفتا أرميا أو هذه الشخصية التي يلقي عليها التاريخ السياسي أضواءه فنراها عبر تاريخها الديني، الشخصية التي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ السياسة العبرية...

على صفحات التاريخي السياسي منتشرة الأحداث التي جاء بها ارتفاع الموجة البابلية وامتدادها قوية الهدير جارفة وعلى صفحات التاريخ الديني العبري مسجلة رحلة أرميا إلى الفرات، وعودته إلى أورشليم يقول:

إن الرّب يقول إني سأحارب ضدكم! سيسلم الرّب ملك اليهودية ورؤساءها أسرى في يد بابل، في يد «نبوخذ ناصر» الذي يناديه الرّب «في سفر أرميا» بصيغة التحبيب والذي عنه أرميا يقول إن ربّ إسرائيل عنه يقول: «دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدي وأعطيته أيضاً حيوان الحقل ليخدمه فتخدمه كل الشعوب!».

الإصحاح السابع والعشرون من «سفر أرميا»

أجل... على صفحات التاريخ السياسي منتشرة تلك الأحداث التي أشاعت في آفاق

أورشليم أطياف الغزو والغُزاة، وما صاحب تلك الأحداث من القبض على «أرميا» وإيداعه السجن بتهمة التآمر على الحكم القائم، وانصراف الأيام إلى تحقيق ما قد «قاله الرّب» فهذا المدّ البابلي قد أقبل.

ولكن ليتراجع أمام المدّ المصري مطاردته المدّ الآشوري وبذلك أصبحت «اليهودية» لمصر تابعة تقدّم لها الجزية والفريضة المفروضة على المسود للسيد. وليقبل من جديد المدّ البابلي يريد أورشليم، ويجترف الأسر البابلي ملك اليهودية ورؤساءها من أورشليم إلى بابل إلى حاضرة الإمبراطورية وشمس الحضارة الساطعة فإن اليهودية قد ثارت تلك الثورة التي كان من جرائها أن أقبل «نبوخذ ناصر الثاني» في السنة الثامنة والعشرين من حكمه، ليعود إلى بابل ومن ورائه أورشليم، النار في أركانها مشتعلة و«بيت الرّب» يهوي أنقاضاً.. دوى دَوِيّة المصطحب بدخان الاحتراق يعبق ويرّن في مسمع اليهودية ويروح إلى حيث حملت أسرى من ظلال صهيون إلى شاطئ الفرات...

في غضون الأسر البابلي يطالعنا الدين العبري بلون سيترك على الأجيال خطير الأثر كما تصوره شفتا أرميا «الرسول» الذي نراه على شاطىء الفرات وقد كرّت من حوله السنون فإذا بالماضي ومضات في ليل حاضر ظلمته ديجور!

أجل... تنفرج من شفتي «أرميا» الجالس الآن على شاطىء الفرات يستعرض في أحلام الحاضر أحلام الماضي تهزه الذكرى وتحرقه الذكريات ويعصف بقلبه عاصف الحنين القوي إلى إعادة الصرح المقوض، عن: لقد هجر «أهيه» إسرائيل وكاد يطلقها ولكن! هذه الحالة التي أوصلها إليها الأسر البابلي، هذه الكرامة المسفوكة والعزة الهاوية... هذه القومية الذائبة في خضم الإمبراطورية القائمة تُصوّب إلى الضمير سهام الندم...! على الشرّ الذي قد أنزله بشعبه «أهيه» قد ندم!

على شاطئ الفرات جلس أرميا راثياً ومن سفر مراثيه نراه يلتفت لمن حوله يقول إن الرّب يقول: «ندمت عن الشر الذي صنعته بكم».

الإصحاح الثاني والأربعون من «سفر أرميا»

أجل... ساق الندم إلى الحنين، وساق الحنين إلى الرحمة، والندم والحنين والرحمة إنما عوامل يسعى تحت تأثيرها العقل إلى تقويم ما قد تداعى من الصرح المقوض.

ولكن... تقويم الصرح القديم والعودة إلى البلد المقدّس، إلى ظلال صهيون أو عرش أهيه، وجمع الكلمة المتفرقة للشعب المتفرق تحت وحدة، لا يمكن قط أن يكون ما لم تضم هذه اليد يجب أن تكون نفسها من دم ولحم داود! يجب أن تكون من الشجرة الداودية: «غصن!».

بدافع هذا الحنين المعتلج إلى وحدة قومية سياسية بيد «غصن» من داود يطالعنا الدين العبري في أرض الكلدان كما تصوّره شفة لاهوتية أخرى لشخصية سياسية طواها الآن الأسر البابلي من أهل الكهانة في اليهودية كان صاحبها كاهناً، ونشرها على ضفاف الفرات، بعد مضي نيف وثلاثين سنة على هذه الضفاف، من رسل إسرائيل رسولاً، كما تحت هذه الصفة على التاريخ الديني يطالع:

حزقيال.. على ضفاف الفرات نشر الأسر البابلي الأول من عرفته أورشليم بين رجال كهنوتها في ظلال صهيون كاهناً حمله الأسر البابلي الأول مع من حمل... وهناك طلع ينادي نداءً ردّده من حوله الشعب الأسير فدوّت الأرجاء العبرية أن حزقيال الكاهن قد بُعِثَ رسولاً!

ولحزقيال، تحت هذه الصفة، كرسول، تاريخ تاريخه:

الإسراء الحزقيالي إلى بيت المقدس

في أرض غريبة عصف بالقلب العبري فيها لواعج الحنين وهزّ الشوق فيها إسرائيل إلى إسرائيل، طلع حزقيال على قومه يحدّثهم أن إليكم قد بعثني اللّه رسولاً... ويستهل حديثه: «إن السموات انفتحت فرأيت رؤى اللّه!».

الإصحاح الأول من «سفر حزقيال»

ويسترسل ناحياً عليهم باللائمة: كلمني الرّب: «وقال لي يا ابن آدم، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل، إلى أمة متمردة قد تمرّدت عليّ... فاسمع ما أنا مكلمك به... فنظرت وإذا بيد ممدودة إليّ وإذا بدرج سفر فيها!».

الإصحاح الثاني من «سفر حزقيال»

يسائل الفكر حزقيال من خلال الأجيال أين هذا السفر؟ ومن خلال الأجيال يأتي من حزقيال عبر «سفره» الجواب: أن «أكلته»! «أكلته فصار في فمي كالعسل حلاوة!».

الإصحاح الثالث من «سفر حزقيال»

من بيته طلع حزقيال على قومه يحدّث هذا الحديث ويقول أن قد حدث: «وأنا جالس في بيتي.. أن يد السيد الرّب وقعت عليّ هناك، فنظرت وإذا شبه كمنظر نار من منظر حقويه إلى تحت نار ومن حقويه إلى فوق كمنظر لمعان كشبه النحاس اللامع، ومدّ شبه يد وأخذني بناصية رأسي ورفعني روح بين الأرض والسماء وأتى بي في رؤى اللّه إلى أورشليم».

الإصحاح الثامن من «سفر حزقيال»

إلى «بيت المقدّس» أسْرت به «الروح» ـ أما لماذا كان الإسراء إلى أورشليم، فسبب يقصه حزقيال قائلاً أن ليريه الرّب جور «شعبه» الذي اختاره فقد: «قال لي يا ابن آدم ارفع عينيك نحو طريق الشمال.. يا ابن آدم هل رأيت ما هم عاملون، الرجاسات العظيمة التي بيت إسرائيل عاملها هنا لإبعادي عن مقدسي؟».

الإصحاح الثامن من «سفر حزقيال»

يقول حزقيال إن الرّب قال هذا القول ثم يتابع حديثه: «ثم جاء بي إلى باب الدار فنظرت وإذا ثقب في الحائط، ثم قال لي يا ابن آدم اثقب في الحائط، فثقبت في الحائط فإذا باب، وقال لي ادخل!.. فدخلت...».

الإصحاح الثامن من «سفر حزقيال»

ويسترسل حزقيال مُحدّثاً: «فدخلت ونظرت وإذا كل شكل دبابات وحيوان نجس وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على الحائط! ثم قال لي أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل؟ وقال لي بعد تعود تنظر رجاسات أعظم هم عاملوها، فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرّب الذي من جهة الشمال وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز!

فقال لي: أرأيت هذا يا ابن آدم؟ بعد نتعود تنظر رجاسات أعظم من هذه! فجاء بي إلى دار بيت الرّب الداخلية، إذا عند باب هيكل الرّب بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً ظهورهم نحو هيكل الرّب ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس نحو الشرق، وقال لي أرأيت يا ابن آدم؟ أقليل لبيت يهوذا عمل الرجاسات... فأنا أيضاً أعامل بالغضب، لا تشفق عيني ولا أعفو، وإن صرخوا في أذني بصوت عال لا أسمعهم!».

الإصحاح الثامن من «سفر حزقيال»

أجل هكذا يقول «الرب» والسحب البابلية تزداد تكتلاً في آفاق أورشليم، لرسوله الذي به أسرى إلى «بيت المقدس». ملتهبة بدأت نغمة الشر تلقي حمماً، ومن شفتي هذا الرسول تنصب على أورشليم! على شعب الرّب بكليته وعلى أنبيائه ورسله، حمماً تطفو من الإصحاح الثالث عشر من سفر حزقيال تصف الأنبياء والرسل بالكذب وتشبههم بالثعالب ـ «ثعالب كذبة» لم يروا شيئاً مما يقولون ولا يكلمهم الرّب ولا يقول لهم شيئاً فإنهم ليسوا إلا: «عرافة كاذبة القائلون وحي الرّب والرّب لم يرسلهم!».

الإصحاح الثالث عشر من «سفر حزقيال»

أجل.. بهذا الحديث يُحدث حزقيال: ليسترسل قائلاً إن اللّه له قال: «يا ابن آدم عرّف

أورشليم برجاساتها! وقل هكذا قال السيد الرّب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوك أموري وأمك حيثية، أما ميلادك يوم ولدت فلم تقطع سرتك ولم تغسلي بالماء للتنظيف ولم تملحي تمليحاً... بل طرحت على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت فمررت بك ورأيتك مدوسة بدمك فقلت لك: بدمك عيشي!

جعلتك ربوة كنبات الحقل فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان، نهد ثدياك، ونبت شعرك وقد كنت عريانة وعارية فمررت بك ورأيتك وإذا زمنك زمن الحب فبسطت ذيلي عليك وسترت عورتك وحلفت لك ودخلت معك في عهد يقول السيد الرّب، فصرت لي!».

الإصحاح السادس عشر من «سفر حزقيال»

ولكن... «فاتكلت على جمالك وزنيت!.. وسكبت زناك على كل عابر...!».

الإصحاح السادس عشر من «سفر حزقيال»

هكذا يتكلم الرّب، كما يقول حزقيال في سفر من أسفار الكتاب المقدّس للدين العبري... هكذا تكلم رب إسرائيل، كما يقول حزقيال إنه قال وإنه أيضاً له قد واصل الحديث عن إسرائيل قائلاً: «سكبت زناك على كل عابر! فكان له... وصنعت لنفسك مرتفعات موشاة وزنيت عليها... وأخذت أمتعة زينتك من ذهبي ومن فضتي التي أعطيتك وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها... وأخذت ثيابك المطرّزة وغطيتها بها ووضعت أمامها زيتي وبخوري، وخبزي الذي أعطيتك السميذ والزيت والعسل الذي أطعمتك وضعتها أمامها رائحة سروراً... وأخذت بنيك وبناتك الذين ولدتيهم لي وذبحتيهم لها طعاماً!

أهو قليل من زناك؟! ويل! ويل لك! في رأس كل طريق بنيت مرتفعتك ورجست جمالك! وفرجت رجليك لكل عابر وأكثرت زناك! وزنيت مع جيرانك بني مصر! وزدت في زناك لإغاظتي! وزنيت مع بني آشور إذ كنت لم تشبعي، فزنيت بهم ولم تشبعي أيضاً! وأكثرت زناك في أرض كنعان إلى أرض الكلدانيين وبهذا أيضاً لم تشبعي! امرأة زانية!

الإصحاح السادس عشر من «سفر حزقيال»

أجل... بهذا الكلام يكلم «أهيه» إسرائيل... فلقد عرفنا أنها قد غدت له «زوجاً» غُدوّه لها بعلاً ومن ثم فنداؤه لها: «أيتها الزوجة الفاسقة! تأخذ أجنبيين مكان زوجها! فلذلك يا زانية... هأنذا أجمع جميع مُحِبِّيكِ... واحكم عليك أحكام الفاسقات... واجعلك دم السخط والغيرة... واسلمك ليدهم... يرجمونك بالحجارة ويقطعونك بسيوفهم ويحرقون

بيوتك بالنار ويجرون عليك أحكاماً قدّام عيون نساء كثيرة... وأحل غضبي بك فتنصرف غيرتك عنك، فأسكن!».

الإصحاح السادس عشر من «سفر حزقيال»

بالطويل، من تعديد وجوه الخطيئة، جرى لسان حزقيال... طليقاً جرى من حزقيال اللسان فملأ من «سفره» صفحات!..

أجل... هكذا قال حزقيال «الرسول»... ومسترسلاً يقول: «وكان إليّ كلام الرّب قائلاً: يا ابن آدم كان امرأتان ابنتا أم واحدة، وزنتا بمصر في صباهما زنتا، هناك دغدغت ثديهما وهناك تزغزغت ترائب عذريتهما».

الإصحاح الثالث والعشرون من «سفر حزقيال»

وبعد أن يضرب هذا «الرسول» المثل يسترسل في الحديث: «واسمهما أهولة الكبيرة وأهوليبة أختها وكانتا لي وولدتا بنين وبنات، وأسماهما السامرة أهولة، وأورشليم أهوليبة وزنت أهولة من تحتي وعشقت محبيها آشور الأبطال، اللابسين الأسمانجوني ولاة وشحناً كلهم شبان شهوة فرسان راكبون الخيل، فدفعت لهم عقرها لمختاري بني آشور كلهم وتنجست بكل من عشقهم بكل أصنامهم! ولم تترك زناها من مصر أيضاً لأنهم ضاجعوها في صباها وزغزغوا ترائب عذريتها وسكبوا عليها زناهم، لذلك سلمتها ليد عشاقها ليد بني آشور الذين عشقتهم، هم كشفوا عورتها، أخذوا بنيها وبناتها وذبحوها بالسيف فصارت عبرة للنساء!».

الإصحاح الثالث والعشرون من «سفر حزقيال»

وأهوليبة؟ «أهوليبة... أفسدت في عشقها أكثر منها، وفي زناها أكثر من زنا أختها، عشقت بني آشور الولاة والشحن الأبطال اللابسين أفخر لباس فرساناً راكبين الخيل كلهم شبان شهوة، فرأيت أنها قد تنجست... وزادت زناها ولما نظرت إلى رجال مصورين على الحائط صور الكلدانيين مصوّرة بمغرة، ممنطقين بمناطق على أحقائهم عمائمهم مسدولة على رؤوسهم، كلهم في المنظر رؤساء مركبات شبه بني بابل الكلدانيين... فأتاها بنو بابل في مضجع الحبّ ونجسوها بزناهم فتنجست بهم وجفتهم نفسها، وكشفت زناها وكشفت عورتها فجفتها نفسي كما جفت نفسي أختها!».

الإصحاح الثالث والعشرون من «سفر حزقيال»

بل: «وأكثرت زناها بذكرها أيام صباها التي فيها زنت بأرض مصر، وعشقت معشوقيهم

الذين لحمهم كلحم الحمير ومنيهم كمني الخيل وافتقدت رذيلة صباك بزغزغة المصريين ترائبك لأجل ثدي صباك!».

الإصحاح الثالث والعشرون من «سفر حزقيال»

من أجل ذلك: «لأجل ذلك يا أهوليبة هكذا قال السيد الرّب: ها أنذا أُهَيِّجُ عليك عشاقك الذين جفتهم نفسك وآتي بهم عليك من كل جهة، بني بابل وكلّ الكلدانيين! كل بني آشور شبان شهوة ولاة وشحن كلهم رؤساء مركبات وشهراء، كلهم راكبون الخيل، فيأتون عليك بأسلحة مركبات وعجلات وبجماعة شعوب... فيحكمون عليك بأحكامهم، وأجعل غيرتي عليك فيعاملونك بالسخط! يقطعون أنفك وأذنيك وبقيتك تسقط بالسيف، يأخذون بنيك وبناتك وتؤكل بقيتك بالنار، وينزعون عنك ثيابك ويأخذون أدوات زينتك، وأبطل رذيلتك عنك وزناك من أرض مصر!

الإصحاح الثالث والعشرون من «سفر حزقيال»

أي أهولية لا تسألي عن السبب فالسبب لديك معروف، وأن الرّب ليزيدك إيضاحاً فيقول: «سأجرعك من الكأس التي أجرعتها من قبل أختك سامرياً: «هكذا قال السيد الرّب إنك تشربين كأس أختك العميقة الكبيرة!... فتشربينها وتمتصينها وتقضمين شقفها وتجتثين ثدييك!».

الإصحاح الثالث والعشرون من «سفر حزقيال»

الجمر ما زال لظياً تحت رماد السطور التي تجري من الإصحاح الثالث والعشرين إلى نهاية الإصحاح الخامس والثلاثين من «سفر حزقيال» لنرى بعد أن صُبّ الغضب، يبدأ، كما يسجل الإصحاح السادس والثلاثون أو الإصحاح الذي تأخذ فيه الأهداف الحزقيالية في الوضوح والتجلّي، لوناً من الرحمة يأتي بعد الوعيد بوعد يقول أن لئن هجر الرّب شعبه وبشعبه أنزل النوازل فليس ذلك إلاّ... لفترة! فترة، بعدها سيعود الرّب إلى شعبه من جديد فإن رب إسرائيل إنما لشعبه يقول: سأكون من جديد لكم رباً، ومن جديد ستكونون لي شعباً... وأعيدكم إلى أرض قد أعطيتها لآبائكم ميراثاً!

ولكن...! أنّى، بعد فناء، تحيا بقسميها، إسرائيل واليهودية، إسرائيل؟ أنّى؟ إن الرّب يضرب لحزقيال مثلاً بإحياء العظام وهي رميم بل ويضرب مثلاً عملياً لهذه العقيدة التي بدأت تنتشر في الشعب العبري في غضون هذه الفترة من الزمن، فحزقيال يحدّث: «كانت على يد الرّب فأخرجني بروح الرّب وأنزلني في وسط البقعة وهي ملآنة عظاماً، وأمرني عليها... فقال لي يا ابن آدم أتحيَى هذه العظام فقلت يا سيد الرّب أنت تعلم!

فقال لي: تنبأ على هذه العظام وقل لها: أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرّب... ها أنذا ادخل فيكم روحاً فتحيون! وأضع عليكم عصباً وأكسوكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون!».

الإصحاح السابع والثلاثون من «سفر حزقيال»

ويسترسل هذا «الرسول» فيحدث: «فتنبأت كما أمرت، وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعش فتقاربت العظام، كل عظم إلى عظمه، ونظرت! وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح! فقال لي: تنبأ للروح وقل للروح: هكذا قال السيد الرّب هلم يا روح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا! فتنبأت كما أمرني فدخل فيهم الروح فحيوا! وقاموا على أقدامهم جيش، عظيم جداً جداً!».

الإصحاح السابع والثلاثون من «سفر حزقيال»

بهذه الصورة من إحياء الموتى وكسو العظام لحماً يطالعنا حزقيال غضون الأسر البابلي والزمن نحو نهاية هذا الأسر يقترب، كما تصوّره شخصية لاهوتية أخرى هي أحد الرسل الكبار من الرسل العبريين:

دانيال... لهذه الشخصية نشر الزمن في غضون الأسر البابلي ولها القدح المعلى في إدارة دفة السياسة العبرية.. فبين الأسرى طواها الأسر البابلي أسيرة، بيد أن لم يعاملها الأسر كالأسرى وإنما عاملها معاملة خاصة، معاملة الصفيّ للصفيّ والخليل للخليل... احتضنها الأسر، وإظهاراً للإعزاز أبدل اسمها العبري باسم بابلي تحمل حروفه الأولى اسم الرّب المعروف في بابل فانقلب اسمها من دانيال، كما يذكر الإصحاح الرابع من سفره، إلى «بل ـ تشازار» بل لا يقف الإعزاز عند حدّ الاسم وإنما عليه يخلع من الألقاب لقب «كبير المجوس»... بيْد أن كما تسير الأيام نرى تحوّل هذه الشخصية ناحية أخرى يشتد بسببها منها اقترابنا، فنرى أن الحلم أو الرؤيا مفتاح هذه الشخصية المتعددة في كل مناسبة منها الأحلام!..

من سطور «سفر دانيال» نرى عالماً تعكسه لدانيال أحلام، ومن هذه الأحلام حلم يبدأ بسرده الإصحاح السابع من سفره، له بصفة خاصة وقع ففيه منعكس ذلك العصر بأحداثه وسياساته وأطماحه ومخاوفه وأمانيه... حلم فيه تنعكس فترة من الزمن رفّت فيها الانقلابات السياسية وتعاقبت فيها الأحداث ولسان الزمن يحدّث العالم أن من الهضبة الإيرانية قد أشرق فجر على العالم جديد، فسيروس إلى فارس قد ضمّ ماذّي وعلى الدنيا بهذه الوحدة «الفارسية ـ المادية» قد بزغت شمس الإمبراطورية الآرية... شمس، لمحتها من

عباب الفجر على الشاطىء الفراتي رؤوس عبرية تلفتت في دنياها فوجدت الشمس البابلية هوياً تتهاوى نحو الغروب!

وعن الشمس الغاربة بدأت رؤوس إليها من قبل مالت عنها تميل، وتكدّر الفرات، ودوّت آفاق بابل بهمس الحدث الخطير الذي يزيد من خطورة أيام جرت فأخلفت نبونيدس الثاني على هذه الامبراطورية التي أراد أن يمنع هويتها وإلى ذلك كانت وسيلته فكرة التسامح الديني الذي رفضه الكهنوت البابلي رفضاً أماله، نفسه، نحو الشمس البازغة.. ميْلاً بسببه تكدر صفو تلك الليلة التي تطالعنا في الإصحاح الخامس لسفر دانيال والتي فيها على حائط القصر كتبت يد كلمات لترجمتها جيء بدانيال.. فجهر إلى صاحب الإمبراطورية الهاوية بمعناها: لقد وزنت فوجدت ناقصاً فأعطي ملكك للفرس!

في تلك الليلة التي، خلسة، امتدت يد اللاهوت البابلي، تفتح أبواب بابل للفرس ـ في تلك الليلة امتدت أيضاً يد وفي داخل القصر جندلت صاحب القصر ـ في تلك الليلة هَوَى صرحٌ، على أنقاضه وقف الزمن يعلن أن الموجة الآرية قد أقبلت، بسيروس المنتصر، منتصرة!

وارتفعت الموجة الآرية وهللت للموجة المرتفعة رؤوس، بهويٍّ عزتها، هوت السامية!

ولكن... هذا الحدث الجديد لم يأت بغتة وإنما كانت الأجواء له مهيأة كما يعكسه من الأحلام الدانيالية حلم يحمل في طياته صورة هذا الانقلاب وأماني الشعب الأسير من وراء هذا الانقلاب... كما يقصه دانيال نفسه طالعاً به خلال هذه الفترة الخطيرة من تاريخ هذا الانقلاب، في الإصحاح السابع من سفره، قائلاً أن قد، استغلق عليه فهمه فناداه الصوت القدسي ينادي: «جبريل!.. فهم هذا الرجل هذه الرؤيا».

الإصحاح الثامن من «سفر دانيال»

من جبريل كملك رسول كانت به الصلة موصولة بين الرّب ودانيال جاء الخبر الإلهي، لا رؤيا في منام ليلاً كما رأى أثناء إقامته في فارس وفي سوسا عاصمة الشمس الطالعة، بل في القصر الفارسي حيث الدين الزرادشتي والإيمان به رهين الإيمان بزرادشت كنبي إليه من الملكوت السماوي هبط ملك رسول... رآه، كما يحدث الإصحاح التاسع من سفره، جهرة بينما كان يعترف بذنوبه ويستعد لوضوء صلاة الغروب كما إليه هبط من لدن الإله، الملك الرسول الحامل اسم جبريل!

لأول مرة يطالعنا اسم جبريل... اسم يجيء بعد الأسر البابلي ومن العام الأول من حكم داريوس الأول والظلّ الإيراني ظليل وفي الإمبراطورية القائمة الدين الزرادشتي هو الدين الرسمي.

أجل.. لأول مرة في التاريخ الديني العبري، والصلة المفروضة بين أهيه وشعبه كانت نبياً أو رسولاً، تصبح الصلة بين الرّب ونبيه أو رسوله ملكاً رسولاً، إلى النبي يهبط بالأمر الوشيك الحصول... كما إلى دانيال جاء جبريل، في فترة من الزمن ألقى فيها الحكم الفارسي قيود الأسر عن إسرائيل فتدافع منها من تدافع عائداً إلى أورشليم لتبني «البيت القديم» من جديد وتعيد به الملك القديم جديداً، ينبىء أن بعد العودة إلى أورشليم بنيف وسبع أسابيع، سيقوم ممسوحاً بالدهن المقدّس ملكاً:

«المسيح»

الإصحاح التاسع من «سفر دانيال»

على ضفة الفرات انساب النبأ همساً بينما الدوي به في أورشليم بدأ يُدوِّي وفي الوعي العبري يعدّ له العدة من أنبياء ذلك العصر نبيان. زكريا وحجّي من حول بذرة من العنصر الداودي نبتت في العصر البابلي وإلى أورشليم عادت «غصناً» التفت اليهودية شعباً وفي اعتراف لصاحبها بالأصل الأصيل تقيمه عليها حاكماً... ومن حوله قد التف هذان «النبيان» ولكل مكانته في القلب الشعبي، يطوفان أرجاء اليهودية له داعين باسم الرّب، إله إسرائيل الذي عاد إلى أورشليم يطلب بناء بيته من جديد، ويقولان إن الأمر الإلهي بهذا البناء قد صدر علامة على اختيار حاكم اليهودية ملكاً ومسيحاً: زر بابل بن شألتائيل!

إن زر بابل من نسل داود...! زر بابل من «البذرة المقدّسة»، ومن الشجرة الداودية «غصن!».

وإلى أورشليم، جيء بزر بابل، الجدّ الأعلى ليوسف «النجار» وأقيم على اليهودية حاكماً فكان يوم حقق ما استقر في العقيدة العبرية من أن أسرها سينتهي بيوم سيكف فيه عنها غضب «أهيه» وعلامة ذلك عودتها إلى أورشليم، وبعودتها إلى أورشليم يعود «أهيه» ومن جديد يحكم أهيه «شعبه الضال» من خلال بيت داود ومن الشجرة الداودية بغصن سيمسحه الكهنوت القائم ويعلنه: «ملك اليهود!».

أجل... إلى أورشليم عاد أهيه، وهذا هو من بيت داود يقوم غصناً، زر بابل، مَنْ عليه إقامة «البيت» إشعاراً باختياره ملكاً، ومن على الكهنوت القائم مسحه في «بيت الرّب» بالمسحة المقدسة علامة على مجيء هذا المنتظر طويلاً وإعلان الشعب العبري أن: قد جاء المسيح!

وبُني «البيت» (٥٢٠ ـ ٥١٦ ق.م).. وتأهبت أنفاس الزمن لتعلن قيام ملك يضم في شخصه روح أهيه وطيف داود ـ ملك يبدل الانقسام في إسرائيل، المنقسمة على نفسها بين

إسرائيل واليهودية، بوحدة تملك يده منها العنان ـ ملك لا كالملوك فعن ملوك العصر يميزه أنه بالمسحة المقدّسة في «بيت الرّب الحي» مسيح!

ولكن... على رأس الكهنوت القائم الآن يقوم هوشع، وهوشع يريد حكماً مشتركاً وسلطة ثنائية، ومن ورائه الجماعة الدينية تلتف ولرأيه تؤيد ـ لا يهز الكهنوت القائم دوي «حجيّ» الملتفة من حوله الجماعات تصغي إليه قائلاً إن الرّب قد تكلّم، ولي قال:

«كلم زر بابل وإلى يهوذا قائلاً: إني أُزلزل السموات والأرض! وأقْلب كرسي الممالك! وأبيد قوة ممالك الأمم، وأقلب المركبات والراكبين فيها وينحط الخيل وراكبوها كل منها بسيف أخيه في ذلك اليوم يقول رب الجنود آخذك يا زر بابل عبدي بن شألتائيل وأجعلك خاتماً لأني قد اخترتك!».

الإصحاح الثاني من «سفر حجي»

كلا.. لا يهز الكهنوت القائم ولا يهز هوشع أن يقبل عليه النبي الآخر، زكريا بن برشيا، ويخاطبه قائلاً إن الرّب يقول:

«اسمع يا هوشع الكاهن العظيم أنت ورفقاؤك... ها أنذا آتي بعبدي الغصن!».

الإصحاح الثالث من «سفر زكريا»

ولكن... يصمت الدوي مرة واحدة، مرة واحدة يتلاشى وكأن كل ما قد كان من إرهاص... وهم أصداء!

أين «المسيح المنتظر» أين زر بابل؟! عبثاً نطوّف أرجاء اليهودية عن زر بابل بحثاً فالمسيح المنتظر قد تلاشى من وجه التاريخ بل هناك فجوة في التاريخ العبري فيها قد غاب هذا «الغصن»!

إلى التاريخ السياسي نلجأ فنتناول بعض البرديات التي تعود إلى هذه الفترة من الزمن والتي عليها سجلت اليد العبرية في أقاصي مصر أحداث أورشليم في هذا العهد، في صورة الدعايات السياسية والمنازعات الداخلية فندرك أن إلى صوت «أهيه» المنطلق من حنجرتيّ زكريا وحجي لم يصغ كهنوت أهيه، فإن الحكم قد انتقل نهائياً من اليد المدنية إلى اليد الكهنوتية أو الدينية! بطريقة غامضة غيّبت يد «المسيح المنتظر» فسجلت.

«فشل الفكرة بمغيب المسيح الأول»

غيبته اليد الدينية في تربة حاضر لها ولكن ليطلع في تربة المستقبل في المخيلة العبرية عقيدة...

أجل... من خلال «سفر عزرا»، هذه الشخصية اللاهوتية التي أقبلت من أقاصي الفرات في تأييد للحكم الكهنوتي تنادي أن «البذرة المقدّسة» قد خالطتها عناصر غريبة فإن زر بابل لم تتوافر فيه شروط «المسيح المنتظر» من أن يكون دمه داودياً خالصاً لا تخالطه قطرة من دم غريب، ينتشر عصر ساد فيه حكم كهنوتي صاحب الاعتقاد الشعبي بأنه قام يحكم حتى تتطهّر «البذْرة المقدّسة» من العناصر الدخيلة ويجيء مَنْ فيه ستتوفر الشروط المطلوبة لمن يكون مسيحاً».

شعبٌ على مضض سكن، وتحت الحكم الكهنوتي بدأت عنه تنصرف الأيام وهو ينتظر «المسيح المنتظر»! تهب هذه الحقيقة من ثنايا سفر عزرا الذي نراه من خلال سطوره، صورة حديثة لأخرى قديمة، صورة يشوع بن نون.

جاء عزرا يؤسس إصلاحاً دينياً ويقيم القوائم الدينية على أسس مجتمع جديد، فكتب القوانين الموسوية أو «التوراة» وجمع المجتمع العبري وقام يتلوها ومنذ هذه اللحظة التي سُيّجت فيها التوراة بالقدسية أضحت للشعب العبري، بما لحق بها من أسفار، كتاباً مقدّساً، تناوله الشعب العبري يطالع فيه، الدين.. وفي هذه اللحظة هبّت، على المجتمع العبري، بلونها الأصيل الأصلي، كما كانت عليه في عهد موسى ويشوع بن نون، ألوهة أهيه ودين موسى!

ولكن!... توالت الحقب على العهد والعهد الذي جاء فيه موسى بأهيه ـ على ذاك العهد ترامى الظلّ المصري والكلداني القديم وعلى هذا العهد يترامى الظلّ البابلي الجديد والفارسي بل وتجري الأيام فيتبعه الإغريقي وتسير الأيام لينير العصر ضوء العصر الهيليني الروماني...

والآن، وقد جرى الزمن فبلغ مرحلة العقل الإنساني على شواطىء البحر الأبيض درجة نامية هبّت بها على دنياه رياح الفلسفة، بل وعبقت فيه الفلسفات الأفلاطونية والرواقية فاستهوى العقلية العبرية منها «الطهر الأفلاطوني» و«الحب والمحبة الأفلاطونية»، وزهدتها الرواقية في الدنيا فزهدت إلا في الزهد! خضب الفكر منها من الأفلاطونية فكرة «الروح» الواقف وسطاً بين الألوهة والوجود ـ ومن الرواقية راقتها عقيدة «روح الإله» أو «ابن الإله» ـ اللوغوس أو «الكلمة»! تحت هذه الألوان نرى التفكير الدينيّ العبري قد تغيّر في المخيلة التي خضبتها هذه الألوان ـ نرى الطابع العبري القديم فيها قد بهت!..

أجل... من نبي إلى نبي ومن رسول إلى رسول سارت الأيام بالدين العبري عبر العهود السياسية حتى أعادت السياسة الفارسية شعب «أهيه» إلى دياره، فعاد من عاد ليبني «بيت الرّب» من جديد وعلى أسس ما قد تبقى من أنقاض يقيم «الغصن»... حتى بني البيت

وسارت بالبيت المقدس الأيام وطالعتنا تلك الفجوة في التاريخ العبري التي غيّبت فيها يد الكهنوت «الغصن» فسجلت: فشل الفكر بمغيب «المسيح الأول»... لتسير بعد ذلك الأيام نحو عصر جديد في غضونه تتجلّى العوامل الفكرية والروحية والمؤثرات اللاعبرية في الدين العبري ليطالعنا:

دخول عقيدة الخلود نطاق الدين العبري

فيما وراء هذه الأرض تهب ألوان فكرية ونسائم روحية بها إلى أورشليم يعود من قد عاد من هذا الشعب في فترة ارتحلت فيها بهذا الشعب ألوان من الارتحالات إلى فارس ومصر وسوريا وآسيا الصغرى، على علوم العصر التي تهبّ، أقبلت فئات في إسرائيل وأشاحت فئات.. أشاحت فئات لاذت «بالتوراة»... بالتوراة تمسكت فتشبثت بكل ما قد جاء في النصوص من عقائد ودافعت بأن كل كلمة أو عقيدة لم تجيء في النصوص المقدّسة ولم يرد بشأنها أمر فلاغية!

هذه الفئات التي رفضت رفضاً إيجابياً نسائم الروح المضمّخة بعطر الخلود لأن الدين الموسوي يتعارض وعقيدة الخلود، إنما تمثل الجانب الكهنوتي:

الصدوقيون

بينما إلى هذه الألوان الفكرية والنسائم الروحية تنبهت فئات تمثل الجانب الأكبر من الشعب العبري دفعتها إليها دفعاً حالتها الاجتماعية في المجتمع العبري فقد حبّب إليها اعتناق هذه العقيدة، عقيدة الخلود، ما قد لمسته فيها من أماني عبثاً تتلمسها في هذه الحياة، فهذه العقيدة تعدها حياة أخروية أرغد عيشاً وأهدأ مآلاً تعوّض لها ما قد فاتها في ركب هذه الحياة من أماني.. هذه الفئات التي تمثل الفروع العبرية الملتفة حول عقيدة قيام «الغصن» من بيت داود لا يثنيها عن عزمها عن هذه العقيدة فشل «زربابل» أو «المسيح الأول...» هذه الفئة هي: «الفريسيون» فئتان بهما يطالعنا:

الانقسام العقيدي بعقيدة الخلود

تناول الفريسيون «التوراة» فدينها إلى موسى يعود... ولكن... إلى هذه النصوص أضافت «التقاليد» وتحت اسم «التقاليد» قبلت عقائد فكرية من أديان وفلسفات الأمم الشرقية الدالفة إليها عبر حواضر آسيا الصغرى غير متنبهة إلى أن اتخاذها هذه الأديان والفلسفات هو انحراف عن الأسس الموسوية، وأن اتخاذ «عقيدة الخلود» عقيدة، زعزعة لأركان الدين الموسوي!

وبالانقسام العقيدي عند عقيدة الخلود بدأ الدين العبري ينفصل إلى مذاهب... وينشطر

بأصحاب هاتين العقيدتين إلى قسمين متباينين فقد نظر الصدوقيون نظرة إلى حياة تحدّها هذه الدنيا فولدت هذه النظرة أن الدنيا نهزة المنتهز بينما اعتقد الفريسيون النقيض وبذلك بدأت معالم هذه العقيدة الروحية الجديدة على الدين العبري تلفظهم من صفوف الدين العبري فعلى معتنقي هذه العقيدة بدأت تضفي الروحيات ألواناً من الصفاء الروحي قد أفسحت هذه النظرة أمام أنظار الفريسيّ عالماً خالداً... وأمام نفسه مجالاً نفسياً واسعاً لا تحدّه هذه الدنيا فخلّفته يتساءل: وما هذه الدنيا؟!

حقبة من السنين نهايتها النهاية! وحتى مهما استطالت وطالت فبفراغها العمر يفرغ، بينما هناك حياة لن تفرغ وفي الملكوت السماوي باقية ـ إذن لم التكالب على الثروة والجشع إلى المال وضياع العمر في بناء قصور لن يسكنها بناتها إلا فترة من الزمن، بينما هناك الذهب والفضة وهناك القصور؟!

أمام هذا الأفق المتسع عن ذي قبل تحوّل الفريسيّ يتأمل هذه الدنيا... يرنو إليها زاهداً! والزهد؟ الزهد في الدنيا عامل فكري إذا ما ألقيّ في النفس فأساس لصرح حتماً فيها سيقوم قوائمه الحبّ والطهر والسلام.

طبعت هذه الصفات طبقة الفريسيّة حتى أصبحت لها طابعاً وعليها علماً لنلمس فيها أثرها بما نراه في هذه الطبقة من تباعد بين طبيعتها وطبيعة للصدوقيين أو الطبقة الكهنوتية التي تمثل الهيكل من بناء الدين العبري.

بلغ الفريسيون صفاء الخلق وغدا فيهم طبيعة، والتفاني في إتيان ضروب الأعمال الصالحة غدا فيهم طبعاً، أما الزهد فقد غدا طابعهم المميز الذي يشتد عليهم ظهوراً كلما اشتدّ فيهم تغلغلاً وكلما سارت الأيام بالأيام من منتصف القرن الثاني ق.م. الذي رسّخت فيه في المجامع في ظلال العهد المكابيّ عقيدة الخلود، إلى القرن الأول ق.م الذي فيه عنهم قد تمّ تماماً محو طابع الدين الموسوي!

أجل... على مرّ الأيام اشتدّ ظهور هذه الصفات في الفرّيسيين فتحوّلت فيهم مادية السلف إلى شفافية أرسختها فيهم الرواقية وقبلتها الأفلاطونية ومن أديان الهند ألوان، حتى سارت الأيام فسجّلتها منهم تلك الأيدي التي امتدّت فسطّرت، والأيام تسير نحو منتصف القرن الأول ق.م، الكتاب المعروف باسم «الزبور»: «المزامير» ثم كتاب «الأمثال» ثم كتاب «الجامعة» عبر «المزامير» نصغي إلى الفريسية فنسمعها بتفاهة الدنيا تتغنّى ـ و«بالأمثال» تضرب على تفاهة الدنيا المثال ـ وفي «الجامعة» عن زخرفتها وخاطف بريقها تشيح!

ولكن!.. أيزهد الفريسيّة في الدنيا الزهد عن الغاية فيها؟

كلا... بل يدفعها هذا الزهد إلى أداء الواجب وهذا الواجب يتشكّل الآن في صورة الانسلاخ عن سلطة الكهنوت!

أجل... واجب، نفسه، كان الدافع إلى كتابة «المزامير» و«الأمثال» و«الجامعة» أو هذه الكتب التي لا تنشرها اليد إلا وإلى الفكر يتبادر سياق تفكير صبغته الرواقية بصبغة «الكلمة» أو «الروح»! وبذلك يطالعنا:

اصطباغ «عقيدة الكلمة» بالتعبير العبري ومزج «عقيدة الكلمة» بعقيدة «المسيح»

على أنغام «المزامير» أو الزبور تتغنى شفاه عبرية بثراء الروح... وفي «الأمثال» و«الجامعة»، هذان السفران اللذان نسبا خطأً إلى سليمان لأن تاريخهما يعودان إلى منتصف القرن الأول ق.م[١]، نجد الفريسية تنحو من المجتمع العبري ناحية التفكير الديني في عصر ضوؤه أضواء الفلسفة أو الحكمة لتقول: إن الحكمة مطلب الإنسان، فالحكمة منحة قدسية لأنها صفة الإله والإله وحده هو الحكيم... بيد أن ما «الحكمة»؟

الحكمة صفة الإله والإله وحده هو الحكيم.. وإذن فهي منه تفيض!.. ومن ثم فالحكمة منحة قدسية تكاد تكون شيئاً وسطاً بين الألوهة والبشرية ـ ومن ثمّ فماهيتها شيء يكاد يكون شيئاً..!

إذن «الحكمة» شيء متجسّد! إن «الحكمة» شيء متجسّد يكاد أن يكون كائناً بل هي: كائن! كائن، هو لكل شيء الصانع! إن «الحكمة» صفة الإله فهي من ثم من الإله شيء ولما كان وجود الإله قد سبق وجود الوجود فإن «الحكمة» قد سبقت الوجود لأنها قد خلِقَت من الإله!

لولا الحكمة لما كان هذا الوجود ولما كانت هذه الحياة! الحكمة سبقت الوجود ـ الحكمة صفة الإله ـ الحكمة «روح الإله»!.. وروح الإله «روح قدس» إذاً فالحكمة روح قدس وهي من الإله بمثابة الابن من الأب.. ثم هي في أن الآن منحة قدسية ومن ثمّ الحكمة، روح الإله، «الروح القدس» تحل في ذلك الذي لم تأسره إلا الطهارة ويقف من الإله السماوي بمثابة... الابن! فكرة، ما طافت في أرجاء هذه الناحية من العقلية العبرية إلا واختمرت عقيدة فأصبح الطهر الفريسيُّ مثلاً فريداً في التاريخ العبري! ومن ثم كان التفاني الفريسي في ضروب الطهر، والتسابق بين أفراد هذه الطبقة على إتيان صالح الأعمال يملأ جانبي كل منهم أملاً في أن تحلّ فيه «الروح القدس» ويقف من الإله بمثابة «الابن»...

---

(١) An Introduction to the Bible, By S.Cook.

أجل.. إن الزهد نفسه يدفع هذه الفئة إلى «الواجب» الذي يتشكل الآن في صورة الحدِّ من سلطة الكهنوت، هذه السلطة التي غدت قوية منذ فشل «المسيح الأول» زر بابل، والتي لن تُحدّ إلاّ: بملك من نسل داود، يكون نفسه من ذلك «الغصن» «غصناً».

أي الملوك سيكوّنه هذا الملِك من نسل داود؟ كلا!..

لن يكون الملِكُ مَلِكاً للكنوز وإنما سيجيء ليكون مكان «أبيه السماوي» على الأرض... بيدٍ يبذر الأعمال الصالحة بذوراً لا تفسد في ملكوت السماء، وبيد ينشر على الأرض السلام!

أجل... إلى لون هذا الحكم تدفع الأحوال السياسية والاجتماعية أورشليم فينطلق من جوانبها النغم القديم الذي تنادت به الشفاه العبرية من قبل على شاطىء الفرات، ويشتد رنيناً الآن فتردّدها أصداء مدوية حوالي القرن الأول ق.م، بل ويشتد دوياً والأيام تسير نحو منتصف القرن الأول ق.م والظل الروماني على أورشليم يترامى ومن سنة ٦٣ ق.م، السنة التي أصبحت فيها اليهودية ولاية رومانية، إلى سنة ٢٧ ق.م، سارت الأيام، وبين هذا الدوي المنادي بتحقيق «الحلم القديم»، تنتشر العهود الهيرودية بين دوي هامس وهمس داوٍ يطلب من جديد: «المسيح»! «مسيح»؟

مِن «المزامير» أو «الزبور» هذا الكتاب الذي كتب والزمن يقتطع سنوات القرن الأول ق.م[١] نرى الاستعداد لتنفيذ هذه الرغبة ونرى العدّة تعدّ ـ ونرى أن «المسيح» سيأتي وسيحكم ولو أبت الأرض قاطبة لا اليهودية فقط.. أيأبى الكهنوت؟!

إن الرب يستهزئ بالكهنوت، كما بالنغمة تتغنى أنغام «المزامير»، فإن «اليوم» لا ريب آت! آت هذا «اليوم» الذي سيحكم فيه الرّب عن طريق من سيناديه: «أنت ابني»!

المزمور الثاني من «سفر المزامير»

أجل... لقد استعدّت «المزامير» لقلب الحكم الكهنوتي وإقامة مسيح آخر من بيت داود، من نسل «زر بابل» من بالمسحة كاد يمسح ويكون «المسيح»... وردّدت الشفاه الجماعية أنغام «المزامير» التي انطلقت فيما حول نصف قرن ق.م تهيىء الأجواء لقيام ملك هو «ابن داود» يقيمه الرّب رغم مناوءة الكهنوت، ويكون لا من الكهنوت ممسوحاً بل يكون هو «الممسوح من الرّب» وفي غير تهافت انطلقت الحناجر العبرية تهتف أن: آت هذا اليوم الذي سيحكم فيه الرّب، عن طريق من سيحلّ فيه من الحكمة «الروح» ومن سيناديه الرّب: «أنت ابني»!

---

(١) An Introduction to the Bible, By S.Cook.

أجل... لتقويض الحكم الكهنوتي، بمسيح من نسل داود، هيأت تلك اليد، التي خضبتها من الأفلاطونية والرواقية الخضاب، الأجواء... ولكن... ملك؟!

إن الملك مُوْرِث التملك واليد التي جرت فسطرت المزامير وَقفَتْها «بالأمثال» و«الجامعة» إنما يد زهدت في التملّك وأتت بلون غريب على إسرائيل ومن ثمّ فالملك الذي تريده وتقيم نفسها له داعية ملك صفته اللاّ تملّك فإنما هو «الممسوح من الرّب» من سيكون نفسه ابن الرّب من سيحكم شعباً مقدّساً أفراده أبناء الرّب.. ومن ثم لن يكون ملك «المسيح» للتملّك الدنيوي، وإنما للهداية إلى مملكة أبيه السماوي، «الملكوت السماوي»... فلقد ولدت «عقيدة الخلود» في هذه الطائفة انصرافاً عن الدنيويات إلى «الملكوت السماوي» وبذلك أضحى لديها الملك: صورة تتلخص في حكم الأب السماوي عن طريقِ الابن!.. وقيام مملكة قانونها اشتراكية مطلقة، الروح لديها أنفس المقتنيات!

أجل... لإعلان النداء ارتفعت «المزامير» والأيام تتجه في مسيرها نحو عهد جديد، بدؤه كان: انتشار العهود الهيرودية تحمل العهود الهيرودية تلك العوامل التي جاءت بخطير حدث دينيّ في تاريخ الأديان ما زال عبر الأجيال أثره مدوياً منذ تلك العهود حتى هذا العهد فقد قام على عرش اليهودية هيرود الأكبر (٣٧ ق.م ـ ٤ ب.م) حليفاً للرومان وللرومان قيلا ينفذ قضاء الرومان في اليهودية ـ عرش، كان مذ جاء عذرا وهو على الأسس الكهنوتية وقفاً كما كان من قبل وقفاً على «بيت داود».

ولكن هيرود الأول شخصية تأباها اليهودية، كهنوتاً وشعباً، ففيه يرى الكهنوت مغتصباً، وفيه يرى الشعب لمكان بيت داود محتلاً فإن هيرود الأول، وإن يك يهودي المولد موسوي الدين، إلا أنه من أصل أدومي، وأدوم غير إسرائيل ـ أدّوم وإن عادت بأصلها إلى إبراهيم فإنما عن طريق إسحاق تعود وليس عن طريق يعقوب أو إسرائيل.

ثم إن أدّوم عهدها بالموسوية حديث فلم تعرف أدّوم الموسوية إلاّ غداة أجبرها الحكم الكهنوتي، في عهد يوحنا حير كانوس الأول (١٢٦ ـ ١٠٦)، على اعتناق الدين الموسوي وعلى إقامة «العهد الإبراهيمي» الذي تراه إسرائيل مميزاً لها عن سائر الشعوب.

لا غرو إذن أن ترى اليهودية في هذا البيت الجديد الذي يؤسسه هيرود الأول، بيتاً عليها دخيلاً، كلا ولا يغرّنها منه هذا التعصّب الديني وهذه العصبية الدينية التي امتازت بها أدوم دون سائر العبريين والتي أصبحت لها طابعاً منذ اعتنقت الموسوية حتى غدت أشد الموسويين للموسوية تحمّساً، إظهاراً وإشعاراً لغيرها أنها من نسل آباء التوراة.

كلا... لا يغرن اليهودية من هذا البيت ظاهر التمسّك بالدين فشاغل اليهودية الشاغل

هو أن عرش إسرائيل لا يشغله أبناء إسرائيل! هيرود ليس من «البذرة المقدّسة» فليس هيرود من بيت داود!

إلى «بيت داود» طوال الحكم الكهنوتي، منذ عذرا حتى هيرود الأول، والقلب الشعبي متجّه يبرّحه الحنين بل عليه انقضت الأجيال وفي جبينه قد غدا الحلم بذلك «اليوم» عقيدة بأنه يوم لا ريب آت!... «يوم»، فيه سيحكم الرّب من خلال «مسيح»... فشل زر بابل لن يفشل وإخفاقه لن يخفق!... والآن؟ ها هو ذا هيرود... غير إسرائيليّ! هيرود غير شعبي ثم هو ليس من الشجرة المقدّسة: «غصناً!».

كلا... إن الشعب العبري لا يرى في هيرود الأول ما يراه التاريخ الآن ـ لا يراه الشخصية المولعة بالثقافة الإغريقية والعمران الهيلليني الروماني، والذي بلغ بفلسطين أوج الازدهار، كما إلى هذه الحقيقة التاريخية تدلّ المعاول الأثرية... الشعب العبري لا يرى في هيرود إلا أنه ليس من «البذرة المقدّسة» وأنه ليس من شجرتها «غصناً».. لا يرى فيه إلا أنه حليف الرومان، حليف هذا العدو الذي قد وطأ جنده أرضه.. وأسال منه العَرَق فضة تُدْفع في صورة الجزية إلى: «المخلص» أو قيصر!

لقد دفعت اليهودية من قبل الجزْية للإمبراطوريات السائدة صاغرة ولكن قط لم تعهد في إمبراطورية ما من قبل غطرسة كهذه التي تراها في هذه الامبراطورية، ولم تسلبها إمبراطورية من قبل الحكم الذاتي كما تسلبها هذه الإمبراطورية، فهذا ممثلها بظلّ اليهودية ويقف من دونه هيرود، يُنَفذ فيها الرومان قضاء شدّ ما تأباه!...

عوامل، تدافعت في المخيلة العبرية دفعتها ناحية التفكير، فتعجلت مجتمعاتها همساً ذلك «اليوم» الذي سيحكم فيه الرّب من خلال «مسيح» يكون لإسرائيل، كالمخلص الروماني، عزيز العزة جبّار الجبروت، تزري عزته بعزة الرومان ويقوض جبروته للرومان جبروتاً ـ كمخلص الرومان، مخلص لإسرائيل... يكون لإسرائيل من الرومان مخلصاً! ودوت الأرجاء الشعبية العبرية بطلب: المخلّص.

ولكن!... عند هذه الفكرة، فكرة «المُخلّص» تجمعت الجماعة العبرية، لتفرقها شخصية هذا «المُخلّص» ومن أية جماعة سيكون..

إن الجماعة الكهنوتية لا ترتضي إلا أن يكون لها الحكم ولهذه الجماعة تناصر الطبقة العالية من المجتمع العبري ولها يعضد مؤيداً أصحاب المذهب الصدوقي من الصدوقيين...

وأمام هذه الجماعة من أهل الكهنوت تقف الناحية الأخرى من المجتمع العبري ـ تقف الناحية الشعبية بكليتها تتجه ناحية «بيت داود»...

إن بيت داود ما زال حياً، ومعيشة الشعب فيها يعيش... إن النسل الملكي ما زال موصولاً «والبذرة المقدّسة» ما زالت مقدّسة وإن تك قد هوت بها الدوائر من كرسي الملك إلى كرسي الصناعة... إن من داود سبطاً يعيش وفي الجليل يحترف النجارة سليل سليمان، وحفيد زر بابل...

ومن هذا «البيت» سيكون لإسرائيل «المخلِّص».. «الممسوح من الرّب»!.. فكرة، على الفريسية سيطرت فتجسم لديها ذلك الحلم القديم الذي جاء به عيسو، وطاف على جبين أرميا... الحلم الذي لم يتحقّق بزر بابل..

فكرة استحوذت على التفكير الإجماعي تزيدها رسوخاً أيام في هاوية الزمن تتهاوى ومن هيرود الأول إلى هيرود الثاني (٤ ق.م ـ ٣٩ ب.م) تسير ففي غضون هذه الفترة التي انقضت على اليهودية كانت مراجل الثورة النفسية تحيك المؤامرات لقلب نظام الحكم الكهنوتي، وبدأت الفتن تعقد الاجتماعات السرية وإلى أورشليم تبعث بشررها من الجليل وما حول الجليل... من الجليل، طلوع حجي وزكريا من قبل، يطلع يوحنا... وتمهيدهما لزربابل، يُمهِّد هذه الحفيد زربابل...

أجل... من الجليل جلْجل في غضون هذه الفترة من الزمن النداء بأن: قد آن مطلع «المسيح»! وكأحد المتمردين ممن يخشى منهم الخطر، قتل هيرود الثاني يوحنا... بيد أن قتل يوحنا كان إبرازاً للفكرة فالتمرّد العبري على البيت الهيرودي وعلى الرومان يشتد تمكناً بفكرة «مخلص» عبري.. فمن الجليل يطوف أورشليم النداء مدوّياً أن: قد طلع «المسيح»!

ليس للقلم أن يسترسل هنا محدّثاً أحداث اليهودية في غضون تلك الفترة الخطيرة من التاريخ السياسي والديني التي أضفت على الألوهية العبرية لوناً غير عبري فمكانها غير المكان في هذا الكتاب وإنما الموضوع موضوع دين أهيه.

إن اليهودية، عبر العهود الهيرودية وخلال الأيام التي جرت من هيرود الأكبر إلى الرابع ممن حمل نفس الاسم، من ٣٧ ق.م إلى ٧٠ ب.م، بقعة من الأرض مغبرة الآفاق، متلبدة الغيوم السياسية، مشوشة العقائد الدينية، لا نراها إلا عبر دخان التحزب بينما يصم منّا الأسماع ضجيج هو مزيج من عصف التمرّد وعواصف الطغيان.. في هذه الآفاق المغبّرة نرى دعوة شعبية تدعو إلى ملكية تتحدى الحكم القائم والأنانية الكهنوتية، مركزها أورشليم ومصدرها الجليل...

نرى دُعاة ودَاعين، الصوت منهم نداء ترديده في أرجاء اليهودية يُجلجل: يسوع!

في هذه الفترة الزمنية نرى انقسام اليهودية، من حول الحامل لهذا الاسم، إلى

جماعات!.. واحدة تراه الشخصية الجديرة بأن تكون «المسيح» وأخرى لا ترى في شخصه «المسيح المنتظر»..

وبين شعب مغلوب ينادي بيسوع «مسيحياً» وكهنوت غالب يرى نسبته إلى داود غير صحيحة.. وبين طائفة ترى أن عُطله من أب معروف يجعله من الإله «روحاً» وبه جاءت «الروح القدس»، تعصف عواصف السلطة الزمنية والدينية وللمرة الثانية تفشل الفكرة بقيام «مسيح»!..

وصُلب يسوع أو «المسيح الثاني»...

ليس المجال الآن بمجال التحدث عن يسوع والمسيحية فإنما المجال مجال الدين العبري الذي يُسجِّل تاريخه أن هذه الدعوة التي قابلتها اليد القادرة بالصلْب قد فشلت به للمرة الثانية فكرة قيام «المسيح»!

ولكن!.. فشل الفكرة بعث اللظى الثاوي تحت الرماد لهباً تطايرت به تلك الحمم التي تناثرت في أرجاء أورشليم سنة ٦٦ ب.م، وظلّ دويه سنوات أربع أسكته الرومان بإحراق «بيت الرّب» فسجّل التاريخ:

هدم المعبد وتفرّق الشعب العبري في كل مُتجه

من دوي أنقاض أحجار «البيت» الهاوي فَرَقاً تفرّق الشعب العبري في أرجاء دنياه إلى عبري يسوعي وعبري موسوي.

بين يسوعيين وموسويين تفرّق الشعب العبري في أنحاء دنيا القرن الأول ب.م، وإلى حيث حملته ريح النوى حملت معه مذاهبه وعقائده... تفرّق شعب افترق إلى قسمين: قسم يؤمن بأن يسوع هو «المسيح» وقسم ينتظر «المسيح المنتظر»!

بين عقيدة بـ «مسيح» قد جاء و«مسيح» سيجيء، انقسمت الجماعة العبرية إلى فئتين تباينت في ظاهر اختلاف منهما النظرة فبينما تلهب اليسوعية عقيدتها أن «المسيح» قد جاء وتبعث فيها التطلّع إلى المستقبل والتفاني في نشر هذه الدعوة، تنطوي الموسوية على نفسها تتلمّس الأمل الذي تراه فيها في تلاش.. خيبة أمل ضاعفها طويل الانتظار وكلاهما تضافرا على أن يخمدا بها لهب الحماس وبقدر ما تطلّع اليسوعيون إلى المستقبل، استدار الموسويون على الماضي.

أين «المسيح المنتظر» أين ذلك «اليوم الموعود»؟

أين أورشليم العاصمة الدينية وأين في الأرض المقدسة، بيت الرّب؟

وأين.. أين الصلة بـ «بيت الرّب» بين إسرائيل والرّب؟

لقد هوت أورشليم فهوت الجامعة الوطنية، وهوى «البيت» ومع البيت هوى النظام الكهنوتي ـ لم يعد هناك محراب ومذبح وعن تقديم القرابين والضحايا ورش الدماء المفروضة كفت قهراً يد إسرائيل!

أجل... حُلّت الرابطة التي كانت تربط جماعة إسرائيل بعضها ببعض وإلى موسى تشدّ منها الوثاق، وفي انتشار بين شعوب بارزة أفاقت، في غمرة الاغتراب، إسرائيل، تجد نفسها قد نثرتها اليد الرومانية، وتتلفّت فتجد نفسها خالية الوفاض إلا من الذكرى!..

والذكرى؟... الذكرى حالة فكرية تعانق الفكر لدى غروب كل أمنية وتلاشي كل أمل... ولا تعانق الفكر إلاّ لتطرق مطارقها أنغام الحزن..! والحزن إذا ما تطرّق إلى النفس وعرف إلى النفس الطريق، صرف الفكر عن حاضره وأصمّ الأذن إلاّ عن الانصات إلى ما تبعث هذه الذكرى من أصوات وأطياف.. بدافع هذه العوامل الفكرية والنفسية تناولت اليد الإسرائيلية في وحشة الاغتراب، الحلقة التي تصلها بالماضي المتمثّلة فيها في يدها من «كتاب» حوت دفّتاه، إلى جانب الأسفار الموسوية الخمسة الحاوية تاريخه الأول وتاريخ الدين والمعتقدات والعقائد الشائعة بينها، الأسفار التي كتبت في غضون الأسر البابلي وبعده، وانحنى القلب العبري عليها يراجع فيها الماضي، وبالقدامى والعهد القديم يطوّف في «العهد القديم».

كلا لا شيء يصل الشعب العبريّ بالرّب، بماضيه، بكينونته، بوجوده، سوى هذه الكلمة المكتوبة ـ فَقَد كل صلة بينه وبين الرّب ما عدا هذه الكلمة التي يراها الصلة الوحيدة التي تصله بالرّب فلا غرو من ثمّ أن يزيد الكتاب على قدسية وأن يرى في بقائه لنفسه بقاء، فإنه يراه سجلاً في يده سجلاته تسجل أنه دون الشعوب طُرّاً «الشعب المختّار»، وأن يرى أن إعلان مصدره القدسيّ إعلاء لنفسه وإعزازٌ لها، فيعلن على الملأ: إن، والأسفار الموسوية من الرّب لموسى أملاه، الكلم إنما وحي في كتاب مقدّس لدين يقف، بين الأديان، ديناً منزلاً!

إذن إذا كانت أورشليم قد دُنست وإذا كان «البيت» قد هوى فإن أورشليم قد غدت «التوراة»!

و«البيت» قد غدا «التوراة»..!

وبـ «التوراة» الواصلة الصلة بين إسرائيل وربها ربطت الرابطة بين إسرائيل كأمة تناثر أفرادها في خضم الأمم... وهكذا جاء هُويُّ «البيت» بقيام «الكتاب المقدس»!

أجل... قوّض الرومان بيتاً يمثل الحلقة الواصلة بين إسرائيل والرّب لينتهي بانتهاء «البيت»

وجود لإسرائيل في عاصمتها الوطنية، بيد أن أخطأ الحدس الروماني عندما ظنّ هذا الظن، فإن الكلمة المكتوبة كانت أشدّ من «البيت» رابطة وصلة فالتوراة الآن الوطن والموطن والجامعة والبيت!.. «التوراة» الآن الرابطة التي تربط بين أطراف إسرائيل في غربتها واغترابها أكثر مما كانت في مدينتها، فقد لحم الاغتراب بينها بلحام العاطفة وشدّ أواصرها إلى بعضها بعضاً لجام للعاطفة لم يك ليكون لو لم يك قد قُوض «البيت»!..

أجل... جاء هُويّ «البيت» بعاطفة جديدة سَرَتْ في أوصال إسرائيل فكان للالتحام الكتابيّ أثره الذي سيطالعنا فيما بعد ـ كما جاء هُويّ البيت بأثره الذي اصطبغ به الدين العبري بصبغة جديدة، صبغته كانت فاصلاً بين الدين العبري في عهديه القديم والحديث ـ فالقديم كان يقوم على ألوان من الفرائض تتخذ شكل الطقوس ـ كان يقوم على محراب أو مذبح إليه تساق، تبعاً للشريعة الموسوية، القرابين والضحايا ويقوم على تعهده كهنوت رأسه بيت لاوي أما الحديث فإن تقويض «البيت» كان هدماً للمذبح وتشتتاً للكهنوت ومن ثم كان خراب «البيت» نهاية للتقاليد الموسوية، فلا قرابين ولا ضحايا ولا رش دماء على المذبح سبعاً بيد أن بالتوراة ظلّ الدين قائماً ولكن تحت صبغة جديدة فالآن قد أضحى الدين شعائر محصورة في تلاوة التوراة وأمسى صلوات تنطلق من الشفاه ومن القلب إلى الرّب!

صبغة كل الجدة جديدة على إسرائيل بدأ بها الدين يستشعر الجانب الروحيّ... وتحت هذه الصبغة الجديدة بدأت تسير في أرجاء الدنيا على الموسويين الأيام عبر العهود، يزيدهم بالتوراة تعلّقاً وبها تمسكاً واستمساكاً كلما باعدت بينهم وبين ماضيهم الأجيال، وكلما ازداد انطواؤهم في غمرة الشعوب في الخارج، بل زادهم بالتوراة تمسّكاً أحداث في أورشليم تجري في الداخل يقف من بينها ذلك الحدث الذي كاد يحقق لهم حلماً ما لبث أيضاً للمرة الثالثة أن تلاشى ـ حلم، وجدت نفسها بعده تشتد منها اليد تمسّكاً بالتوراة فللمرة الثالثة يفشل الحلم بقيام «مسيح» وتُسجّل يد الزمن: فشل الفكرة «بالمسيح الثالث» باركوشباس! للمرة الثالثة يفشل الحلم بمسيح يقوم.. حلم إليه طويلاً طال من إسرائيل الترقُّب والارتقاب!

أجل... في عهد هدريان (١١٧ ـ ١٢٨ ب.م) فشل، كما فشل بزر بابل وبيسوع، الحلم بابن النجم.. باركوشباس!

للمرة الثالثة فشلت عن التحقيق عقيدة «المسيح المنتظر» في هذا الشعب الذي «قتل المسيح الثالث باركوشباس»!.. هذا الشعب الذي يقف الآن في عصر فيه كل شيء عن ذي قبل قد تغيّر!.. ففي هذه الفترة الزمنية من التاريخ كان العقل الإنساني قد احتوته مرحلة

ناضجة سجلتها خطواته في اليونان الصُغْرى والكُبرى بها عبق في أرجاء الدنيا أريج فلسفات أتت بألوان جديدة من التفكير تغيرت بها عن ذي قبل صورة الوجود بل وقَفَتها خطوات سجلها العقل الإنساني في الإسكندرية والأحداث السياسية تمزج على رمالها الشرق بالغرب وتأتي بثمرة من العنصرين جديدة تلاقت فيها عصارة العقلية الرومانية باليونانية بالمصرية بالكلدانية بالفارسية بالهندية وبآراء الشرق الأقصى.. ثمرة، نشأت فنشأت بنشأتها مشاكل جديدة عقّدها وعمل على حلها للآرية بحث وللسامية إلهام وكان من جرائها للدين بالفلسفة احتكاك كان من نتائجه ظهور عقائد ألوانها، وإن تك من الدين والفلسفة مستمدة، قد جافت الدين الخالص وخالص الفلسفة... بطرف من كليهما أخذت فجاءت دينية فلسفية وفلسفية دينية فيها أديان الشرق وفلسفات الغرب مزيج بيد أن عن أديان الشرق وفلسفات الغرب كل الغرابة، في آن الآن، غريبة!

هذا هو العصر الذي تلفت فيه العقل الإنساني عبرياً والإسكندرية له مكان وأمام تلك الألوان الجديدة لمشاكل الدين امتد يريد منها التثبت فتناول كتابه المقدس يقرؤه في ضوء العصر الفلسفي وأضواء العلم اليوناني فتطرق إلى تفكيره في دينه الشك!... إن العقل العبري لم يطرق تفكيره من قبل شك في دينه وقصصه وأما الآن فقد بدأ الشك يتطرّق إليه... ولكن! أنّى للعقل العبري أن يبوح بهذا الشك والمدُّ العقلي الغريب عنه عليه ممتد له مكتنف بل وله غامر يريد له اجترافاً حتى بلغ امتداده حداً يُعرِّض أسس الدين العبري للتصدّع! ومن ثم فإن عليه أمام هذا المدّ المكتسح الجارف أن يُعْلي كلمة دينه، كلمة «الكتاب المقدس» الذي به تترابط قبائله كأمة وتقوم وحدتها بين الشعوب كشعب..

بيد أن في نفس الآن وإن جنحت من العقل الإنساني تحت صبغته العبرية العاطفة إلى دينه فإن ميوله الفكرية ناحية العقليات كل الميل تميل... واجبه من ثمّ التوفيق بين المعتقدات العبرية والفلسفة اليونانية ولكن!.. في إعلاء وانتصار للدين الموسوي عن طريق تأويل، لصالح الدين، نصوص الدين!.

أجل... إلى العقل العبري تطرّق في هذا العصر ولكن فيه رسخت العقيدة العبرية ليطالعنا من بعد مزج العقيدة الدينية بالنظرة الفلسفية وابتداع «بدعة التأويل». وإلى العقل العبري تطرّق من بعد هذا الشك شك حين سجلت له العصور التاريخية «عصر المشنا والتلمود» عصر الفتح الإسلامي، عصر انقسام العقلية العبرية إلى قرّائين وربانيّين ففي هذا العصر الذي استهله سقوط المجمع الديني للشعب العبري أدركت العقلية العبرية، والعقلية

العبرية تمثّلها شعبة الفريسيين، أن هناك من الوسائل وسيلة لتقوية الرابطة الدينية بين الطوائف المتفرّقة وهي تدوين جميع السنن والتقاليد والأصول حتى لا تفقِد كل جماعة منهم، في تقاليد الشعب الذي تعيش بينه، تقاليد دين إسرائيل.

وتجمّعت شعبة الفريسيِّين جميع رؤساءها متفرق السنن الموروثة ودقيق التقاليد المتبعة والقوانين والأصول والعادات المتوارثة، يدرجونها في سفرٍ تمّ جمعه في منتصف القرن الثالث ب.م، بعثوا بنسخة إلى الطوائف المشتتة في تيه الأرض فتلقفته النفوس الظمأى إلى عزة إسرائيل ومجد صهيون ترى فيه رجعة للعزة المنهارة، وتتدارسه كتاباً جامعاً السنين تناديه باسمه الذي أسماه به جامعوه «المشنا» أو السنن...

ولكن اليد التي تناولت «المشنا» قد غدت يداً سارت بها الأيام ومرّت بها من ألوان الفِكر ألوان في ضوئها وجدت في هذا السفر فقرات غامضة مهمة المعنى، ووجدت نفسها به تتفرق جماعات تجمعها المناقشات حوله والجدل ـ حال بلغت في بعض الأحوال مبلغ العنف الذي استوجب أن تبادر العقلية العبرية إلى أن تضع له شروحاً وتعليقات اقتضت إضافة أصول جديدة وتقاليد ليس لها في المشنا أثر، وتمّ في نهاية القرن الخامس بعد الميلاد وضع التعليم أو «التلمود».

وللتلمود كانت الكلمة الحاسمة في شأن انقسام الشعب العبري فله تناول وعليه انحنى والزمن به يسير حتى احتواه عصر الفتح الإسلامي ففي هذا العصر الذي أعاد فيه الفتح الإسلامي مزج العناصر البشرية مزج الفتح الإسكندري من قبل، هبّت العقلية العبرية في خضم المشاكل الدينية تعلن تحكيم العقل ولكن جفلة من جُرأتها ما لبثت أن ارتدت فعصرها الآن عصر دين آخر!

ومن ثم منتصرة لدينها ترجع تعلن أن لا حقيقة إلا في نصوص أسفار موسى!

كان هذا النداء، نداء عنان بن داود في العهد المنصوري، الذي رجعته الأصداء العبرية قبولاً ومن حوله تجمّعت مذهباً يطلق على نفسه اسم قارئي النصوص الأولى فطلعت فئة (القرّائين) وتكونت هذه الشعبة التي بها عاد في ذاكرة الزمن ذكرى الصدوقيين تلك الشعبة القديمة التي نادت قديماً في مهبّ الزعازع الفكرية بمبدأ الرجوع إلى «التوراة» بل إنها كاستمرار للصدوقية جاءت القرّائية تعلن تحكيم العقل ولكن.. لا ليحكم العقل حراً وإنما ليؤيد العقل نصوص الدين!

أجل... أمام ما يجري من مشاكل دينية، يزداد العقل العبري احتضاناً للتوراة، كتابه المقدّس، بل ويتنادى «قرائياً» ويتابع نفسه «ربّانياً» يعلن: أن التوراة كتاب مقدّس لا تلحقه

الشبهات فإن موسى صادق القول!..

صدق موسى حين قال: إن الرّب له قد تجلّى في موآب ومن قبل في سيناء وله كلّمه على الجبال بما قد حوت دفّتا الكتاب المقدّس من كلم وكلام!

بهاتين الشعبتين، قرائين وربّانيين، باسم الوحي والموحِيات وإعلان أن الكفر إنما في الحياد عن نصوص موسى، وأن التوراة من الرّب إلى موسى وحي تنزّل وكلام، تحدّر هذا الكتاب على الأجيال كتاباً مقدّساً لا تلحقه من الجماعة العبرية الشكوك... ومنذ ذلك العهد حتى هذا العهد والجماعة العبرية تحفه بالتقديس يدفعها إلى هذا المظهر الحال النفسية لهذا الشعب المغمور في غمرة الشعوب!

هذا هو الدين العبري الذي كُوّن بموسى... رواية!.. رواية بدأت منها أهم الفصول في سيناء!...

حول هذا الدين يلتفُّ الشعب الذي كوّنه موسى بـ «أهيه» ـ !... شعب جمعته منذ يشوع عقيدة مذهبية حتى فرّقته عقيدة مذهبية أخرى جاءت بمجيء يسوع...

ومنذ يسوع حتى حاضر هذا العهد، حتى حاضر عصرنا، احتفظ وعي الزمن بهذا الدين... دين عقائده لم تقتصر عليه فحسب وإنما خضبت ما قد قام عليه، كأساس، من صروح أديان قائمة اليوم تجعل دين موسى اليوم عالمياً!..

أجل... هذا هو الدين العبري... دين محوره إله جاءت به الموسوية وتوارثته المسيحية وورثه الإسلام... دين كتابه «كتاب مقدّس» يحتم الإسلام والمسيحية به التصديق... كتابٌ منزّل من لدن إله مكانه السماء!..

مكتبة بغداد

الدين في مصر
والعصور القديمة وعند العبريين

«نحو آفاق أوسع» لأبكار السقاف في أجزائه الأربعة صودر عام ١٩٦٢ لجرأته العقلية والعلمية ، وظلت كتاباتها مطمورة كالكنوز تحت ركام النسيان والتجاهل ، إلا أن شقيقتها الفنانة «ضياء السقاف» ظلت حارسة لهذا الكنز محافظة عليه ، حتى يخرج إلى النور ، كما أرادت له صاحبته ، وكما تمنت أن يكون بستاناً عظيماً يقطف منه العقل الإنساني . وسيذهل العقل العربي عندما يطلع على كتابات هذه السيدة المنسية .

إننا بنشرنا كتابات أبكار السقاف نحاول أن نضع أفكارها كما هي ، حيث حرية الإنسان والبحث عن العقل في عالم متماوج ومتغير ، في عالم تحده أمراض التكفير والقتل المجاني والموت العبثي .

تتألف سلسلة «نحو آفاق أوسع» من أربعة أجزاء هي :

- الدين في مصر والعصور القديمة وعند العبريين
- الدين في الهند والصين وإيران
- الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين
- الدين في شبه الجزيرة العربية